

جوستاين غاردنر

قلعة في البيرنيه

4.4.2014

رواية/ دار المنى



جوستاين غاردر

قلعة في البيرنيه

رواية

النص العربي بقلم:

سكينة ابراهيم

دار المنى

قلعة في البيرنيه

ISBN 978 91 85365 73 9

© Arabic Edition Bokförlaget Dar Al Muna, Stockholm 2010

© 2008 H. Aschehoug & Co. W. Nygaard AS, Oslo Norway

© Cover Quint Buchholz C/O Montasser media, Munich

Original title in Norwegian: Slottet I Pyreneene

Arabic text: Sukaina Ibrahim

This translation has been published with the financial support of NORLA

All rights for Arabic language © Bokförlaget Dar Al Muna AB

Printed in Sweden by Scandbook , Falun

www.daralmuna.com

حسنًا، ها أنا ذا يا ستاين. أن التقيك من جديد إنما هو السحرُ بعينه! وهناك بالذات! كُنتَ من فرطِ ذهولِكَ تسقطُ أرضًا. ولعلَّكَ تتركُ أن نقاعنا ذاك لم يكن لقاءً بالصدفة. ثمة قُوى خفية كانت تعمل هناك! قُوى!

تسنى لنا أن نستخلصَ أربع ساعات لأنفسنا، إذا جازَ لي القول. وخلفَ هذا أثرًا سيئًا في نفس نيلز بيتر، ولم ينبسَ ببنتِ شفة إلا عندما وصلنا إلى "قورد".

حَثَّنا الخُطى لا نرومُ إلا عبور الوادي. وبعد نصف ساعةٍ من المشي وجدنا أنفسنا إزاء أَيْكة البتولا مرَّةً أخرى...

لم يقل أي منّا ولا كلمة واحدة طوال هذا الوقت، أعني عن ذلك الحَث. تكلمنا على كل شيءٍ آخر إلا عليه. كالأيام الخوالي تمامًا؛ حيث لم نستطع الوقوف متَّحدين في جبهةٍ واحدة لمواجهة ما جرى. وما لبث أن جفَّ نسغنا وأُيسست كرومنا، لا أعنيك أنتَ بهذا أو أعني نفسي بقدر ما أعني الرابط الذي جَمعنا. وفي آخر الأمر انتهى بنا المطاف إلى عجزنا حتى عن تبادل تحية المساء. أتذكرُ تلك الليلة الأخيرة التي قضيتها على الأريكة. وأتذكرُ عبق دخان لِفافتك من الغرفة الأخرى. بل شعرتُ ليلاتها بأنني قادرة على رؤية رأسك المُطاطي من خلال الجدار والباب المُغلق. كنتُ جالسًا محني الظهر إلى الطويلة تدخن. في اليوم التالي فارقتك وغادرتُ وحدي، ولم نلتق منذ ذلك الحين، لم نلتق لأكثر من ثلاثين سنة. إنه شيء لا يُصدق.

ثم فجأة، بعد تلك السنوات كلها، أيقظنا شيء ما كحكاية الأميرة النائمة - كما لو أننا صنعونا بِمنبِهِ. إعجازي واحد! وإذ بكل منا يسلكُ على حِدَةٍ طريق

السفر إلى هناك. في اليوم نفسه يا ستاين، في قرن جديد، في عالم جديد كلَّ
الجدة. وفجأة هي 'المرحبا!' بعد ما يزيد عن ثلاثين سنة.
لا تَقُلْ لي إنها ليست إلا مَخْضَرٌ صُدْفَةٍ. لا تَقُلْ لي ليس هناك قُوَى خَفِيَّةٌ
تُوجِّهُنَا!

خروجُ سَيِّدَةِ الفندق إلى الشرفة فجأةً فاقَ في سُرياليته أي شيء آخر -
كانت في تلك الأيام ابنة أصحاب الدار الشَّلَبَةِ - وهي الأخرى مرَّ عليها ما
يربو على ثلاثين سنة. وأعتقدُ أنها خَالَتْ ما رَأَتْهُ عيناها ظاهرة 'بيجا فو'
فريدة. أَتَتَذَكَّرُ ما قَالَتْهُ؟ كانت كلماتها: 'مِن اللطيف للغاية أن أرى أنكما ما
زلتما معًا.' تلك كلماتٌ مُوجعة. وهي في الوقت نفسه كلمات لها وَقَعُ هَزَلِي،
بالنظر إلى أنني أنا وأنتَ لم نلتق منذ أن اعتنينا ببناتها الثلاث الصغيرات
ذات صباح في منتصف السبعينيات. فعلنا ذلك تعبيرًا عن شكرنا على
إعارتنا الدراجتين والمذياع الترانزستور.

هُم ينادونني الآن. لا تنس أنها أُمسية من أُمسيات تَمُوز، والعُطل الصَّيفِيَّة
هنا قُرب البحر في أوجِها. أظنهم يَشُورون سَمَك السلمون في الهواء الطلق،
وها هو نيلز بيتر يَأْتِينِي بِشْرَاب. مَنَحَنِي عشر دقائق لأنهي ما أنا مُتَكَبِّةٌ
عليه، وأنا محتاجة إليها، فهناك شيء مهم أريد أن أطلبه منك.

أُمكن أن نتعاهدَ بِصَدَقٍ على حذف الرسائل الإلكترونية التي نتبادلها بعد
الانتهاء من قراءتها؟ أعني حذفها مباشرة، في الحين والساعة، ما يعني حتمًا
عدم طباعة أي منها.

لن نواصلنا الجديد هذا أشبه بنَفَقٍ فكري يتذبذبُ بين رُوحين، وليس
مجرد تبادل رسائل تبقى بيننا إلى الأبد. والمكافأة التي سنجنحها منه هي أننا
سنَسْتَبِيحُ الكتابةَ عن كلِّ شيء.

لكن، لكلِّ منا زَوْجٌ، ولكلِّ منا أبناء. وفكرة بقاء رسائلنا محفوظة في
الكمبيوتر لا تروقني.

إننا نجهلُ طبعاً متى يحين وقت ارتحالنا الأخير. إنما لا ريب في أننا سنغادر يوماً هذا الكرنفال بكل أفتنته وأدواره، ولن يتبقى من بعدنا إلا بضع دعائم فانية، إلى أن تذهب أدرج الرياح هي أيضاً.

ونحن في هذه الرسائل سنتجاوز الزمن ونخطو خارجه، وندع جانباً ما نسميه 'الواقع'.

أعرف أن السنين تمرّ يا ستاين، إلا أنني ما زلتُ إلى اليوم لا أستطيع تخطي الشعور بأن شيئاً مرتبطاً بما حدث في تلك الأعوام الماضية قد ينبثق فجأة من جديد. ومن حين لآخر ينتابني هاجس بأن هناك شيئاً يتتبع خطواتي ويلاحقني بأنفاسه.

لنا ما زلتُ إلى الآن عاجزة عن نسيان الأضواء الزرقاء الواضحة في "لايكأنفر"، وما زال قلبي ينخلع كلما رأيت سيارة شرطة خلفي. مرة، قبل بضع سنوات، دق شرطي بابنا. لا شك في أنه لاحظ ما اعتراني من ارتباك. إلا أنه لم يبيع سوى الاستعلام عن عنوان في الحي.

أكاد أجزم أنك تحسبني أقلق نفسي بلا مبرر. فأني مخالفة جنائية قد بطل مفعولها الآن على أي حال.

أما الخزي فلا شيء يُبطله...

لذا، عذني بأن تحذف الرسائل!

لم تطلّعي على سبب قدمك إلا بعد أن جلسنا بين أطلال كوخ الراعي القديم. حاولت أن تخبرني عما كنت تفعله على امتداد السنوات الثلاثين الماضية، ووصفت لي مشروعاتك عن المناخ. ثم تطرقت قليلاً إلى الحديث عن حلم بالغ الشفافية راودك في الليلة التي سبقت لقائنا على الشرفة. كان حلمًا كونيًا، قلت، ولم يتح لك الخوض فيه بسبب تلك العُجول التي أقبلت تطفر نحونا، لا بل طاردتنا حتى جعلتنا نهرول هابطين إلى الوادي. بعد ذلك، لا شيء آخر قيل عن الحلم.

لكن أحلامك الكونية هي أبداً متوقعة... حاولنا آنذاك أن نتزوّد بسويغات

من النوم، إلا أننا كنا بطبيعة الحال منفعلين جدًا. وهكذا، اكتفينا بالالتكاء هناك مُغمضِي الأعين نتهامس؛ نتهامس عن النجوم والمَجَرَّات وأشياء كذلك. فقط عن أشياء عالية جدًا، جسيمة ونائية...

غريب التفكيرُ في ذلك الآن. كان هذا قبل أن 'أؤمن' بأي شيء. قبله بفترة وجيزة فقط.

إنهم يُنادونني ثانية. لدي ملاحظة أخيرة قبل أن أرسل ما كتبت. كان اسمُ تلك البحيرة "إِذْرِفَانْتِت" أو بحيرة القوم الأَقَمِين. ليس ذلك اسمًا غريبًا لبحيرة جبلية نائية عن الحضارة؟ أعني، من كان أولئك 'القَدَمَاء'، أولئك القوم الأوائل هناك في الأعلى بين الذُرَى والقمم؟

عندما ذهبتُ مؤخرًا إلى تلك المنطقة بالسيارة مع نيلز بيتر، تَلَهَّيتُ بالتحديق في خريطة الطريق. لم أَعُدْ إلى هناك منذ أيامنا يا ستاين، ولم أستطع أن أنظر، خصوصًا إلى البحيرة. بعد عدة دقائق، دُرنا حول البقعة التالية أيضًا. أعني المنعطف القريب من المنحدر، والممرُ بتلك البقعة كان الأشدَّ إيلامًا.

لا أَظُنْ أنني رفعتُ عيني عن الأطلس إلا بعدما أصبحنا في بَطْن الوادي. وفي المقابل عرفتُ أسماء الكثير من الأماكن، وقرأتها على نيلز بيتر. احتجتُ إلى التلهي بشيء ما. خشيتُ أن أنهارَ وأضطرَّ إلى النزوح له بكل شيء.

ثم وصلنا إلى الأنفاق الجديدة. أصررتُ على أن نمضي بالسيارة عبرها، بدلًا من المرور بكنيسة القضاة ثم الانحدار نحو الدرب القديمة بإزاء النهر. تعلَّلتُ بعُذر تأخر الوقت وضيقة.

آه، بحيرة "إِذْرِفَانْتِت"...

كانت امرأة العنَّية 'كبيرة السن'. أو على الأقل هكذا اعتبرناها آنذاك. امرأة كهلة، قلنا، امرأة كهلة بوشاح وردي على كتفيها. أردنا التأكّد من أن

ما رأيناه هو في أدنى الأحوال الشيء نفسه. هذا عندما كنا قادرين بعدُ على التحاور.

أما الحقيقة فهي أنها كانت بسينَ بماتل سنَي اليوم. لا أكثر ولا أقل. كانت ما يمكن أن نصفه بقولنا امرأة في منتصف العمر.

لحظةً أقبلتَ خارجًا إلى الشرفة يا ستاين، وعلى الرغم من مرور ثلاثين سنة على فراقنا، خُلتُ إذ رأيْتُكَ أمامي أنني أقف وجهًا لوجهٍ مع ذاتي. ليس هذا فقط، بل أيضًا وقرَ في داخلي شعور بأنني قادرة على رؤية نفسي من الخارج، أعني من وجهة نظركَ وبعينيك. وفجأة بدا لي كما لو أنني أنا امرأة العجبية. تلك كانت العواطف المزعزعة التي هيمنت علي.

هَاهُمْ ينادونني من جديد. إنها المرة الثالثة، ولذلك سأرسلُ الآن وأحذف. مع أحرّ الأمانتي من سولرن.

أراني أغالبُ نفسي لثلا لكتب 'سولرنك'، فنحن لم نفرق على خصام مطلقًا. وفي ذلك اليوم لم أقم بما هو أكثر من جمع القليل من متاعي والمغادرة. لكنني لم أرجع. ومضى ما يقارب السنة قبل أن أكتبَ لك من "بيرغن" لأطلبَ منك حزم بقية أغراضي وإرسالها، وحتى يومها لم أعتبرهُ فراقًا رسميًا بيننا من أي نوع. إنما رأيتُ أنه التسوية العملية المثلى، لأنني سأمكثُ فترة طويلة في الطرف الآخر من البلاد. وتعرّفي إلى نيلز بيتر حدث بعد مرور عدة سنوات على رحيلي. أما أنتَ فاستغرق بكَ الزمن أكثر من عقد لتلتقي بيريت وتستقر.

كنتَ صبورًا يا ستاين. وأعرفُ أنك لم تفقد قطّ الأمل منّا. وهذا ما جعلني أعاني في بعض الأوقات من الشعور بأنني واقعة في جُرمٍ تعدّد الأزواج.

لن أنسى أبدًا ما جرى عليّ ذلك الطريق الجبلي. وأحيانًا يتهاى لي أنه لا تكاد

تمرّ ساعة من غير أن أفكر فيه.

ثم وقعَ حنثٌ بعد ذلك. وذلكَ كانَ بلا جدالٍ حدثًا بديعًا وميمونًا. واليومَ أراه أشبه بالهبة.

لو أننا فقط كنّا مؤهلين لقبول تلك الهبة معًا! لكن الذعر استبدّ بنا حينها. وفي بادئ الأمر انهرت يا ستاين، وتركتني أهدئ من روعك، ثم لنطلقت فجأة لا تلوي على شيء.

ولم تكد تمرّ بضعة أيام إلا وكنا قد لمعنا في تتائنا. وسرعان ما فقدَ كلٌّ منّا القدرة أو الإرادة على النظر في عيني الآخر. نحن بالذات يا ستاين. كان ذلك لا يُصنق.

سولرن يا سولرن! كم بدوت جميلة! متألّقة جدًا بثوبك الأحمر وظهرك إلى الزقاق البحري والسّياج الأبيض!

عرفتُك في الحال، طبعًا فعلتُ. أم تراني تخيلتُ رؤية الأشياء؟ كنتِ أنتِ حقًا من رأيتُ - كما لو أنكِ نتاج حِقْبة مختلفة كلية.

واسمحي لي أن أقولَ لكِ في الحال: أنا حتمًا لم أربط بينك وبين أي مرآة عتيبة.

أكادُ لا أصدّقُ أنكِ تكفين لي! لقد أملتُ طوال هذه الأسابيع في أن تفعلني. فكرة اللجوء إلى البريد الإلكتروني فكريّ، لكن أنتِ من قلتِ، قبل فراقنا، إنك ستواصلين معي عندما يصبح الوقت مناسبًا. ولذا يعود فضل الخطوة الأولى لكِ.

مذهلٌ التفكيرُ في أن الصدفة شاءت أن تجمعنا ثانيةً في تلك البقعة المائية المنعزلة كسابق عهدنا. إن هذا يبدو تقريبًا كما لو أننا عشنا مع موعدٍ طويلٍ الأجل لنعودَ ونجتمعَ آنذاك وعند ذاك بالضبط. أما الحقيقة فهي أنه

لم يكن بيننا أي اتفاق مُسبق. وما حدث هو حظٌ استثنائي بحت. أقبلتُ إلى الشرفة من صالة الطعام حاملاً فنجان قهوة وصحنًا، وفي غمرة ارتباكي انسكب شيء من القهوة وحرقتُ رُسغي، وكم أنت مُحقة في قولك إنني تحاملتُ على نفسي لأبقى واقفاً على قدمي - كنتُ أحاول تفادي وقوع الفنجان على الأرض وتهشُّمه.

تبادلتُ أنا وزوجك تحيةً مُقتضبة، ثم تذرَّعَ فجأةً بحُجة جَلَبَ شيء من السيارة. فاعتنمنا الفرصة أنا وأنتِ لتتبادل بضع كلمات، وعند ذاك ظهرتُ مالِكةُ الفندق. ربما رأيتهُ وأنا أجتاز مكتب الاستقبال، وربما تذكرتُني من تلك الفترة الفائتة بينما الفندق في رعاية أمِّها.

كنّا في تلك اللحظة نقف وجهًا لوجهٍ يا سولرن، أنا وأنتِ. وعلى ما يبدو اعتبرنا زوجين في منتصف العمر، زوجين جاءا إلى هذا الزُّفاق البحري قبل رَدحٍ من الزمان في رحلة رومانسية، قبل أن يستقرَّا ويقضيا بقية حياتهما معًا - كثيرًا ما تخيلتُ هذا - ثم، على حين غِرةٍ يقرَّران العودة أخيرًا، ربّما في نوبة حنين جارف، إلى مسرح مغامراتهما الشبابة. وهذا يعني بطبيعة الحال أن نخرجَ إلى الشرفة بعد وجبة الصباح، مع أننا معًا أقلعنا عن التدخين - من أجل المصلحة العامة - لنُسرَّحَ النظر إلى شجر الزان النحاسي، والخليج والجمال. لطالما فعلنا ذلك في تلك الأيام.

تغيَّرَ مكتبُ الاستقبال في الفندق، وظهرَ مقهى جديد لاجتماعات العمل العابرة. أما الأشجار، والمضيق البحري والجمال فبقيت على حالها. وكذلك الأثاث واللوحات في الرْدْهة. حتى طاولة البليارد ما زالت هناك كعهدنا بها، وأشكّ في أن أحدًا قام بضبطَ البيانو القديم. عزفتِ عليه لحنا لـ "ديوسي" آنذاك، وعزفت مقطوعات حاملة لـ "شوبان". لن أنسى أبدًا كيف تحلَّق بقية الضيوف حول البيانو وصفَّقوا لك بحرارة.

ثلاثون سنة مرّت. ومع ذلك كأن الزمن توقّف منذ ذاك الحين شبه ساكن.

لقد تمكّنتُ من التفاوضي عن التعديل الوحيد الفعلي هناك! أعني الأنفاق الجديدة! في تلك الأيام لم يتأمن أي بديل آخر عن الزوارق. كنّا قد جئنا بالزورق، وكذلك غادرنا بالزورق.

أتذكّر كيف هدأتُ مخاوفنا عندما وصلت العبارة الأخيرة؟ بعدها انقطعت القرية عن العالم، وغدّت بقية تلك الأمسية تحت تصرّفنا، تبعثها تلك الليلة ثم الصباح التالي، إلى أن شقّت عبارة "النيسوي" طريقها خارج الرّفاق البحري وعادت بمزيد من المسافرين قبل الغداء. ساعات من النعيم، أسمينّاها. أما في أيامنا هذه فأفترض أنه يتحمّم علينا أن نجلس على الشرفة طوال المساء ونتفحص كلّ سيارة تندفع خارجة من النفق. ونتساءل هل تُكمل طريقها غربًا، أم أن إحداها قد تنعطف عند متحف الجليد وتأتي إلى الفندق في إثرنا - أعني لتضعنا قيد الاعتقال؟

على فكرة، نسيتُ أننا اعتنينا ببناتها. وهكذا ترين أنني لا أتذكّر كلّ شيء.

يناسبني اقتراحك حذف الرسائل فورًا بعد قراءتها، وحذف الردود حالما نرسلها. أنا مثلك لا أحبّد وجود أي شيء في حافظتي الكمبيوتر قد أضطرّ إلى الكذب بشأنه. أحيانًا يشعر المرء بالعنت عندما يجد متنفسًا لأفكاره وتداعياتها. وفي وقتنا الحاضر كثيرة جدًا هي الكلمات التي تُخزّن وتُصنّف على صفحات الإنترنت، أو في شرائح الذاكرة والأقراص الصلبة.

لذا حذفّت الرسالة الإلكترونية التي بعثت بها لي منذ برهة، وها قد جلمستُ لأجيلك. ولا بدّ لي من الاعتراف بأن عملية الحذف هذه لها مساوئها أيضًا. فانا إذ أقبعُ هنا تعتريني رغبة قوية في أن تُتاح لي فرصة تكرار قراءة أحد مقاطعك. الآن أراي مضطرًا إلى الاتكال على ذاكرتي، وعلى هذا النحو سيأخذُ تبادل هذه الرسائل الإلكترونية مجراه.

تُسرّين لي في رسالتك احتمال وجود يدٍ لبعض القوى الغيبية وراء التّنام

شَمَلْنَا الرَّائِعَ هُنَاكَ عَلَى شُرْفَةِ الْفُنْدُقِ. وَهَذَا يَسْتَدْعِي مِنِّي أَوَّلًا وَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ سَوَالِكُ التَّحَمُّلِ بِالْحِلْمِ عِنْدَمَا يَتَعَلَّقُ النِّقَاشُ بِمَسَائِلِ كَهَذِهِ، لِأَنِّي سَاعَبْتُ عَنْ نَفْسِي بِصِرَاحِي السَّابِقَةِ الَّتِي دَرَجْتُ عَلَيْهَا فِي الْمَاضِي. وَبِالنِّسْبَةِ لِي لَا يَسْعَنِي اعْتِبَارُ مِثْلَ هَذِهِ اللَّقَاءَاتِ الَّتِي تَقَعُ صُدْفَةً إِلَّا حَوَادِثَ حَظٍّ لَا تَخْضَعُ لِلْإِرَادَةِ وَلَا لِلْسَيْطَرَةِ بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ. صَحِيحٌ أَمَّا فِي وَضْعِنَا لَمْ تَكُنْ بِمَجْرَدِ وَاقِعَةٍ تَافِهَةٍ، بَلْ صُدْفَةٌ ضَخْمَةٌ. وَلَكِنْ عَلَيْكَ أَنْ تَأْخُذَ بِعَيْنِ الْاعْتِبَارِ مُحْتَمَلِ الْأَيَّامِ الْآخَرَى الَّتِي لَا نَخْتَبِرُ فِيهَا شَيْئًا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ.

مَعَ الْمُحَازَفَةِ بِتَاجِيحِ نِيرَانِ مِيلِكُو إِلَى مَا هُوَ مُكْتَنَفٌ بِالْأَسْرَارِ، سَأَفْضِي لَكَ بِشَيْءٍ. عِنْدَمَا خَرَجْتَ الْحَافِلَةَ الَّتِي سَافَرْتُ بِهَا مِنَ النَّفْقِ الطَّوِيلِ عِنْدَ "بِيرْغُورْفِدِن"، كَانَ الضَّبَابُ يُحِلُّ الرُّفَاقَ الْبَحْرِي حَائِلًا بَيْنِي وَبَيْنَ تَمْيِيزِ أَيِّ شَيْءٍ فِي الْأَسْفَلِ. تَسَنَّتْ لِي رُؤْيَا الْقَمَمِ، أَمَّا الْخَلِيجُ وَالسُّهُوبُ فَمُجِيتٌ مِنْ ذَلِكَ الْمَشْهَدِ. ثُمَّ طَالَعْنَا نَفْقَ آخَرَ، وَحِينَمَا انْدَفَعْنَا خَارِجَهُ، وَجَدْتُ نَفْسِي تَحْتَ مَلَأَةِ السَّحَابِ. لَحْتُ الرُّفَاقَ الْبَحْرِي وَيُطَوِّنُ الْوُدْيَانَ الثَّلَاثَةَ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسُهُ لَمْ أَعُدْ قَادِرًا عَلَى رُؤْيَا سَفُوحِ الْجِبَالِ.

وَكُنْتُ أَفَكِّرُ، أَتَرَاهَا هُنَاكَ؟ هَلْ تَأْتِي هِيَ أَبْضًا؟

وَكَانَ أَنْ أَتَيْتُ. فِي الصَّبَاحِ التَّالِيِ عِنْدَمَا خَرَجْتُ مِنْ صَالَةِ الطَّعَامِ إِلَى الشَّرْفَةِ وَأَنَا أَوَازِنُ بِيَدِي فَنَاجِنًا طَافِحًا بِالْقَهْوَةِ، رَأَيْتُكَ تَقْفِي عَلَى تِلْكَ الشَّرْفَةِ بِثَوْبٍ صَيْفِي هَفْهَافٍ.

قَمِيًا لِي أَنِّي أَنَا مِنْ وَضَعْتُكَ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ، كَمَا لَوْ أَنِّي أَنَا مِنْ كَتَبْتُكَ فِي سِينَارِيُو الْفُنْدُقِ الْقَدِيمِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بِالذَّاتِ. بَدَأَ الْأَمْرُ كَأَنَّكَ وُلِدْتَ عَلَى تِلْكَ الشَّرْفَةِ مِنْ ذَاكِرَتِي وَمِنْ خُسْرَائِي.

لَكِنْ سَيَطْرُقُكَ عَلَى تَفَكُّرِي لَيْسَتْ شَيْئًا يَسْتَدْعِي الْكَثِيرَ مِنَ الْاسْتِغْرَابِ، خُصُوصًا بَعْدَ أَنْ رَأَيْتُ نَفْسِي فَجَاءَةً فِي الْبُقْعَةِ الَّتِي أَطْلَقْنَا عَلَيْهَا اسْمَ 'مَعْرَظِنَا الشَّهَوَانِي'. عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنْ تَرَامُنْ وَصَوْلْنَا إِلَى هُنَاكَ لَيْسَ إِلَّا مَخْضَ صُدْفَةٍ خَالِصَةٍ طَبِيعًا.

كنتُ جالسًا إلى طاولة الفطور أفكرُ فيكَ وأنا أشرب كوبًا من عصير البرتقال وأقشرُ بيضةً. وما لبثتُ أن استغرقتُ كليًا في تفاصيل حلم شفاف راودني. ثم حملتُ فنجان قهوتي ومضيتُ إلى الشرفة. و... بسحرٍ ساحرٍ - هناك كنتُ!

شعرتُ بالأسف على زوجكِ. وتعاطفتُ معه بِصدقٍ عندما تركناه بعد ساعة ومضينا إلى الجبال وحدنا.

طريقةً مَشِينًا، وطريقةً استهلانا للحديث ردَدنا وَحِيبَ صدى حلوا للزمن الذي قضيناه هناك في فورة اندفاعنا الشبابي. الوادي لم يتغيَّر، وكما قلتُ، ما زلتُ تبدين فتيَّةً.

إلا أنني لا أؤمنُ بالقَدَر يا سولرن، أنا حقًا لا أؤمنُ به.

أراكِ تشيرين مُجدِّدًا إلى 'مَرأة العِنبية'. وهذا يلعبُ بأوتار أغرب الأشياء التي اختبرتها في حياتي. أنا لم أنسها، ولستُ أنكرُ وجودها كما ترين. ولكن انتظري قليلًا، فهناك حدثُ شهدتهُ وأنا في طريقي إلى البيت.

بعد رحيلكِ أنتِ وزوجكِ، بقيتُ هناك لأحضرُ افتتاحَ مركزِ المناخ الجديد في الصباح التالي. وكما أخبرتُكِ كان علي أن أُلقي كلمةً قصيرةً عنه على الغداء. ولذلك لم أغادر إلا في صباح يوم الجمعة، حيث ركبْتُ الزورقَ السريع من "بالمِستراند" إلى "فلوم"، وبعد ساعاتٍ من الانتظار هناك، أخذتُ القطارَ إلى "مِرْدال"، ثم وسيلةً نقلٍ أخرى إلى "أوسلو".

قبل أن تُشرفَ علي "مِرْدال" بقليل، توقَّفَ قطارُ "فلوم" عند شلالٍ عظيم يُدعى "كيوسفوزن". واقْبَيْدَ السياحُ بكياسةٍ خارجَ القطارِ ليلتقطوا صورًا لذلك الشلال، أو ليلقوا نظرةً على مَسْقَطِ الماء الطَّبْشوري اللون.

وفيما نحنُ وقوفٌ على الرصيف فوجئنا بظهورِ حورية ماءٍ من المنحدرِ إلى يمين الشلال. بدا لنا كأنها خرجتْ من العدم. ثم، كما ظَهَرَتْ بغتةً، اختَفَتْ بغتةً. بيد أن اختفاءها لم يستغرقِ إلا جزءًا من الثانية، لأنها عادتْ

وطلعت على بعد أربعين أو خمسين متراً. تكررَ هذا مرتين أو ثلاث.
ها، ما رأيك في ذلك؟ ربما نقول إن المرأة إذا كان شبحاً فلا شيء
يضطره إلى الخضوع لقوانين الطبيعة.

يُستحسن على أي حال ألا نَسْرَعَ في القفز إلى النتائج. وهذا يستدعي
مني التساؤل ما إذا كنتُ فعلاً قد أبصرتُ شبحاً أو راودتني رؤية؟ لقد
اختبرَ جمعٌ من الناس يُقارب المثة التحرية نفسها التي اختبرتُ. فهل كنّا
كلنا حينذاك شهوداً على شيء خارق للطبيعة؟ أعني أننا جميعاً لمُحنا حوريةً
حقيقيةً أو روحاً من أرواح الطبيعة؟ لا، لا. من الواضح أن المشهدَ برُمته
كان مُعدّاً للسياح، وما لا يمكنني تخمينه فقط هو المبلغ الذي تقاضاه
أولئك الفتيات.

هل أغفلتُ ذَكَرَ شيء؟ نعم - فتلك الفتاة، بصرف النظر عن كلِّ ما
قلته عن ظهورها المُفاجئ، لم تنتقل في المكان بطريقة طبيعية، بل وثبتت من
بقعة إلى بقعة بسرعة البرق. ما يعني أنهما فتاتان لا واحدة. وهي في جميع
الأحوال خُدعة! ولا أملك أدنى فكرة عن عدد 'المحوريات' اللاتي كنَّ
هناك عند "كيوسفوزن" في ذلك الأصيل. أفترضُ أنهنِ اثنتان أو ثلاث،
وكلهن حتماً يتقاضين المبلغ نفسه.

أخبرك بهذا لأنني أدركتُ شيئاً ربما لم يخطر لنا قط في الماضي، وأرى
أن الأوان لم يَفُت لناخذَه بعين الاعتبار. لعل أحداً هياً وجود 'مَراة العنبة'
هناك بطريقة ما. ربما كانت تؤدي دوراً، تمارسُ خُدعة علينا، ولعلنا لسنا
وحدنا ضحايا نزواتها المُفتعلة. إن القرويين ذوي الأطوار الغريبة مثلها يمكن
العثور عليهم في كلِّ مكان تقريباً.

مهلاً، ألم أغفل هنا أيضاً شيئاً آخر؟ بلى بالتأكيد! الأمر لم يبدُ كما لو
أن 'مَراة العنبة' انبثقت من لا شيء ومن لا مكان فحسب، بل أيضاً
سرعان ما ابتلعتها الأرض بعدما أدت عرضها المسرحي. وربما هذا ما
حدث فعلاً. قد لا تعدو تلك المرأة أن تكون مُهرجاً مُتمرساً وقع في شركِ
قديم أو سقطَ خلف بعض الصخور. كيف لي أن أعرف؟ فنحن لم

نتفحص الأرض، بل في الحقيقة استدرنا على أعقابنا وبكل ما أوتينا من عزم أطلقنا سيقاننا للريح ميممين الوادي كأن الشيطان نفسه يطاردنا. نقول أحيانا لن أصدق حتى أرى. إلا أنني لست واثقا من أنه لا مفر من التصديق عندئذ. علينا ولو من حين لآخر أن نفرك أعيننا قبل أن نصير الأحكام. وعلينا أن نسأل أنفسنا كيف تستي لشيء أو لشخص أن يوقعنا شرًا إيقاع في حبال خدعه. لم نفعل هذا حينذاك. كنا مدعورين. وكنا مزرعين بسبب ما جرى قبل ذلك بأيام. ومن الطبيعي أن يتراجع أحدنا في حال تراجع الآخر.

رجاء، لا تظني أنك قد صددت. لقاءك من جديد غمرني بسعادة جمّة، وصارت الابتسامة تلازمي في حلي وترحالي. أنا لا أعني أن مثل هذه المصادفات الميمونة ثانوية أو بلا معنى. بل هي عظيمة المغزى لأنها تستقطب اهتمامنا وتؤثر فينا. وهي أيضًا مهمة جدًا لما يترتب عليها من بعدها. من بين كل الأماكن لم يجمع شملنا إلا هناك. وعندئذ لم نرّم إلا الصعود إلى كوخ الراعي المعهود لمرة أخرى. من قد يخطر له أن شيئًا كهذا يمكن أن يتكرر؟

لو أن الاجتماع الدوري كان متيسرًا لنا، لنقل مرة أو مرتين في السنة، فإن نزهة على الأقدام لأربع ساعات ليست بالوقت الطويل. إلا أن هذه الساعات الأربع تعتبر وقتًا طويلًا جدًا بعد انصرام عدة عقود على لقائنا الأخير. لأن التفاوت في هذه الحالة بين ذلك اللقاء الوحيد وبين لا شيء على الإطلاق جسيم.

لا بأس يا ستاين، التواصل معك مبهج، وهو أيضًا يتضمن تذكيرًا بالأسباب التي باعدت بيننا. كان أحدها آنذاك، وهو كذلك الآن، الاختلاف الكبير بيننا

في طريقة تفسيرنا لأشياء معينة اختبرناها معًا. سبب آخر هو فوقيتك وخطك دائمًا من شأن تلويحاتي.

إلا أن التواصل معك مُبهِجٌ على الرغم من كل شيء. أفتقدك. فقط لمنحني القليل من الوقت، وسأجيبك عندما يغدو مزاجي أفضل.

لم أتعمد التصرفَ بِفَوْقِيَّةٍ، ثم إنني لا أتذكرُ حرفيًا الكلمات التي استخدمتها. ماذا قلتُ؟ ألم أقلُ إنني الآن أجولُ في البيت ضاحكًا في عتي لأننا التقينا ثانية؟

على أي حال، لديّ المزيد في جعبتي. سافرتُ في طريق العودة علي متن عبّارة تحمل اسمَ الزُّقاق البحري نفسه. وأوّل موقعٍ قصَدْتُهُ العبّارةُ كان "هيلًا"، حيث أوقفنا مرّةً سيارتنا القديمة الرهيبة تلك - انتابني شعورٌ غريب جدًّا وأنا أقفُ على سطح العبّارة وأشرفُ على رصيف المراكب - بعدئذٍ تجاوزنا الخليجَ الرئيسي إلى "فانغسنيس" قبل أن نستديرَ ونُتجه إلى "باليستراند". هناك، رحْتُ أذرُعَ البقعة المجاورة لفندق "كفيكني" ذهابًا وإيابًا بانتظار المركب السريع من "بيرغن". تأخَّرَ ذلك المركب قليلًا، وأظنُّ أنه تجاوزَ مواعده بنصف ساعة تقريبًا، وفيما أنا أصعدُ إليه اكتشفتُ أنه يحمل اسمَ "سولندير"!

أُخِذْتُ على حين غرّة. فكَّرْتُ فيك طبعًا، مع أنني بصراحة لم أفكر في أشياء أخرى كثيرة منذ أن تبادلنا التلويحَ بالوداع عند رصيف ميناء البواخر القديم قبل يومين. لكنني لحظتها عُدْتُ بذاكرتي إلى الصيف الذي ذهبتُ فيه إلى جزر "سولند"، عندما زُرنا جدّتك. ألم يكن اسمها راندي؟ راندي هيتفوغ؟

لا أستطيع أن أقولَ إنني وقعتُ في شباك أحلام اليقظة ليس إلا، بل أفضلُ

وصفَ ما اختبرته بأنه حالةٌ وعي دقيقة، إذ ومَضَ في ذهني فجأة حشدٌ كاملٌ من التجارب القديمة؛ صورٌ حيّة وانطباعات من الزمن الذي عشناه هناك قرب البحر ونحن في العشرين من العمر أو أكثر بقليل. صورٌ تُشبه تقريباً مُقتطفات فيلم من وقائع لا يحضُرني أنني قد التقطتها، وهي لم تكن مقتطفات صامتة، إذ خِلْتُني قادراً على سماع صوتك، سمعتك تضحكين وتخادثنني. ألم أسمع أيضاً وشوشة النسيم وطيور البحر، أو كم أشم رائحة شعرك الأسود المنسدل؟ فَوَاحاً كان برائحة البحر وأعشابهِ. وتلك، لم تكن تداعيات فكرية عادية، بل جاءتني تمورٌ كأنها مِرْجَلٌ عامِرٌ بسعادةٍ كِبَتْ طويلاً، كأنها ارتجاع زمنٍ امتلكناه مرةً.

أقابلك أولاً هناك في الفندق القديم بعد أكثر من ثلاثين سنة على وجودنا فيه آخر مرة. وعندما أغادرُ، أغادرُ على مركب يحمل اسمَ مجموعة الجزر الصغيرة التي يعود إليها أصلُ عائلة أُمك. ألم تقولي يوماً إن اسمك هو على نحو ما صدى لذلك الاسم؟ أتذكرُ جيداً أننا غالباً ما تطرّقنا إلى الحديث عن أكثر الجزر بُعداً التي تُدعى "إيتر سُولا"، الجزيرة التي عاشت فيها جدّتك. ولكن سولرن و"سولندير"! أَمِنَ الغريب إذاً أن أُوخِذَ على حين غرة؟

على الرغم من ذلك، ينبغي ألا تستدرجنا شيباك الصُدف المحبوكَة هذه إلى محاولة استشفافِ نتائج باطنية منها؛ فنحن نعلمُ أن الاسم الذي يحمله ذلك المركب يعود إلى اسم أحد مراكز المقاطعة الإدارية، لا أكثر ولا أقل. وهكذا عدتُ واستعدتُ رِباطة جاشي، إلا أنني لبثتُ واقفاً على سطح المركب أبتمسُّ لوقت طويل.

ها، ما قولك في هذا؟

أنا هناك الآن يا ستاين، أعني في "سولند". أنا في البيت القديم في

"كولغروف" جالسة أرنو إلى الأفق من وراء سلاسل الصخور والجُزر. الشيء الوحيد الذي يُفسد على المنظر في هذه اللحظة ساقا رجل. فنيلز بيتر يعتلي سلمًا ويطلّي إطار نافذة الطابق العلوي.

عندما عدتُ أنا وأنتَ من كوخ الراعي في ذلك الأربعاء، رأى زوجي أنه من الضروري لنا أن نغادرَ على وجه السرعة، لأن علينا، كما زعم، الوصول في الوقت المناسب إلى بيتنا في "بيرغن" لنلحق أخبار الساعة السادسة.

كانت الساعة تُقارب الثالثة عندما بلغنا "بويادال" التي وكّنا منها النفق قرب جبل الجليد. ولما خرجنا إلى ضوء النهار ثانيةً لاحظنا أن السديم ينقشع، وأن الشمس أخذت تتخلّله فيما مضينا نتابع انطلاقنا على خطّ بحيرة "يولسترافانتيت". كان السديم الموضوع الوحيد الذي علّق عليه نيلز بيتر إلى أن تجاوزنا "فورْد". إنه ينقشع، قال ونحن تنعطف حول البحيرة بالقرب من "سكيي". حاولتُ استدراجه إلى إقامة حوارٍ بيننا، إلا أنني فشلتُ في حثّه على قول المزيد. لاحقاً دارَ في خلدِي أن هذا التعليق المُقتضب منه ربما عني أكثر من مجرد شيء يتعلّق بالأرصاد، وأنّه ربما أشارَ به إلى مزاجه بقدر ما أشار إلى الضباب.

بينما اتجهنا جنوباً من "فورْد"، التفتَ نحوي قائلاً إنها كانت بمُجمَلها رحلة طويلة بالنسبة إلى يوم واحد، وأن لا بأس من قضاء ليلةٍ في البيت الذي يعودُ إلى عائلة أُمي والذي ندعوه الآن 'كوخنا الصيفي'. كانت الفكرة الأساسية أن ننطلقَ إلى بيتنا مباشرة، بسبب خططه لليوم التالي في المقام الأول، بيد أن الاقتراح الذي طرحه في تلك اللحظة جاء بمثابة محاولةٍ منه لعقد صلح، سواء للاعتذار عن تنمُّره الشديد عندما أصررتُ على الخروج معك في نزهة طويلة - بعد كل تلك السنين يا ستاين - أو لجلوسه الصامت في السيارة لفترةٍ طويلة لاحقاً. وهذا ما فعلناه. عبرنا الخليجَ بين "ريسيدالسفيكا" و "روثدال"، وتابعنا الطريقَ إلى جُزر "سولند". حظينا بيوم

رائع هناك قرب البحر بينما كنتَ تحضر افتتاح مركز المناخ. بطبيعة الحال أرسلتُ لك أفكاراً شتى. أعني ذكريات وصوراً، وأوقات نَعَمنا بها. وهذا شيء داومتُ على فعله في الأيام التالية. كانت تلك الذكريات التي بنتُها مكثفة، وبعضها كما يبدو بلغك على هيئة 'مقطعات من فيلم' لم تتذكر أنك لتقطتها...

وصلنا إلى البيت في "بيرغن" في وقت متأخر من مساء الخميس، وباكراً في صباح الجمعة نزلتُ إلى "سترانداكين" لأتفرج على "السولندير" وهي ترفع مراسيها، فهي تُبحر من "بيرغن" في الساعة الثامنة. كنت قد ذكرتُ أنك ستترك "باليستراند" في ذلك الصباح، وبما أنني أنهضُ باكراً في جميع الأحوال، قمتُ بنزهة صباحية من "سكانسن"، وتجاوزتُ سوق السمك إلى أحواض السفن. لأتمنى لك رحلة سعيدة يا ستاين، لأقول وداعاً مرة أخرى. ادعني لا عقلانية، لكنني شعرتُ أن ذلك ما أريد القيام به. لا تقل لي إن تحبتي لم تصلك. سرّتي التفكير في أنك تسافر على "السولندير"، وتخلّيتُ أنك على الأرجح لن تلبث أن تستغرق في ذكرياتك عني وعن مُجازفتنا الصيفية هنا.

أما المركب، فطبعاً لا. لا يحمل اسمي. فهو كما تشيرُ في رسالتك أخذَ اسمه من الجزر التي في فم خليج "سوغني"، حيث كنتُ مُعظم يوم أمس، وحيث أجلسُ في هذه اللحظة أرنو إلى البحر وأكتبُ لك. لحسن الحظ ذهبتُ الآن الساقان اللتان ما برحنا بطريقة ما تُشتتان المنظر وأفكاري...

"سولندير" هي ببساطة كلمة جَمَعَ نرويجية مُقرّدها "سولند". وتشتملُ المجموعة "السولندية" على بضع مئات من الجزر. تعني "سول" 'الأخود'، و"ند" تعني 'مُفعم بـ'. والجزر "السولندية" مُفعمّة بالأخايد. وهذا ليس بالوصف غير الدقيق لطبيعة الأرض هنا. فليدنا، كما يقول نشيدنا الوطني 'يمتطي البحر، يَحْذِه الماء وتَحْتُهُ الأنواء...'.

لا ريب في أنك تتذكرُ كيف كنّا نتسكعُ في تلك الأرجاء، نلعب الغُمُضة

في ربوع التشكيلات الصخرية المُسَكَّرة، والمؤلَّفة من كتلٍ تخالطها الألوان
البديعة. ولا لظنك نسيت كيف درجنا على المشي لساعاتٍ نجمعُ الأحجارَ
في تلك الفلاةِ الصخرية المنحوتة. لطلما جمعتُ الحصى، فيما جمعتُ أنا
نوعًا مُعيَّنًا من الحجارة الحمراء. ما زالت هذه الأحجارُ لدي يا ستاين، ما
زالَت لامعة، أحجارك وأحجاري. وهي مصفوفةٌ في أحواض الزهور.

أنت مُصيبٌ في قولك إن اسمَ جنتي راندي. وأُعترفُ لك أن مجردَ
استفهامك عن صيحة الاسم أصابني بشيء من خيبة الأمل، لأنكما انسجمتما
معًا كثيرًا. أتذكرُ أنك مرةً وصفتَ جنتي بأنها أكثر من التقيت في حياتك
روعة وحميمية. وهي، لم تكل قط كلما ارتادت حديقته الصغيرة أن تُهمهم
لنفسها أوه يا له من لطيف. 'ذاك الستاين'! ثمة شيء مميز جدًا في 'ذلك
الستاين'. فجدتني رأَت أنها لم تقابل مطلقًا شابًا أروع منك.

أمي ترعرعت هناك أيضًا، كما تعرف، في المكان الذي أصبح الآن
أكثر المناطق الغربية الآهلة بالسكان في البلاد. كان اسمها قبل الزواج
هينفوغ، ويبدو أنك لم تتس ذلك. وعندما أسماني والدادي سولرن، لم يلتقطا
الاسم من فراغ، بل استلهماه على نحوٍ ما من أصول العائلة.

نحن الآن كلنا هناك، أربعتنا في الواقع، قبل أن تعود المدرسة وحياتنا
الروتينية إلى الأخذ بزمام أمورنا في غضون بضعة أيام. أصبحت ابنتي
إنغريد طالبة جامعية! الهواء هنا في مصب الخليج ساكنٌ على غير العادة،
وأمس أتيح لنا الجلوس في الحديقة وإعداد شواء على سبيل التغيير.

العالمُ يا ستاين ليس فسيفساء من الصنف، بل كله متداخل.

رائع أن يصلني منك جواب يا سولرن. ويبدو لي أن الخطَّ حليفي لأن تعدل
مزاجك لم يستغرق وقتًا طويلاً.

بمجرد التفكير في أنك هناك الآن يفعل بي فعله. يجعلني هذا أفترض أن بعضاً مني هو هناك أيضاً ما دُمنا نتراسل. إنني أول مَنْ يُقَرِّ بأن في وسع شخصين أن يكونا جدًّا متقاربين حتى مع وجود مسافة شاسعة تفصل بينهما. بهذا المعنى أوافقك على أن العالم مُتداخِلٌ.

تأثرت كثيراً بقولك إنك انحدرت إلى "ستراندكاين" في ذلك الصباح لتبعني لي بتحيةٍ مع المركب السريع. أستطيع رؤيتك بعين خيالي تخمين الخطى نزولاً من "سكائنسن"، وهذا المشهد يضعني في أجواء فيلم إسباني. ومع أنني لم أعترف سابقاً بوصول تحيتك، يمكنني الآن على الأقل الإدلاء باعترافي.

في نقطة ما يا ستاين، ونحن نصعد إلى "مُندالسدال"، قلت إنك لطالما رفضت كل ما يدعى 'الظواهر الخارقة للطبيعة'. بينت أنك لا تؤمن بتوارد الخواطر، أو بأي صيغة من الاستبصار أو الكشف الغيبي. وأدليت بذلك التأكيد الجازم حتى بعد أن أعطيتك بعض الأمثلة الممتازة عن تلك الظواهر. وأنا أعزو هذه المسألة في حالتك إلى امتناعك عن استعمال مجسّات الإشعار التي لديك، وإبقاء الغمائم على عينيك، أو ربّما أنت في الحقيقة لا تميز أنك أحياناً 'تستقبل' الأشياء، معتقداً أنها من نفحات وحيك الخاص.

ولنت لست وحدك في هذا يا ستاين. فزماننا فيه الكثير من العمى النفسي، والكثير من الفقر الروحي.

أما أنا فإني على قنرٍ من السذاجة يجعلني لا لتقبّل اعتبار ما حدث مجرد صدفة، أعني حقيقة أنه قنر لنا الوقوف معاً ثانيةً هناك على شرفة ذلك الفندق. أنا أعتقد أن مثل هذه الأمور مضبوطة على نحو ما. لا تسكني كيف ولماذا، لأنني لا أعرف حقاً. ولكن الجهل بالشئ ليس مثل تجاهله. لم ير الملك "أوديب" خيوط القنر التي تلاعبت بحياته، وعندما غدت واضحة له اعتراه خزي عظيم جعله يفتأ عينيه. بيد أنه من البداية طبعاً عمي عن قنره.

أصبح النقاشُ بيني وبينكِ يا سولرن مثلَ لعبةِ كُرّةِ الطاولة، ما رأيكِ إذاً في أن نستمِرَّ في التراسُلِ طَوَالَ فترةٍ ما بعد الظهر؟ في هذه الحالة سَيَتَسَنَّى لي ولو قليلاً الاستمتاع بـ "سولَند" في هذا اليوم الصيفي، ها؟

لا أرى ما يمنع ذلك يا ستاين، فنحن نتحاورُ. أنا في إجازة، وفي هذا البيت يسري قانون غير مُدَوَّن مَفَادُهُ أن لكلِّ مِنَّا الحرية في فعل ما يشاء في أيام الإجازات. نَتَشَدَّدُ فقط في الاجتماع لتناول الطعام، باستثناء وجبة الصباح، حيث يَتَبَرَّزُ واحدنا أمره حالما ينهض. لم يَمُضْ وقتٌ طويل منذ أن أنهينا الغداء، ولا ارتباطات لدي قبل موعد العشاء في أواخر المساء. وإذا لم تَهَبِ الريح قد يُوَاتِنَا الجَوُّ لإعداد الشواء اليوم أيضاً.

وأنت؟ أعني، ماذا أُرَوِّدُكِ في عَصْرِ هذا اليوم؟

مِنَ المؤسِفِ يا سولرن أنني لا أَسْتَطِيعُ عَرَضَ شيءٍ يُضاهي أجواءكِ. أنا جالسٌ في مكتبٍ مُضَجِرٍ في جامعة "أوسلو"، وسأبقى هنا إلى أن أقَابِلَ زوجتي بيريت في المدينة قُرابة الساعة السابعة. سنذهبُ إلى "باروم" لزيارة والدهما الواعي والفطن جداً على الرغم من كِبَرِ سِنِهِ. ما زال الوقت مبكراً جداً على ذلك، ولدينا أنا وأنتِ عِدَّةُ ساعات نقضيها معاً.

جامعة "أوسلو"! لا تتسَنَّى أنني درستُ في تلك الجامعة خمس سنوات. آه، يا لتلك السنوات يا ستاين.. مجرد أن أحلمُ بتلك السنوات أكثر من كافٍ لإدهاشي...

وعلى ذِكرِ الماضي، لا يَحْضُرُنِي الآن أنه كانت لديك تَطَلُّعات لأن تصبحَ أستاذَ جامعة. لَمَّ يَقتَصِرْ طموحك في تلك الأيام على التعليم في مدرسة ثانوية؟

بعد رحيلك وجدّني في فراغٍ مخيفٍ حاولتُ جهدي أن أشغله. وهذا تحوّلٌ مبدئيًّا إلى الدكتوراه ثم إلى شهادة الزّالة والعضوية في الكلية. لكن مهلاً، ربما علينا التريث قليلاً قبل أن نتطرّق إلى الحديث عن 'الماضي'، فأنا مهتمٌ بمعرفة مَنْ أنتِ الآن يا سولرن.

حسنًا، أنا مَنْ انتهتْ بي المطاف إلى التعليم في مدرسة ثانوية. لقد تكلمنا على هذا، وبكلّ صراحةٍ لم لنُذم على هذه الخطوة في يوم. بل أرى أنني أتمتّعُ بنوعٍ من الامتياز في كَسْبِ عيشي بإتفاقٍ بضع ساعات يوميًا مع ناشئةٍ ملتزمين، علاوة على تعليم موادّ تحظى باهتمامي. فكرة أنك لا تتوقّف عن التعلّم ما دام لديك تلاميذ ليست مجرد كليشيه. في أغلب الصفوف التي علّمتها التقيتُ بعض الشبان من ذوي الشّعَر الأشقر المجدد الذين أيقظوا في داخلي ذكريات عنك وعنا في الأيام الخوالي. وفي إحدى السنوات كان هناك فتى مثلك بالفعل، بل لديه تقريبًا صوتك نفسه.

لكن الساحة لك. كتبتُ شيئًا ضمن السطور أنكزُ فيه أن وجودنا معًا فجأةً، ووقوفنا ثانية وجهًا لوجهٍ على تلك الشرفة ليس في نظري من قبيل الصدّف.

بل هو كذلك في رأيي يا سولرن. فكلماتٌ مثل 'لقاء بالصدفة' أو 'ضربة حظّ' تشير عن طريق تعريفها إلى شيء، هو من الناحية الإحصائية، مُستبعد. وقد توصّلتُ مرّةً في حساباتي إلى أن فرصة رمي الترد اثنتي عشرة مرّة والحصول في كلّ مرّة على الرّقم ستة، أي اثنتي عشرة سِتة مُتتالية، هي أقلّ من واحد بالبلوينيين. وهذا لا يعني أن أحدًا لم يثأّت له تحقيق الرّقم نفسه اثنتي عشرة مرّة بالتتابع، وذلك لسبب بسيط وهو أن كوكبنا فيه بضعة بلايين شخص، والتّرد يُرمى تقريبًا في كلّ مكان. إلا أننا في قضية

استثنائية كهذه، نحن نتحدّثُ عن احتمالات الأبعادِ الفلكية. وهذا ما يجعلُ الناسَ أحياناً، في حالِ تَحَقُّقِ ذلكَ لهم، يستغرقون في ضحكٍ هستيري. لأنّه وفقَ المعايير الإحصائية، عليك أن تجلسي وتواصلِي رَميَ التَّردِ آلافاً من السنين حتى تتوافرَ لكِ فرصةٌ معقولةٌ لتحصلي على اثني عشرَ رقماً مُتمائلاً. علماً بأن هذا قد يأتي عفويّاً في غضونِ ثوانٍ معدودات. أليست هذه فكرة مشوّقة؟

كانت صُدفةٌ مذهلة بلا ريب أن ألتقيكِ فجأةً هناك يا سولرن. كانت صدمةً. وكذلك لن أتوانى عن تسميتها ضربةَ حظٍّ. إنّما ليست خارقة للطبيعة.

هل أنتَ على يقينٍ كاملٍ من هذا؟

نعم يا سولرن، أكادُ أكون على يقينٍ كامل. تماماً كيقيني من عدم وجود القَدَر، أو يدٍ هادِيةٍ خَفِيّةٍ أو قُدراتٍ ذهنيةٍ تستطيع التأثيرَ على ما ينتج عن رمي التَّردِ على سبيل المثال. يُحتمل وجود الغُشِّ، وخِيفَةُ اليَدِ، وعلى نحوٍ أكثر تحديداً، يُحتملُ وجودُ ثَغَرَاتٍ في الذاكرةِ أو خطأً في الرواية. أمّا الأحداث الطبيعية فلا يمكنُ واقعياً أن تتأثّرَ بالقَدَر أو العناية السماوية، ولا بالظواهر الوهمية التي يدعوها بعض الناس 'التأثيرَ عن بُعد'.

هل سبقَ لكِ أن سمعتِ عن أحدٍ جَنَى ثروةً من لعبة الرّوليت لأنه يستطيع أو لأنها تستطيع بقوة التركيز السيطرةَ على الكُرّة أو التنبؤُ بدقة أين ستحط في الدولاب؟ حيثنذ، ستكون ثوانٍ معدودات من الاستبصار كافية لتجعلك مليونيرة. لكن لا أحدَ لديه مثل هذه الملكات. لا أحداً ولذلك لا ترين إشعارات خارجَ أندية القمار تنصُّ على أنها لا تسمح للوسطاء

الرُّوحَانِيَّينَ وَقَارِئِي الْأَفْكَارِ بِالذَّخُولِ. هَذِهِ الْقَوَانِينُ الْمُحَظَّرَةُ غَيْرُ ضَرُورِيَّةٍ.

هناك بُعْدٌ آخَرٌ عَلَيْنَا أَنْ نَأْخُذَهُ بِعَيْنِ الْإِعْتِبَارِ أَيْضًا، سِوَاءٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَلْعَابِ الْحِظِّ أَوْ إِلَى حَيَاتِنَا عَلَى نَحْوِ أَكْثَرِ تَعَمُّيمًا. وَذَلِكَ أَنَّ ضَرْبَاتِ الْحِظِّ الْأَكْثَرَ إِدْهَاشًا لِلْعَالَمِ تَلْقَى مِنَ النَّاسِ مِثْلًا فِطْرِيًّا إِلَى إِبْقَائِهَا مَحْفُورَةً فِي الذَّاكِرَةِ، وَإِلَى الْحِرْصِ عَلَى حِفْظِهَا فِي الْحَضَارَةِ الَّتِي تَعَاَصَرَهَا. وَلَيْسَ هُنَاكَ مَا هُوَ أَسْهَلُ مِنْ أَنْ يُسَيَّءَ مُرَاقِبٌ غَيْرُ مُتَمَرِّسٍ فَهْمَ مَجْمُوعَةٍ بِحَالِهَا مِنَ الْحِكَايَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِأَحْدَاثِ اسْتِنَائِيَّةٍ، وَيَعِزُّوْهَا إِلَى قُوَى 'تُحْدِثُ' بِنَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَتَوْثِّرُ فِي حَيَاتِنَا.

اسْتِعْيَابُ مَنْحَى هَذَا التَّهَجُّجِ أَمْرٌ حَاسِمٌ فِي نَظَرِي. إِذْ حَتَّى انْتِقَاءَ الْفَائِزِينَ بِالْيَانِصِيبِ الَّذِي تَتَذَكَّرُهُ وَتَتَنَاقَلُهُ مَا هُوَ إِلَّا اسْتِعَادَةُ لِنَظَرِيَّةِ "دَارُون" عَنْ الْإِنْتِقَاءِ الطَّبِيعِيِّ. الْإِخْتِلَافُ الْوَحِيدُ بَيْنَهُمَا هُوَ أَنَّنَا فِي حَالَتِنَا، نَحْنُ نَتَكَلَّمُ عَلَى انْتِقَاءِ مُصْطَنَعٍ. وَلِسَوْءِ الْحِظِّ، مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يُوْدِيَ هَذَا إِلَى خَلْقِ مَفَاهِيمٍ مُصْطَنَعَةٍ بِمَنْتَهَى السَّهُولَةِ.

وَقَدْ نَبَدَأُ بِوَعْيٍ أَوْ بِلَا وَعْيٍ فِي إِقَامَةِ تَرَابُطٍ بَيْنَ ظُرُوفٍ لَا رَابِطَ بَيْنَهَا. هَذَا، وَفَقَّ مَا أَعْتَقَدُ خَاصَّةً إِنْسَانِيَّةً غَوْذَجِيَّةً. فَنَحْنُ عَلَى خِلَافِ الْحَيَوَانَاتِ، نَنْشُدُ غَالِبًا الْأَسْبَابَ الضَّمْنِيَّةَ، كَالْقِسْمَةِ وَالنَّصِيبِ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ، أَوْ الْعِنَايَةِ السَّمَائِيَّةِ، أَوْ أَيَّ جَوْهَرٍ آخَرَ مُسَيِّطِرٍ، حَتَّى فِي حَالَةِ عَدَمٍ وَجُودِ أَيِّ مِنْ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ.

مِنْ هَذَا الْمُنْطَلَقِ، أَرَى أَنَّ اجْتِمَاعَنَا هُنَاكَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَا هُوَ إِلَّا وَلِيدٌ صُدْفَةٍ خَالِصَةٍ. أَقْرَبُ طَبْعًا أَنْ فُرِصَ حَدُوثُهُ كَانَتْ ضَعِيفَةً جَدًّا - فَلَا أَنَا وَلَا أَنْتَ ذَهَبْنَا إِلَى هُنَاكَ مِنْذُ أَيَّامِنَا مَعًا - إِنَّمَا، حَتَّى مَعَ إِقْرَارِي بِضَالَةِ الْفُرْصِ لَا يَسَعُنِي الْقَوْلُ إِنْ هَذَا يَشِيرُ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ أَكْثَرَ مِنْ حِظٍّ هَائِلٍ.

لَوْ تَيَسَّرَ لَنَا أَنَا وَأَنْتَ أَنْ نَجْمَعَ فِي مُجَلِّدٍ ضَخْمٍ وَاحِدٍ السَّلْسَلَةَ الْكَامِلَةَ لِنِمَازِجِ التَّارِيخِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِأَكْثَرِ الصُّدُفِ فَرَادَةً - كِبْطَاقَاتِ الْيَانِصِيبِ الرَّابِحَةِ

كلّها مثلاً - سنضطرُّ إلى إفساح مكانٍ لعدّة تريليونات من المجلّدات الأخرى في حال أردنا أن نشمّل البطاقات الخاسرة أيضاً. علماً بأن الأشجار التي لدينا هنا لا تكفي لصنع أوراق هذه المجلّدات. ثم إن كوكبنا ليس فيه متسعٌ يكفي لما سيلزمننا من أشجار وكتب. وعلى سبيل التنويع في الطرح فقط، سأركّزُ على بطاقة واحدة خاسرة وأسأل، سبقَ لك أن قرأت في يومٍ مُقابلةً صحفيةً مُسهبّةً أُجريت مع أي شخصٍ لم يربح في اليانصيب؟

لم تتغيّر كثيراً يا ستاين، وهذا جيدٌ أيضاً. عنذك فيه شيء طفولي ومشاكس. لكن، لعلك في النهاية أعمى. لعلك ضيق الأفق وقصير النظر في آن.

أتذكّر لوحة "رينيه ماغريت" التي تُصوّر كتلة صخرية هائلة سابحة في الهواء فوق الماء - أظن أن هناك قلعة صغيرة تتوج قممتها - لا إخالك قد نسيت تلك اللوحة.

اليوم، لو وقعت عينك على شيء مماثل، ستحاول بالتأكيد أن تجد له تفسيراً. قد تقول إنها خدعة. قد تقول إن الصخرة مُجوّفة ومملوءة بغاز الهليوم، أو إنها مدعومة بشبكة إيداعية من البكرات والأسلاك المخفية. أنا مخلوقة أكثر بساطة. وعلى الأرجح سأكتفي بفتح ذراعي أمام تلك الصخرة مهللة بيا 'سبحان الله' أو 'أمين'.

في رسالتك الأولى كتبت، 'نقول أحياناً، لن أصدّق حتى أرى. إلا أنني لست واثقاً من أنه لا مفرّ من التصديق عندئذٍ...'.

لا أخفي عليك أن هذه الإفادة ترعجني قليلاً. فأنا أرى أن عدم ثقة المرء بالدليل الذي تُمليه عليه حواسّه يتنافى إلى حدٍّ ما مع قانون الملاحظة والاختبار. بل هذا يبدو لي في الحقيقة أقرب إلى عقلية العصور الوسطى...

ففي الزَّمان الماضي، عندما سبَّرت الحواسُ أغوار شيءٍ لم يتوافق مع "أرسطو"، اعتُبِرت الحواسُ هي المُخطئة. وعندما تعارضَ رَصدُ مدارات الكواكب مع فكرة مركزية الأرض، اخترعَ الناسُ بعض السِّفسطات التي دَعَوْها أَفلاكُ التنوير ليبرِّروا ما رأته العينُ. وكذلك زاولَ رجالُ الكنيسة ومحاكمُ التفتيش الرقابةَ الذاتيةَ على أنفسهم برفضهم مُشاطرةَ "غاليليو" مِنظاره. وأنتَ طبعًا تعرف كلَّ هذا.

أترأى حاولتَ أن تأخذ بعين الاعتبار حقيقة أننا معًا شَهِدنا شيئًا مثل كتلةٍ صخرية عظيمة تطفو فوق الطحالب والأعشاب البحرية. شَهِدنا معجزةً. معجزة تتجاوز نطاق هذا العالم! واسمح لي أن أضيفَ أنني أنا وأنتَ رأينا الشيءَ عَيْنَه، وكنا على اتفاقٍ كاملٍ حول ما رأينا.

أَكُنَّا يا سولرن؟

نعم بلا أدنى شك. إنما، بالرجوع إلى قضية التَّثام شَمَلنا هناك، ألا ترى يا ستاين أن في وَسْعِنَا أن نفَسِّرَها بمعزلٍ عن أي خيوطٍ قَدَرِيَّةٍ؟

ماذا تَقصدين؟

ربما هذه 'الصُدفة' لا تَعُدُّ أكثر من كَوْنِها مجرد طَرفة تَوَارَدَ خواطر. بيد أنني لا أَسْتَعِجُ ألا ترى في هذا فرقًا كبيرًا إذا كنتَ قد اتَّخَذْتَ قرارًا مُسَبِّقًا بأنك لا 'تؤمن' بانتقال الأفكار أيضًا.

أنتَ تؤمن بالجاذبية، فهل لك أن توضحَ ماهيتها؟

لعله يتوجب عليك أن تمنحني فرصة، وأن تلقي على الأهل ولو نظرة خاطفة عبر منظارى الغاليلوي؟

لا يُمكنني أن أوضح ماهية الجاذبية يا سولرن. أعرف أنها موجودة فحَسْب. ونعم بالتأكيد، سأنظر من خلال منظاركَ 'الغاليلوي'. ولو أن لديك دَسَّة منها، سأنظر فيها كلها. هيا، ناوليني أولها.

حسنًا إليك ما لدي. بغضّ النظر عن كل شيء، كانت الرحلة التي قمتُ بها أنا ونيلز بيتر عَقِيَّة جدًا، ولا جدال في أنني أنا التي اقترحتُ قضاء يوم في "فيارلاند" لنزور بلدة الكتب ومتحف الثلج. كنّا في الواقع في طريق عودتنا من شرق البلاد إلى "بيرغن"، عندما ارتأيتُ أنه يجدر بنا بعد كل تلك السنوات أن نعرّج على تلك المنطقة، مع أن هذا سيسبّب لي الألم. بزّغت الفكرة في رأسي كَنَفْحَة إلهام مفاجئ. هي حقًا جاءت وليدة اللحظة.

كانت آفاق مخططاتك أكثر اتساعًا، وفي هذه الحالة أعتقدُ أنك كنتَ أنتَ المرسل وأنا المُتلقية. ليس هناك ما يستدعي الاستغراب في أن تتبعثَ منك فكرة مفادها لك، ولأوّل مرة منذ تلك الأيام التي قضيناها في ذلك الفندق التليد، ستعودُ إليه ثانية. النقطة الجوهرية هنا تتلخّص في أن المرء لا يعرف مطلقًا متى يكون مُرسلًا ومتى يكون مُستقبلًا. فأنتَ لا تشعر بأي شيء في رأسك حينما تفكر. وحتى لو فكرتَ في شيء محزن جدًا أو عنيف أو مثير، لمّا سمعتَ في داخله وقع جَلْبَة أو صوت تحطّم أو صرير. وذلك لأن الأفكار كما هو معروف لا علاقة لها بالجسم أو بالعمليات المُحسَّنة.

بالنسبة لي، إن أبسط تفسيرٍ لِتزامن ظهورنا في البقعة التي كانت الأحلى والأمَرَ في حياتنا معًا هو توارُد الخواطر. أما تعليلك أو نفيك فأكثر تعقيدًا،

وهو في رأيي ليس إلا رَجْعُ صدى إحصائيات مُعَلَّة.

إذا نظرنا يا ستاين إلى اجتماعنا على الشرفة القديمة من خلال معايير قانون الاحتمالات المَحْضَة، سنرى أنه لا يكاد يختلف في شيء عن تَخِيلِ أنك تقفُ عند طرف الخليج، ولنا أواجهك عند طرفه الآخر، ثم يُطلق كلُّ منّا رصاصةً بندقيةً، فتصطدم الرصاصتان معاً في وسطه، وتغرقان إلى قاعه كأنهما جسم واحد. قد يُعْتَبَرُ هذا الحدث خارقاً للطبيعة، ويجب أن يُدْعَى بَقَّةٌ مُعْجِزَة في جميع الأحوال. إلا أن الأسهل من كلِّ ذلك التفكير في أن روحين جمعتهما الألفَةُ مرَّةً قادرتان، حتى مع تباعدٍهما، على التواصل، لتبلِّغ إحداهما الأخرى خبراً تعتبرانه وجذاباً جداً. بعثتَ لي إشارة تُعلِّمني أنك عائدٌ إلى هناك، وتلقَّيتُ إشارتك. وهكذا انتهيتُ إلى المكان نفسه!

إنه توارَدَ الخواطرُ ما أشيرُ إليه. وهذه الظاهرة المؤثِّقة جيداً التي أطرحها عليك كتفسير معقول لما تصفه 'خطأً استثنائياً'، كانت في الواقع موضوعَ بحثٍ تجريبي قام به أشخاصٌ عدَّة في الجامعات المختلفة في أنحاء العالم كافة؛ مثل فريق الزوجين "راينز" للذين كانا من أوائل الرواد في هذا المجال في جامعة "الدوق" شمال "كارولينا" منذ ١٩٣٠. وإذا شئت، أستطيع بلا عناء تزويدك بأسماء بعض المراجع والمصادر لأن لدي قائمةً مُكاملةً منها.

أليس صحيحاً أيضاً يا ستاين أن ميكانيكا الكم (الميكانيك الكمومي) بيَّنتَ لنا أن كلَّ شيء في الكون مُتداخلٌ، بما في ذلك أدقُّ الجسيمات؟ في الحقيقة، قرأتُ منذ عهدٍ قريب القليل عن ميكانيكا الكم بمساعدة بعض الزملاء. ففي السنة الماضية لُقِّمَت مدرستي ندوات مسائية متنوعة الاختصاصات. والنادي الذي رعاها يُدعى 'الحقيقة في الخمر'، ولعلَّ هذا الشعار اللاتيني يوحي لك بشيء عن خلفيته. إلا أنني بعد أن قضيتُ بعض الأمسيات مع الفيزيائيين وعلماء الطبيعة، لم أشعر بأي حال بأن الفيزياء الحديثة جعلت العالمَ أقلَّ غموضاً ممَّا كان عليه في أيام أفلاطون. ولا أمانع

أَنْ تَصَوِّبَنِي يَا سَتَاينَ إِذَا رَأَيْتَ أَنَّنِي مُخْطِئَةٌ.

تَبَيَّنَ الفيزيَاء الحديثة أَنَّهُ إِذَا تَشَارَكَ جُسِيمَانِ؛ وَلِنَفَرٍض أَنَّهُمَا فُوتُونَانِ لَوْ وَحَدَتَانِ مِنْ وَحَدَاتِ الْكَمِّ الضَّوْئِيِّ، إِذَا تَشَارَكَا فِي أَصْلٍ وَاحِدٍ أَوْ نَقْطَةٍ بِدَايَةِ وَاحِدَةٍ ثُمَّ انْشَقَّا وَانْطَلَقَا فِي طَرِيقَيْنِ مُتَبَاعِدَيْنِ بِسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ، سَيَبْقَى كُلُّ مِنْهُمَا، بِالْقَدْرِ نَفْسِهِ، جِزْءًا مِنَ الْكُلِّ عَيْنِهِ. وَحَتَّى لَوْ أُرْسِلَا إِلَى الْفَضَاءِ بِاتَّجَاهَيْنِ مُتَعَاكِسَيْنِ، وَالسَّنَوَاتِ الضَّوْئِيَّةِ تَفْصِلُهُمَا، يَبْقِيَانِ مُتَرَابِطَيْنِ: كُلُّ مِنْهُمَا لَدَيْهِ مَعْلُومَاتٌ عَنِ خُصَائِصِ الْآخَرِ. وَاضِحٌ أَنَّ لَا عِلَاقَةَ لِهَذَا بِتَبَادُلِ الْمَعْلُومَاتِ، بَلْ بِالتَّوَقُّفِ، أَيْ تَوَقَّفِ شَيْءٍ عَلَى شَيْءٍ، أَوْ مَا يُسَمِّيهِ الْعُلَمَاءُ اللَّامَوْضِعِيَّةَ. وَهَذَا غَرِيبٌ - وَلَعَلَّهُ فِي إِبْهَامِهِ يُعَاقِلُ إِبْهَامَ الْجَاذِبِيَّةِ - وَقَدْ دَحَضَ "أَيْنِشْتَاينَ" هَذِهِ الظَّاهِرَةَ لِأَنَّهُ اعْتَبَرَهَا مُعَادِيَةً لِلْمَنْطِقِ، إِلَّا أَنَّهُا بَعْدَهُ أُثْبِتَتْ عَنْ طَرِيقِ التَّجَرُّبَةِ.

نَحْنُ الْآنَ لَا نَتَحَدَّثُ عَنْ تَوَارِدِ الْخَوَاطِرِ، بَلْ عَنِ الْفِيزِيَاءِ الْبُعَادِيَّةِ أَيْ التَّيْلِيِّ فِيزِيَكْسَ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ إِيْمَانِي بِأَنَّ الْإِتِّصَالَ الرُّوحِيَّ عِبْرَ مَسَافَاتٍ كَبِيرَةٍ هُوَ أَكْثَرُ صِلَةٍ بِالْبَشَرِ مِنْ مِيكَانِيكَا الْكَمِّ - وَذَلِكَ لِأَنَّنَا الْأَرْوَاحَ الْمَوْجُودَةَ هُنَا. سَرَّحَ نَظْرَكَ فِي النُّجُومِ وَالْمَجَرَّاتِ. تَأَمَّلِ الْمُذْنَبَاتِ وَالْكُوكِبَاتِ الْعَابِرَةِ وَاضْحَكَكَ ضَحْكَةً غَامِرَةً يَا سَتَاينَ. لَعَلَّهَا أَجْرَامٌ سَمَاوِيَّةٌ ضَخْمَةٌ مَدْهَشَةٌ، لَكِنْ نَحْنُ وَحَدْنَا الْأَرْوَاحَ الْحَيَّةَ فِي هَذَا الْكُونِ. مَا الْمَعْرِفَةُ الَّتِي تَتَمَتَّعُ بِهَا الْمُذْنَبَاتِ وَالْكُوكِبَاتِ؟ مَا الْقُدْرَةُ الَّتِي تَمْتَلِكُهَا لِتَدْرِكَ أَيَّ شَيْءٍ؟ وَأَيَّ وَعِي ذَاتِي لَدَيْهَا؟

لَوْ كُنْتُ مِمَّنْ يُؤْمِنُونَ بِالْخِرَافَاتِ لَقُلْتُ إِنَّ الْفُوتُونَاتِ تَمْتَلِكُ وَعِيًا، وَإِنِّهَا تَتَوَاصَلُ عَنْ بُعْدٍ بِرِسَالِ الْأَفْكَارِ إِحْدَاهَا لِلْآخَرَى. حَسَنًا، لَا أَعْتَقِدُ هَذَا. مَا أَعْتَقِدُهُ هُوَ أَنَّنَا نَحْنُ الْبَشَرُ نَنْعَمُ بِمَكَانَةٍ فَرِيدَةٍ. إِنَّنَا الْأَرْوَاحَ الَّتِي تَحْتَلُّ مَسْرَحَ الْكُونِ هَذَا!

بَيْنَمَا تَقْرَأُ كَلِمَاتِي يَا سَتَاينَ تَتَدَفَّقُ إِلَى دِمَاغِكَ بِلَايِينِ النِّيُوتَرِينَاتِ أَوْ مَا يُسَمَّى الْجُزْيُنَاتِ الْمُحَايِدَةِ! هِيَ تَأْتِي مِنَ الشَّمْسِ، وَتَأْتِي مِنْ نُجُومٍ أُخْرَى فِي

درب التَّبانة، وتأتي من مَجَرَّات أخرى في الكون. وهي أيضًا بطريقتها الخاصة تعبير عن لا موضعية الكون.

ولدينا أيضًا إشكالية أخرى، وهي أن الجزيئات في ميكانيكا الكم قد تأخذ أحيانًا شكلًا موجيًا أي تكون على هيئة موجة، وأحيانًا تأخذ شكل جسيمات. وقد أظهرت التجارب أن الإلكترون، والذي هو جُزْيء بالغ الصغر من هَيُولَى أو شيء قادرٌ على المرور عبر فتحتين أو حفرتين مختلفتين في وقت واحد. وهذا مُدهش، وهو يشبه تخيل كرة تنس واحدة تمر في الوقت نفسه عبر فتحتين مختلفتين في السياج المحيط بباحة الملعب.

أنا لا أطلب منك أن توضح أو تدخل في تفاصيل إمكانية أن يكون شيء ما موجة وجسيمًا في وقت واحد، أو مرة هذا ومرة ذاك. لا أطلب منك أكثر من الإقرار بالكون كما هو بالفعل. إذا كانت قوانين الفيزياء غامضة - أعني في أعيننا - فلتبق كذلك. من الجائز أن نشعر بالأسف لأننا لا نستطيع تعليل كل شيء تحت الشمس - وفي وسع للشعراء أن يحولوا هذا الأسف إلى ممارسة يومية حكيمة - وأعني بذلك أن يهزوا رؤوسهم هزة رثاء تأسيًا على ضالة ما نفهمه من هذا الكون الغارق في الغموض الذي نجد أنفسنا فيه - أما نحن، فما علينا في الوقت الراهن إلا القبول بذلك.

أن تمتلك القدرة على بحث فكرة لي، وأن أكون على وعي كافٍ لالتقاطها قد لا يتيسر لنا فهمه بالرجوع إلى ما لدينا حاليًا من تفسيرات رياضية أو فيزيائية. ومن ناحية أخرى، لعلّ للتسليم بصحته ليس أصعب من التسليم بصحة فيزياء الكم السائدة في أيامنا؟

ما رأيك؟

مرة، قال عالم الرياضيات والفيزياء الفلكية "جيمس جينز" إن للكون ينحو إلى أن يبدو أقرب إلى فكرة عظيمة منه إلى ماكينة عظيمة.

أمهليني قليلًا يا سولرن. فقد تسلمت للتو آخر تقرير عن المناخ، وهو أكثر

إقلاقاً مما انتهت إليه مخاوفنا، وتلقيتُ اتصالات هاتفية من بعض الصحفيين المتحمسين. هم حتماً يريدون الحصول على تعليق قبل موعدهم الأخير لإنجاز العمل. ثمة قدر لا بأس به من المستيريا المحرّضة إعلامياً لطرح مثل هذه الأسئلة في أيامنا. أنا الآن مضطّر إلى التوقف عن متابعة حوارنا لبعض الوقت، غير أن هذا لن يستغرق فترة العصر كلها. فإلى أن يحين الأوان اسمحي لي أن أقول لك إنني أحترم قناعتك، وأكثر من ذلك: مهما اختلفت المبادئ التي تُفرّقنا اليوم، أقدرُك كثيراً. ولذلك أرى أنه سيتعينُ عليك أن تعذريني لأنني لا أؤمن بما يُدعى الظواهر اللاجسيّة.

لا عليك. أنت شخص لا يُستهان به يا فتى. أما الآن، وبما أنني سبرت أغوارك عن كتب في ما مضى، فسأكتب بضع كلمات عن حادثة مرّة العنبيّة. تلك الحادثة التي بكيّت بعد أن ولجهاها يا ستاين، بل نشجت كالأطفال، وجعلتني أضطر إلى هدهدتك.

وماذا جرى بعد أكثر من ثلاثين سنة عندما وقفتُ أنا وأنت في تلك البقعة ثانية؟ أشعرُ ونحن هناك بشيء يتنازعك! تماماً مثلما شعرتُ بأنني أستطيع رؤيتك عبر ذلك الجدار والباب ليلة قُبعتُ تدخّن في غرفة للنوم. لذا، عليك الساعة أن تعيرني انتباهك.

كتبتَ تقول إنك لا تؤمن بأي قوى خفية تؤثر على حياتنا. إلا أنك ارتعشتَ مثل ورقة حور عندما وقفنا أمام أشجار البتولا تلك مرّة أخرى. والجسد لا يكذب يا ستاين.

لما ازددنا دُئوا من ذلك الموقع قبضتُ على يدي فجأة. نعم، غالباً ما مشينا يداً بيد قبل زمن بعيد، أما في الحاضر فبدأ لي أنه ليس من المألوف أن تُمسك يدي، حتى مع تيقني من أن اقترابنا من وجهتنا هو ما دفعك إلى هذا التصرف لأنك احتجت إلى الدعم. احتجتَ إليه لأنك خائف! كنت أبعد ما يمكن عن الرجلِ الجسور ونحن هناك عند مُتحدّر البتولا. أفرعك شيء من وراء هذا العالم.

أنت صاحبُ يدٍ قويّةٍ يا ستاين، ومع ذلك ارتعشتَ يَدَكَ!

أما أنا فكنتُ أهدأ منك في تلك الأثناء، أكثر رباطة جأش، مع أنني تأثرتُ
منك بقوة اللحظة. ولعلّ السبب يعود إلى أنني قد توصلتُ إلى قناعةٍ مُعيّنةٍ
بخصوص ما بعد الموت. ما فوق الطبيعي أصبح طبيعيًا بالنسبة لي الآن.
ذهبتُ مُستعدةً لإمكانية تجسّدها مرّةً أخرى. أقول تجسّدها مع لفتتاعي بأن
مصطلح التجسّد مُضللٌ تمامًا، لأنها لم تكن من طبيعة ماديّة. وربما وجدنا
أنه من المُعذّر علينا التقاط صورة لها لو حاولنا. فهي في الواقع كانت ما
نسميه ظُهور رُوح. وكلا التاريخ والباراسيكولوجيا مفعّمٌ بتقاريرٍ عن مثل
هذه الظواهر؛ ومفعّمٌ أيضًا بقصصٍ عن شخصٍ ما ظهر لروح شخصٍ آخر،
حتى مع وجود مئات الأميال التي تفصل بينهما في العالم المادي. وكذلك
بغضّ الأدب برواياتٍ عن أولئك الذين رأوا أو تسلّموا رسائل من أناسٍ - لم
يموتوا مؤخرًا، إنما بعثوا ثانية. والسيد المسيح هو أفضل مثال معروف
طبعًا. بيد أننا نعيش حضارةً مُوغلّةً في الماديّة ولا صيلة لها تقريبًا بما هو
روحي - طبعًا من غير أن نأتي على ذكر الحياة الأخرويّة. تأمل في كتابات
"شكسبير" لتدرك ما أعني، اقرأ الملاحم "الآيسلندية"، ألُق نظرةً أخرى على
الكتب السماوية و"هوميروس"، أو استمع إلى ما لدى الحضارات الأخرى
لتقول له عن كهنتها وأسلافها.

كما ترى يا ستاين، أنا أعتقد أن ظهورها لنا آنذاك لم يهدف لشيء سوى
التسرية عنا. كان في تلك المرأة التي تدعوها 'العُرّض المسرحي' شيء ما
استحوذَ على تفكيري منذ ذلك الحين لمراتٍ تفوق العدّ والحصر. لم ترمقنا
بعين الاتهام ولا البُغض. بل عاينتنا بخفةٍ وابتسمت. فهي ما عادت هنا، بل
رحلت إلى الطرف الآخر حيث لا توجد كراهية. إذ لا ريب في أنه حيث لا
توجد مادّة، لا توجد كراهية أيضًا.

كانت على أي حال تجربةً مُربكةً جدًا لِكُلّنا - نعم أريكتي أنا أيضًا. ونعم

أصينا بالذعر، غير أننا كنّا طَوَالَ الأسبوع السابق على ظهورها نعيش في حالة ذعر. ولو قُدِّرَ لها أن تظهرَ ثانية لاستقبلتُها بذراعين مفتوحتين. في هذه المرة لم تظهر...

ليس هناك موتٌ يا ستاين، وليس هناك أموات.

ها قد عُدتُ إليك. ما زلتَ أمامَ كومبيوترك؟

أنا أُنرِّغُ الأرضَ من حوله يا ستاين. ماذا جاء في تقرير المناخ الجديد؟

التقريرُ مُقْلَقٌ إلى حدٍّ ما. فهو يشير إلى أن النُشْراتِ المتعلِّقة بتغيُّر المناخ الواردة من الفريق الحكومي الدولي التابع للأمم المتحدة كانت وما زالت إلى الآن مُتَحَفِّظَةً جدًّا. ويبيِّن هذا التقريرُ أنهم لا يُعوِّلُون كثيرًا على ما يُدعى تِقْنِيَّاتِ التَّغْذِيَةِ الِارْتِجَاعِيَةِ أو ردود الفعل. بالمُختَصَرِ المفيد، يعني هذا أن ارتفاع الحرارة الآن مؤثِّرٌ على أُنْهَا في المستقبل سترداد ارتفاعًا. وذلك لأنه عندما يذوب الثلج والجليد في القطب الشمالي، يَقلُّ انعكاس أشعَّة الشمس بطبيعة الحال، والأرض ككلَّ تزداد حرارة. وهذا يؤدي تَبَاعًا إلى تقلُّص مناطق الجَمَد الدائم، وإلى إطلاق المزيد من الغازات الدفينة الناجمة عن البيوت الزجاجية والمُسَبِّبة لظاهرة الاحتباس الحراري، كغاز الميثان على سبيل المثال. يوجد من هذا القليل تِقْنِيَّات ذاتية التعزيز متعدِّدة. ويُحتمل أن يكون اقترابنا من نقطة الانحراف المُهْلِكَةِ وشيكًا. بعدها لن نستطيع الحَوَلُ دون كارثة عالمية شاملة. لم نَمُضْ وقت طويل منذ أن كان مُعْظَمُنَا يعتقد أن اختفاء جليد البحار من القطب الشمالي في أشهر الصيف يحتاج إلى ما يُقارب نصف قرن. الآن، نرى أن تسارُعَ هذه العملية يفوق توقُّعاتنا بدرجة كبيرة. ونحن هنا لا نتكلَّم ربما إلا على عَقْدَيْنِ من الزمان. اختفاء الثلج في الشَّمال يُسهم أيضًا في تعجيل ذوبان أنهار الجليد في آسيا وإفريقية

وأمر كاجنوبية؁ ويؤدي هذا بالنالي إلى قليل الاحتياطي من الماء الحى والمجاري المائية لجزء من السنة. شىء من الواضح أنه يؤثر سلبيًا على المحاصيل والغلال؁ وعلى توافر المياه الصالحة للشرب للملايين الناس. والبشر ليسوا وحدهم المتضررين من هذا؁ فالتقرير يشير إلى أن التهديد يَطالُ أيضًا خمسين بالمئة تقريبًا من نبات الأرض ومن أجناس مختلفة من الحيوانات. فماذا نحن فاعلون لكوكبنا؟ هذا هو السؤال الذي ينبغي طرحه. إننا لا نملك غيره؁ وعلينا أن نحافظ عليه لنشارك به الناس الذين سيخلفونا.

لكن؁ ماذا عن الحوار الجاري بيننا؟ هل تريدن مني أن أستمرفيه؟

نعم؁ إفعِلْ يا ستاين. سأقصدُ غرفة الجلوس لأرتب بعض الصحف والنشرات الدورية؁ وسأهرغُ إلى هنا حالما أسمع طنين كومبيوتري.

ما زالت لوحة "ماغرت" التي أشرت إليها في رسالتك حيةً في ذاكرتي طبعًا. كانت الملصقُ اللافِتُ للأنظار الذي علّقناه في غرفة نومنا؁ وقد وجدتُ نسخةً عن اللوحة الآن على شبكة الإنترنت. إنها تُدعى 'قلعة البيرنيه'؁ وتصورُ عالمًا يُخلَقُ حرًا في الفراغ. أو على الأقل هذا هو التأويل الذي اخترناه لها أنا وأنت. كنّا لا أدريين أو أغنوستيين في توجّهنا الفلسفي. لم نقبل التسليم بالفكرة القديمة القائلة إن لكل سبب مسببًا؁ والتي تستدعي بالنالي الإقرار بحتمية وجود 'إله' خالق للعالم. طبعًا لجانا إلى التساؤل عما إذا كان هناك شىء ما يقف وراء هذا الذي ندعوه الكون. لكن لا أنا ولا أنتِ آمنّا بوجود أي مظهر من مظاهر تجلّي قوى أسمى. وفي المقابل؁ أشاعت فينا كينونتنا وكينونة العالم الرهبة باستمرار. واليوم يا سولرن؁ ما زال لدي الشعورُ نفسه تقريبًا تجاه الحياة. فكرة أن

العالم موجود لن تتوقف أبداً عن إدهاشي. ومهما كان ذاك الذي حدث هناك عند أجمة البتولا، هو بالمقارنة، أقل غموضاً بكثير، بل بالأحرى لا قيمة له في رأيي. لا عيب السَّيرك والعروض الترفيهية المتنوعة لن يفتنوني أبداً كما تفتنني الغابات الاستوائية و سُهوب روسيا، أو مَحَرَّات السماء المستعصية على العدِّ وكلِّ بلايين السنوات الضوئية التي تفصل بينها.

أنا الآن كما كنتِ أنتِ في الماضي تماماً؛ مشغول بالعالم لُغزاً أكثر مما أنا مشغول بالألغاز التي في العالم. مشغول بالطبيعي أكثر مما أنا مشغول بما فوق الطبيعي. وأرى أن دماغ الإنسان المُستغلِق على الفهم أكثر إدهاشاً من كلِّ تلك الحكايات المُفكِّكة عمّا يسمونه 'ما فوق الحِسي'.

ولا أرى أنه يمكننا ترجمة إشكاليات فيزياء الكمِّ إلى فيزياء أكثر مما يمكننا أن ننظر إلى الظواهر 'الروحانية' باعتبارها عملية تحويل أفكار بين الفصائل الثدية المُتطوِّرة. ولكن فكرة أن الثدييات المُتطوِّرة موجودة، وفكرة أنني واحدٌ منها، تسحرنني كثيراً. في جميع الأحوال ستضطرين إلى البحث مُطوَّلاً قبل أن تعثري على شخص يفوق انبهاره بكيئونه انبھاري. أعرف أنه ادعاء لا يُستهان به، مع ذلك أجتأسر على الإدلاء به. وفي هذه الحالة لن تلعنني سياط اتهامك بقولك إنني قصير النظر.

إنما ماذا عنك أنتِ، ماذا غيركِ؟ وإلى أين انتهى بكِ المطاف؟

تقولين إنكِ توصَلتِ إلى قناعة حتمية بوجود حياة الآخرة، وتُنفين وجود الموت. أفما زالت لديكِ تلك القدرة المعهودة على الاحتفاء بكلِّ ثانية من ثواني الحياة التي تعيشينها هنا والآن؟ أم أن نزوعكِ إلى الحياة الأخرى أزاحها من الواجهة؟

أما زلتِ تشعرين 'بأسى لا مُتناوٍ' من حقيقة أن الحياة 'قصيرةٌ جداً، قصيرةٌ جداً'؟ هذه الكلمات كانت مرَّة كلماتكِ أنتِ. أما زالتِ عينكِ تترقرقان بالدموع من مجرَّد التفكير في مصطلحات مثل 'الشيخوخة' و

‘متوسط العمر’؟ أما زلتِ تجهشين بالبكاء عند مغيب الشمس؟ كنتِ أيضاً، بلا سابق إنذار، تقولين لي وقد اتسعت عيناكِ وبأن عليكِ القنوط، سنفتي في يوم ما يا ستاين! أو، في يوم ما لن يكون لنا وجوداً

من المؤكد أنه ليس في وسع جميع من في العشرين من العمر التأمل ملياً في فكرة انتفاء وجودهم، أو على الأقل ليس بذلك العمق الذي اتسمت به. مع ذلك، تعايشنا مع هذه الحقيقة، وتقريباً اتخذناها مرجعاً يومياً لنا. ألم تكن دافعنا إلى الإقدام على أخطر الأعمال الجريئة باستمرار؟ بعد مرور فترة علينا معاً ما عُدت في حاجة إلى التساؤل عن سبب بكائكِ. فقد بتُ أعرف، وعرفتِ أنني أعرف. وبدلاً من التساؤل صيرتُ أقترح عليكِ أن نطلقَ إلى الغابات أو الجبال. عديدة كانت نزعات المواساة تلك إلى الغابات والبراري. فقد أحببتِ الخروجَ إلى الهواء الطلق يا سولرن. إلا أن حبكِ لما كنتِ تسمينه أحياناً الطبيعة بدا بمعنى من المعاني علاقةً عاطفيةً حزينة. لأنك أدركتِ دائماً أن ما تُقدِّرينه كثيراً سيُحَيِّبُ آمالكِ، وأنك في الختام ستحددين نفسك وحيدة.

هكذا كان الحال. كنتِ تارةً تضحكين وتارةً تبكين. وتحت طبقة رقيقة من مهجة وجودية جَذَلَة كَمَنَ الحزنُ فيكِ دائماً، وفي أيضاً. إلا أنني أعتقدُ أن حزنكِ فاقَ حزني، وكذلك اندفاعكِ وانتشاؤكِ.

بالنسبة إلى ‘مرأة العنينة’، أنا لن أحاولَ نفيَ وجودها، ولا أنكرُ أنني تخاذلتُ مُنْهَاراً في ذلك الوقت. كان الشَّبه مُذهلاً يا سولرن. ولا أدري كيف استطاعت تلك المرأة تعقبنا؟

أما عندما ارتعشت يدي مؤخراً، فما ارتعشَ إنما هو الحياة نفسها لا الخوفُ كما تقولين. فقد مرَّت ثلاثون سنة على افتراقنا، ثم حين مشينا معاً في ذلك المكان ثانية، تكشَّفت لي فجأةً بوضوحٍ جَمَّ روعة أن يكون المرء في ريعان الشباب، وكذلك روعة أن نكون نحن بالذات في ريعان الشباب. قبل أن يحدث شيء هناك في الأعلى عند مُنحدرِ البتولا، شيء ملعون،

زلزلنا ومزّق ما بيننا من روابط.

لما أمسكتُ يدك، لا ريب في أنه كان لهذا التصرّف علاقة بغاية البتولا التي لن نلبث أن نمرّ فيها ثانية. عاودتني ذكرى الصدمة التي أصابتنا بها في تلك السنوات السابقة. أتذكّر الهلع الذي خلّع أفئدتنا، ولا أنكرُ أنني شعرتُ في هذه المرّة أيضًا بالقشعريرة أو ببادرة خوف. إلا أن ذلك لم ينجم عن الفرع من رؤية أحد الأشباح ثانية. فالفرع قد ينشأ أيضًا بسبب خوف المرء من سيطرة جنونه عليه، أو من سيطرة جنون الآخرين عليه. الخوف مُعدّ، وكذلك الجنون مُعدّ.

تغيّرتِ يا سولرن بعد ما حدث هناك، ولم تعودِي إلى طبيعتكِ السابقة. وفي الأسابيع التي تلت، وجدّتي أحيانًا أشعر بالخوف من بقائي معكِ في الغرفة نفسها. كنتُ أحبسُ أنفاسي وأملُ في أن تعودِي إلى نفسك القديمة. وقبل أن يتحقّق ذلك أخذتِ بعض أشياءكِ وغادرتِ. أمضيتُ الحنين إليك لسنوات بعد رحيلكِ. وكثيرًا ما فكّرتُ في أنكِ قد تقرعين الجرس في أي لحظة. وفي الليل يخطر لي أنكِ قد تدخلين إلى الشقّة وأنا نائم، لأنكِ لم تُعيدي مفتاحها. فاستلقي في السرير المزدوج العريض وأتلّهف عليك. في الوقت نفسه غدوتُ فريسة قلق رهيب: ماذا لو عدتِ قبل أن تسترجعي سولرن القديمة التي أعرف! وبعد مرور بعض السنوات وضعتُ على الباب ميزلاجًا.

تبقي 'مرأة العنّيبه' واحدة من أكثر الألفاظ إهائمًا في حياتي. لكننا كنّا في مُقبل العمر آنذاك. ولا تنسي أن ذلك حدث قبل أكثر من ثلاثين سنة، والآن ما عدتُ أعرف ما علي أن أعتقده بشأنها.

نعم يا ستاين.

عادَ إلى الوقوفِ هناك يا ستاين! لا أستطيع التركيز. لا أستطيع العودةَ
بذهني ثلاثين سنة إلى الوراء وهو واقفٌ على السلمِ مواصلاً غطَ فرشاته في
علبة الطلاء الأخضر. هل من الضروري حقاً وضعُ طبقتين؟ أليس من
المفترض أن تترك بينهما يوماً على الأقل لتجف الطبقة الأولى جيداً؟

لا بأس، إشغلي نفسك بشيءٍ آخر. أنا باقٍ هنا لساعتين.

ها قد رجعتُ إليك. أعددتُ لنفسِي كوباً من عصير التفاح مع أربع مكعبات
من الثلج، وقد ذهبتُ الآن والحمدُ لله الساقان والسلم. أتراه لن يعودَ ويضعُ
طبقةً ثالثة؟

تقولُ كُنَّا لا لأدريين! بل كُنَّا دُمى حية! هل تنكرُ؟ مَضينا طوال الوقت في
طريقنا مسحورين بالحياة. شعورٌ بالحياة خلّنا أنه يَخُصُّنا وحدنا. كُنَّا لا
مُنتمين: ابتَدَعنا لأنفسنا مركزاً أمامياً سحرياً أهْلُنَا لأن ننظرَ بعينِ الشكِّ إلى
كلِّ شيءٍ؛ كان ذلك كما لو أننا وضعْنَا أُسُسَ ديانتنا الخاصة. ذاك ما قلناه،
إننا أَسَّسنا ديانتنا الخاصة.

لم نَقِفْ عند حدِّ اكتِّافِ أحدنا للآخر، بل لفترَةٍ ما أخذنا على عاتِقنا مهمةَ
القيام بمجموعة معيّنة من النشاطات التَّبشيرية. هل تتذكَّرُ جميع أيام السبت
تلك، حين كُنَّا نهرع إلى البلدة ومعنا حقيبة طافحة بقصاصات ورق تشبه
أوراق الإعلانات، لنوزعها على إخوتنا في الإنسانية. كُنَّا عادةً نقضي
الأمسية السابقة ونحن نطبِّعُ على آلةٍ كاتبةٍ قديمة رسائل قصيرة، مثل:

إشعار مهم لجميع سكان هذه المدينة: العالم في صيرورة الآن! درجنا على كتابة الرسالة نفسها عدة آلاف من المرات، ودرجنا على تقطيعها بعناية وطيها قبل أن نهرغ إلى ركوب الترام قاصدين المسرح الوطني. وهناك، نتخذ موقعا إما في حدائق تجمع الطلاب "ستودينترلوندن"، أو أمام الدراج المؤدي إلى محطة الأنفاق، حيث نشرع في توزيع جواهر أفكارنا الصغيرة على الناس، في محاولة منا لإيقاظ أقسام من المدينة مما اعتبرناه خمودها الروحي. كنا مقدامين. قولنا أحيانا بكثير من الابتسامات الوكودة، وقولنا أيضا بعدد لا يستهان به من صيحات الاستياء. ثمة أناس يشعرون بالانزعاج عندما تذكرهم بأنهم على قيد الحياة.

أضيف إلى هذا أنه في بداية السبعينيات لم يكن صائبا من المنظور السياسي السائد الانغماس في تأملات وجودية مضیعة للوقت. فآنذاك رأى الكثير من اليساريين أن الفكر الذي يعتبر الكون لغزا هو فكر معاد للثورة. فليس المهم أن نفهم العالم، بل أن نغيره.

استلهمنا فكرة الرسائل الصغيرة من أوراق الدعابات التي ترقق بالبسكويت والحلوى. وإن لم تخفي الذاكرة اعتقد أن فكرتنا الأساسية تمحورت حول إقامة مراسيم عيد وهمي في حفلة طلابية. هل تذكر؟ حلمنا أيضا بأن نعد أنا وأنت مسيرة دينية تخصصنا وحدنا في الثاني من أيار على سبيل المثال. بيد أن مشروعنا لم يتعد ما هو أكثر من كتابة بعض الشعارات، وهذه استوحيناها في الواقع من أشياء سابقة. ففي فترة الثورة الطلابية في باريس، تضمنت الكتابات على جدران جامعة "السوربون" كلمات مثل: *أطلقوا عنان الخيال! والموت مُحبط! وقد تخيلنا إقامة موكب بحاله من هذه الشعارات. كنت مُبذعا جدا يا ستاين.*

كثيرا ما قمنا بجولات في المعارض والحفلات الموسيقية - لا من أجل الفن لو الموسيقى بالتحديد، ولكن لنتأمل جميع النُمو الحية. وأطلقنا على ذلك كله اسم للمسرح السحري - جاء هذا بعد أن قرأنا "نُيب السهوب" لـ "هيرمان

هيسه". وقد نجلس أحياناً في مقهى وندرس بإمعان نماذج معينة من تلك الثمى الحية. رأينا أن كل فرد من أولئك الناس يمثل كوتاً صغيراً مستقلاً بنفسه. ألم ندعهم بالأرواح أيضاً؟ أنا متأكدة من أننا فعلنا. لم تكن نراقب نُمى آلية. بل هم نُمى حية. ذاك ما قلناه دائماً. أما زلت تتذكر كيف كنا نعبُ في إحدى زوليا مقهى ما، ونحوك قصصاً مُعقّدة عنهم؟ وقد أخذ معنا إلى البيت بعض هذه 'الأرواح'، وتوسّع في دراستها على مدى الأيام التالية. كنا نعطيهما ألقاباً، ونخترع لها سيراً ذاتية كاملة. وعلى ذلك النحو شيّدنا هيكلاً متكاملًا من المراجع الخيالية. كان التبجيل المطلق للإنسانية أحد العناصر المهمة في ديانتنا.

ثم علقنا ملصق "ماغريت" على جدار غرفة النوم. أظن أننا اشتريناه من مركز "هينّه أونستاد" للفنون في "هوفينكودن".

وبمناسبة الحديث عن غرف النوم، كان يمكن أن نذهب إلى السرير في منتصف النهار، ومعنا على الأغلب زجاجة 'شمبانيا' وكوبان عاديان نضعهما كلّها على مئضدة السرير الجانبية. ونقبع هناك لساعات نتناوبُ القراءة جهراً. قرأنا لـ "شتاين مهنر" و "أولاف بل" - استبَحنا قراءة تلك الكتب، على الرغم من أن الشعراء المُمثّلين للاتجاه السائد كانوا إلى حدّ ما من الممنوعات آنذاك. في الوقت نفسه قرأنا لـ "جان إيريك فولد"، قرأنا كل ما كتبه بلا استثناء. من غير الحاجة طبعاً إلى ذكر روايات أخرى مثل "الجريمة والعقاب" و "الجبيل السحري". روايةً بأكملها قد تتحوّل إلى واحدٍ من مشاريع السرير والشمبانيا تلك. كان اسم الشمبانيا التي درجنا على شربها "غولين باور" أي الطاقة الذهبية؛ رخيصة الثمن وحلوة المذاق وقوية المفعول أيضاً، ومن هنا جاء اسمها.

لم نرَ ما هو أروع من أننا أجساد من لحم وعظم. ولم نجد ما هو أجمل من أننا أنثى وذَكَر. واستمتعنا بهذا. إلا أن شيئاً ما في سعادتنا الجسدية لم يكف عن تذكيرنا بأننا من الفانين. ولطالما قلنا إن الخريف يبدأ في الربيع. كنا لا نتجاوز منتصف العشرينيات من العمر، ومع ذلك كثيراً ما أسرّ أحدا

للآخر عن شعوره بالتقدم في السن.

كانت الحياة بالنسبة إلينا مُعجزة، ولم يَخَفَ علينا أنها شيء ينبغي الاحتفال به على الدوام. قد نحتفل بالخروج إلى الغابات المحيطة بـ "لوسلو" في نزهة ليلية عَفْوية على الأقدام، أو نقوم برحلة في السيارة بالعَفْوية نفسها. لنذهب إلى "سكاين"، تنبيري قاتلاً. وبعد خمس دقائق نرانا في السيارة منطلقين في طريقنا مع أنه لم يسبق لأي مِنّا الذهاب إلى هناك من قبل، ولا نملك أدنى فكرة عن المكان الذي سنبيت فيه.

أترأى تذكر يوم انتهى بنا الترحال إلى حفل شاي الأخوات "لندغرن" في الهواء الطلق في "السويد"؟ لم نكن قد نلنا أي قسطٍ من النوم بعد، وانبرينا نضحك ونضحك فقط، ثم نهالطنا لاحقاً على العشب وغفونا. بقينا نائمين إلى أن أيقظتنا بكرة في النهاية، ولو لم تأت لأيقظنا النمل بطبيعة الحال بعد ثوانٍ قليلة. رُحنا نفقر كالمجانين نحاول كنسه عنا، إلا أن النمل لم يزحف على ملابسنا فقط، بل بينها وتحتها أيضاً. يومها، استبدَّ بك غضبٌ شديد مما دعوته النمل السويدي. واعتبرت ما حدث إهانة شخصية.

كانت الرغبة الجامحة في التزلج على جليد "يوسندالسبرين" واحدة من المجازفات الطائشة التي دعوتها في رسالتك أعمالاً جريئة. جرى ذلك في يومٍ من شهر أيار قبل أكثر من ثلاثين سنة. سنذهب إلى التزلج على "يوسندالسبرين"! أعلنت في عصر أحد الأيام. ولأن بيننا ما يشبه الاتفاق المتبادل على خضوع كل منا لنزوات الآخر من غير اعتراض، جاء إعلانك بمثابة الأمر. لم نستغرق سوى دقائق قليلة في حزم أغراضنا، ثم انطلقنا. رأينا أننا نستطيع قضاء الليلة في مكانٍ ما في الجبال أو في "ليردال"، أو حتى يمكن أن ننام في السيارة. كنّا متهورين وصعبي المراس. عندما وصلنا إلى الخليج كانت خطتنا تقتضي أن نمضي مباشرة إلى جبل الجليد وزلاجاتنا على أكتافنا. وكنا قد سمعنا عن كوخٍ حجري نستطيع المبيت فيه إذا حال الوقت المتأخر دون التزلج. مع العلم أنه لم يسبق لنا قط أن ندرّبنا

على الجليد. من هذا المُطلق أقولُ إن ذلك التصرف تضمنَ قدرًا كبيرًا من الاستهتار. لم تتكلَّل رحلة التزلج تلك بالنجاح. لَجَمْنَا شيءًا ما للمرة الأولى - وأنت تعرف إلى أي شيء أُشيرُ هنا - وبقينا أسبوعًا كاملاً في الفندق قبل أن نعودَ أدراجنا ونحن نجرُّ أذيال الخيبة. لم يكن أجزُءُ الفندق رخيصةً - لم يخصَّوا الطلاب بأي امتيازات. بيد أننا آنذاك شغلنا بما هو أكثر من قلة المال، ثم إننا كنَّا نحمل دفتر شيكات.

بينما أكتبُ هذا يا ستاين، لَوَدُّ التَّشْدِيدَ على أن افْتَتاني بالحياة ما زال هو نفسه. 'أما زالت لديك تلك الفترة المعهودة على الاحتفاء بكل ثانية من ثواني الحياة التي تعيشينها هنا والآن؟' تسأل، وجوابي هو نعم.

تغيَّرت أمورٌ كثيرة، لأن لدي شيئًا إضافيًا الآن. إنه بُعدٌ جديد كلَّ الجدة في الواقع. ثم تسأل، 'أما زلتِ تشعرين بأسى لا مُتَّاءٍ من حقيقة أن الحياة قصيرةٌ جدًا، قصيرةٌ جدًا؟' أما زالتِ عيناكِ تترقرقان بالدموع من مجرد التفكير في مصطلحات مثل الشيخوخة ومتوسط العمر؟ وجوابي الآن هو لا صريحة. فاليوم ما عدتُ لبكي. ومع أخذٍ ما ينتظرني في المستقبل بعين الاعتبار بَتُ أعيشُ في حالة من... السكينة.

ما زلتُ أستمِدُّ مسرةً كبيرةً من جسدي المادي، إن لم أقل إنها في عُمقها تكاد تُماثل العُمق نفسه الذي اختبرته في تلك الأيام. لكنني في الحاضر أعتبرُ جسمي مجردَ قوقعة، وأراه بالتالي شيئًا خارجيًا وليس بذي أهمية بالغة. إنه ليس شيئًا سيلازمني ويأسرنِي لوقتٍ طويل. وأنا على قناعة تامة من أن التي أدعوها أنا ستجُو من بعد موت جسدي. ما عدتُ أشعر بأن جسمي هو أنا. إنه لا يُملِّني، إنه ليس 'أنا' أو 'لي' أكثر من أثوابي القديمة في الخزانة. تلك أيضًا لن أخذها معي، ولن آخذ الغسالة، ولا السيارة، ولا بطاقة اعتمادِي.

سأسهبُ في الحديث عن هذا بطيئةٍ خاطر - بل بأكثر من طيبة خاطر. في هذه الأيام لا أقرأ فقط عن علوم الباراسيكولوجيا، بل أيضًا أقرأ الكتابَ

المقدس كثيرًا. بالنسبة لي أحدهما لا يتعارض مع الآخر. وقد يتناغم اعترافي هذا مع رفضك لِكليهما.

أما الآن فسا طرح السؤال عليك: ما مُعتقداتك اليوم؟ أعرف جذور مُعتقداتك السابقة، ولكن هل اقتحم حياتك شيء آخر غيرها؟

لَوْدُ أيضًا أن أشكرك على رسالتك الأخيرة. بدوت نوعًا ما أقل غرورًا مما بدوت عليه في رسالتك الأخرى. وقد شعرت بأن يدك امتدتا نحوي قليلًا، لولا أنهما امتدتا فارغتين يا ستاين. إنني أتحرقُ شوقًا لأضعَ فيهما شيئًا بديعًا. في ذات يوم سيسرني أيّما سرور أن أعطيكَ برهانًا حيًا وساطعًا على عدم وجود الموت. ما عليك سوى الانتظار. سأفعلُ هذا يومًا! وحتى ذلك الحين، أنا ممتنة لك لأنك على الأقل تريد فتح هذه القناة بيننا بعد أن أغلقت في وجعنا منذ أكثر من ثلاثين سنة.

راعني قولك إنك كنتَ خائفًا مني. لم تَبَحْ بهذا يومًا. وظننتُ حينها أنك انغلقتَ على نفسك، وأنني أَسْمُكُ بتصوراتي الجديدة.

مع ذلك، لا ريب في أن كلاً منا مدينٌ للآخر في الاحتفاظ بِيَمَانِهِ بما كنا عليه، وبما كان لدينا قبل أن يحدث ما نعرف، وقبل أن يتهيا لك أنني جِئْتُ. لم أجنَ قط. إلا أن ما حدث كان مهولاً جدًا. وأدّى بي إلى الارتداد من فلسفة حياةٍ مُعيّنة إلى أخرى. أخذ هذا التحول طابعًا مأسويًا خاصًا، لأن الأبرشية التي تخليتُ عنها لم تضمّ إلا تابعين.

إلا أنك تتذكرُ بقية القصة؟ وتتذكرُ مغامراتنا! أنا شخصيًا أعتقدُ أن المرء يتذكرُ ما يريد أن يتذكرَه.

طبعًا أتذكرُ يا سولرن، وغالبًا ما أعودُ بتفكيري إلى تلك السنوات الخمس التي قضيناها معًا ناظرًا إليها على أنها نواة حياتي الحقيقية.

عَزَمْنَا عَلَى الْمَشْيِ إِلَى "فرونْدَهَام"، وَمَشِينَا! قَرَرْنَا الْإِحْجَارَ فِي بَحِيرَةِ "مِيسَا" وَأَبْجَرْنَا. جَلَسْنَا فِي مَقْهَى دَارَةِ الْفَنُونِ "كُونِسْتَرْنَارْنِيسْ هُوس"، وَإِذَا بِالرَّغْبَةِ فِي الذَّهَابِ إِلَى "سْتوكْهُولْم" عَلَى الدَّرَاجَاتِ تُدَاهِمُنَا، فَقَصَدْنَا الْبَيْتَ وَنَعْمَا بَضْعَ سَاعَاتٍ. ثُمَّ رَكِبْنَا الدَّرَاجَاتِ إِلَى "سْتوكْهُولْم".

كَانَتْ مَأْتُرَتُنَا عَلَى هَضْبَةِ "هَارْدَانِيْرِفِيدَا" أَكْثَرَ مَا أَقْدَمْنَا عَلَيْهِ جَنُودًا. لَمَعَتْ فِي رَأْسِنَا فِكْرَةُ خَوْضِ بَحْرَةِ الْحَيَاةِ الَّتِي اخْتَبَرَهَا أَنْاسُ الْعَصْرِ الْحَجَرِيِّ لِبَضْعَةِ أَسَابِيعٍ. رَكِبْنَا الْقَطَارَ إِلَى الْجِبَالِ وَأَقَمْنَا مَاوَانَا عِنْدَ سَفْحٍ فِي الْجَنُوبِ الْغَرْبِيِّ يَبْعُدُ كِيلُومِتْرَاتٍ قَلِيلَةً عَنْ مَنطَقَةِ "هَاجَاسْت"، أَقْمَنَاهُ فِي مَا يُشْبِهُ الْكَهْفَ تَحْتَ لَوْحٍ صَخْرِي نَاتِيٍّ. أَخَذْنَا مَعَنَا مَلَابِسَ سَمِيكَةٍ وَأَغْطِيَةً. وَتَزَوَّدْنَا بِرِزْمَتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ مِنَ الشُّطَاطِرِ لِنُضْمَنَ مَا يَسُدُّ رَمَقَنَا فِي السَّاعَاتِ الْقَلِيلَةِ الْأُولَى فِيمَا نَحْنُ نَنْصَبُ عُجَيْنًا، وَلِنَشْعَرَ بِأَمَانٍ أَكْثَرَ، جَلَبْنَا مَعَنَا أَيْضًا مَوْوَنَةً مِنْ أَنْوَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الْكَعْلِكِ وَالْبَسْكَوَيْتِ لِلْحَالَاتِ الطَّارِئَةِ. أَمَّا أَشْيَاؤُنَا الْأُخْرَى فَلَمْ تَعُدْ قِدْرًا وَاحِدَةً لِلطَّهْيِ، وَبِكْرَةً خَيْطَانِ صَيْدٍ، وَمُذْيَةً وَعُغْلَبَتِي ثِقَابٍ. هَذَا كُلُّ شَيْءٍ، أَوْ تَقْرِيبًا كُلُّ شَيْءٍ، لِأَنَّكَ - وَهَذَا هُوَ الْغَرَضُ الْوَحِيدُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي زَمَانِهِ الصَّحِيحِ - أَحْضَرْتَ مَعَكَ عِلْبَةً حَبُوبَ مَنَعِ الْحَمْلِ، وَقَدْ اسْتَحْدَمْنَاهَا كَتَقْوِيمٍ إِلَى جَانِبِ اسْتِحْدَامِهَا الْأَصْلِيِّ، بَعَا أَنَا لَمْ نَمْلِكْ وَسِيلَةً أُخْرَى لِحِسَابِ الْأَيَّامِ. عِشْنَا السَّاعَاتِ الْأَرْبَعَ وَالْعِشْرِينَ الْأُولَى عَلَى مُخْتَلَفِ أَنْوَاعِ التُّوتِ - تُوْتِ الثُّرَابِ وَالتُّوتِ الشُّوكِيِّ وَتُوْتِ الْعُلْيَقِ - وَتَحَصَّنَا بِشَايِ الْغَرَعَرِ السَّاخِنِ. فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ عَثَرْنَا عَلَى عِظَامِ طَيْرٍ رَأَيْنَا أَنَّنَا نَسْتَطِيعُ تَحْوِيلَهَا إِلَى أَدَوَاتٍ لَصِيدِ السَّمَكِ؛ حَفَرْنَا الْأَرْضَ بَحْثًا عَنْ الدِّيدَانِ، وَمِنذُ ذَلِكَ الْحَيْنِ صَرْنَا نَصْطَادَ سَمَكِ السَّلْمُونِ وَنَشْوِيهِ عَلَى لَوْحٍ صَخْرِيٍّ. حَلَمْنَا بِاصْطِيَادِ أَرْنَبٍ أَوْ دَجَاجَةٍ بَرِّيَّةٍ. يَبْدُ أَنْ الْأَرَانِبَ كَانَتْ سَرِيعَةً جَدًّا، أَمَّا الطَّيْهُوجُ أَوْ الدُّجَاجُ الْبَرِّيُّ فَكَانَ يَقْلَعُ مَبْتَعْدًا مَا إِنْ نَهَمَّ بِالْوُثُوبِ عَلَيْهِ. مَعَ مَرُورِ الْوَقْتِ قَرَمْنَا إِلَى اللَّحْمِ أَكْثَرَ فَكْثَرٍ، وَعِنْدَمَا وَقَعَ نَظَرُنَا عَلَى قِطْعٍ مِنْ بَغْزَلَانِ الرَّئَةِ، نَحِينَا بَعْضَ الصَّخُورِ وَحَفَرْنَا شَرَكًا

وَارْتِنَاهُ بِأَغْصَانِ الْبَتُولَا وَالْعِيدَانِ وَالطُّحَالِبِ. مِنْ سَاعَتِهَا لَمْ نَلْمَحْ لِلْفَزْلَانِ
أَثَرًا، وَفِي النِّهَايَةِ سَقَطَ حَمَلٌ فِي الْخُفْرَةِ. ذَبَحْنَاهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَخَالِجَنَا مِثْقَالُ
ذَرَّةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الشَّفَقَةِ، وَسَلَحْنَاهُ وَاقْتَنَاهُ لِأَيَّامٍ. صَمَّمْنَا مِنْ عِظَامِهِ
خُطَّافَاتٍ لَصِيدِ السَّمَكِ وَأَدَوَاتٍ مَطْبَخٍ، وَكَشَطْتُ مِنْهَا حِلِيَةً نَظَّمْتُهَا
بِسُورِيَةِ نَبَاتٍ مَتِينَةٍ وَعَلَقْتُهَا حَوْلَ رَقَبَتِكَ. وَحَصَلْنَا أَيْضًا عَلَى الصُّوفِ.
تِلْكَ كَانَتْ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ لِأَنَّ الْأَيَّامَ بَدَأَتْ تَمِيلُ إِلَى الْقِصْرِ، وَفِي مَطْلَعِ ذَاتِ
صَبَاحٍ رَأَيْنَا الْأَرْضَ مَكْسُوءَةً بِالصَّفِيعِ. حِينَهَا حَزَمْنَا أَمْتَعَتَنَا. فَعَلْنَا ذَلِكَ
بَنَشْوَةِ الْمُتَصَرِّينَ، إِذْ لَمْ يَكُنْ قَدْ تَبَقِيَ فِي عِلْبَةِ حُبُوبِ مَتْنِ الْحَمَلِ إِلَّا مَا
يَكْفِي أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ، مَا يَعْنِي أَنَّنَا عَشْنَا حَيَاةَ سَاكِنِي الْكَهُوفِ سَبْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا.
عِلَاوَةً عَلَى أَنَّنَا نَجْحُنَا فِي الْإِخْتِفَاءِ عَنِ الْعَيُونِ، فَحَنَّا لَمْ نَلْمَحْ إِنْسَانًا وَاحِدًا
فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ كُلِّهَا. أَثْبَتْنَا لِأَنْفُسِنَا أَنَّنَا قَادِرَانِ عَلَى الْبَقَاءِ أَحْيَاءَ فِي ظُرُوفِ
مِثْلِ ظُرُوفِ أَنْاسِ الْعَصْرِ الْحَجَرِيِّ. إِنَّمَا كَانَ مِنَ الرَّائِعِ حَتْمًا أَنْ نَعُودَ إِلَى
الْبَيْتِ لِنَتَّعَمَ بِالْحَمَّامِ وَالسَّرِيرِ الْعَرِيضِ وَزَجَاجَةِ مِنْ "الْعُولَدِينَ بَاوَر". وَلِيَوْمِ
وَنَصْفِ يَوْمٍ لَمْ نَقَادِرِ السَّرِيرِ إِلَّا لِلْحَاجَةِ مَاسَةً. كَانَتْ أَوْصَالُنَا يَسَّةً، وَعَاثَيْنَا
مِنْ إِرْهَاقِ السَّفَرِ كَمَا لَوْ أَنَّنَا سَافَرْنَا عِبْرَ الزَّمَنِ لآلَافِ السَّنَوَاتِ.

إِنَّ لِلْعُودَةِ بِالتَّفَكُّيرِ إِلَى ذَلِكَ الزَّمَنِ وَقَعًا مُحِبِّيًا إِلَى النَّفْسِ يَا سَتَايْنِ، وَلَا
أُسْتَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ لُبُّ حَيَاتِي قَدْ طَوَّقَ بِتِلْكَ الْأَيَّامِ السَّبْعَةِ عَشَرَ الَّتِي انْعَزَلْنَا
فِيهَا عَنِ الْعَالَمِ وَبَقَيْنَا وَحِدُنَا فِي أَعَالِي الْجِبَالِ تَحْتَ صَفْحَةِ السَّمَاءِ، أَنَا وَأَنْتِ
فَقَطْ. وَلَكِنْ كَيْفَ تَنْظُرُ إِلَى الزَّمَنِ الْحَاضِرِ؟ وَبِمَ تَوَمِّنُ؟

حَسَنًا، لَعَلَّ سُؤَالِي مُبْهِمٌ نَوْعًا مَا. فَلِنَلْعَبْ لَعِبَةً صَغِيرَةً إِذَا. لِنَقُلْ إِنَّكَ فِي
مَكْتَبِكَ الْجَامِعِيِّ، مُسْتَرْخٍ إِلَى الْوَرَاءِ فِي جِلْسَتِكَ بِأُجْهَةِ الْأَسَاتِذَةِ وَالْمَلَلُ يَكْدُ
يَقْتَلُكَ. وَأَنَا تَلْمِيزَةٌ لَدَى بَابِكَ. تَدْعُونِي إِلَى الدُّخُولِ - تَغْمِرُكَ لِلْبَهْجَةِ لِحْصُولِكَ
عَلَى زَائِرٍ - ثُمَّ أَقُولُ لَكَ، مَا تَعَلَّمْنَا يَا أَسْتَاذَ رَائِعٍ جَدًّا، وَلَكِنْ مَا هِيَ

المعتقدات التي تؤمن بها أنت عندما يتعلّق الأمر بالأشياء التي لا تملك لها
أجوبة؟ طبعاً، تشعرُ بالإطراء من هذا السؤال المباشر والشخصي جداً الذي
تطرحه عليك تلميذتك المفضّلة، ولذا تبدأ في إلقاء محاضرة قصيرة. هيا!
انطلق يا ستاين! إنها المحاضرة القصيرة التي أنتظر سماعها. (حاول ألا
تجعلها طويلة، فعلى ما يبدو ستكون أمسيتنا أمسية شواء اليوم أيضاً، وعلى
أن أعِدّ السلطة على الأقل).

تمزحين بلا شك! كيف لي أن أقاوم مثل هذا الإغراء؟

لا بأس، ليس أمامك إلا أن تستسلم له.

في هذه الحالة أستطيع بكل سهولة المتابعة من حيث توقفت، لأنني أؤمن
بأننا ننحدر من سلالة على شاكلة سلالة أناس العصر الحجري. لولا أنهم لم
يعاطوا حبوب منع الحمل. نحن على غرارهم ننتمي إلى فصيلة الإنسان
الحديث، وهو سليل الإنسان المتّصّب المباشر، وهذا بدوره متحدّر من الإنسان
الماهر. ومنه نعود إلى الأسترالوبيثكس أفريكانوس أي الإنسان الإفريقي.

إننا من المقدّمات أو الرئيسات يا سولرن، أتراك ما زلت تذكرين هذا؟
وإذا رجعنا إلى الوراء بضعة ملايين السنين، نجد أننا نشترك في الأصول
نفسها مع الشمبانزي والغوريلا. أنت تعرفين كلّ ذلك. سبق أن
خضنا فيه. كان العصب المحرّض الكامن وراء شعورنا المعمّق بالحياة، وراء
شعورنا بأننا جزء من الطبيعة. بعد ذلك أصبحنا من الثدييات، على غرار
الأرانب البرية وغيلان الرنة التي رأيناها في "هاردانبيرفدا"، وهذه الفئة من
الفقاريات تطوّرت قبل ما يقارب بضع مئة مليون سنة من صنف مُعيّن من

الزواحف شبه الثديية، وهي التي تُدعى ثيرابسيديس أو الثدييات البدائية. لكن لماذا ننظر إلى الوراء؟ إن هذا يشبه المضيّ عكسَ التياراً أليس من الأفضل أن نضع أنفسنا في الطرف الآخر، ونأخذ دوراً من البداية مباشرة في الرحلة المُتسمة بخطورة لا مُتناهية؟ لا بأس، سأحاول توضيح ما أعني مُكتفياً بِمُختصرة مُوجزة.

وَقَفّاً لآخر الحسابات، يبلغ عمر هذا الكون الذي يكتنفه غموض رهيب ١٣,٧ بلايين سنة تقريباً. في ذلك الحين وقع ما يُسمى الانفجار العظيم. كيف؟ ولماذا؟ لا تسأليني! ولا تسألني أي شخص آخر، لأن أحداً لا يعرف. أما ما نعرفه فهو أنه بعد ذلك الانفجار، وفي غضون جزء من ثانية تحرّر كم هائل من الطاقة وتجمّع على هيئة بروتونات (جسيمات تحت ذرية) و نيوترونات (جسيمات أولية دون ذرية) إضافة إلى الإلكترونات (جسيمات سالبة مُكوّنة للذرة) وعناصر أخرى تسمى الليتونات (صنف من أصناف الجسيمات). وبينما برّد الكون، انبثقت العناصر الخفيفة، وكذلك ظهرت مع مرور الوقت النجوم والكواكب والمِحَرّات والعناقيد المِحَرّية العظيمة. وبِشأن الآن نعرف أن عُمر نظامنا الشمسي وعُمر كوكبنا ٤,٦ بلايين سنة، أي تقريباً ثلث عُمر الكون. وهذا أكسبنا بالتدريج قدرّاً من الفهم العميق لتاريخ الأرض وتطورها.

بدأ أول أشكال الحياة البدائية هنا قبل ثلاث أو أربع بلايين سنة. بغض النظر عمّا إذا حصل التطور من الأرض إلى الأعلى - في الموقع أعني - أو أن لبّات الحياة الأساسية (يمكن أن ندعوها المادّة ما قبل الحيوية) جاءت من مكان بعيد جداً بسبب تعرّض الأرض لضربة مُذْغِب أو كوكب. ما هو مؤكّد على أي حال، أنه في ذلك الوقت لم يكن ثمة أوكسجين في غلاف كوكبنا الجوي، ما يعني أيضاً أنه في البداية لم يكن هناك طبقة أوزون واقية حوله. والشرطان المُسبقان المُهمّان لتحريض تشكّل جُزيئات الحياة يتمثّلان في غياب الأوكسجين وطبقة الأوزون. وهنا نأتي إلى مُفارقة مثيرة للانتباه؛

وهي أن الظروف الضرورية لازدهار الحياة (مثل غلاف جوّي غني بالأوكسجين وطبقة أوزون واقية) يجب ألا تكون حاضرة حتى تبدأ الحياة. وهكذا يُفترض أن الخلايا الحيّة الأولى نشأت في البحر، ربما في أعماق سحيقة جداً. أما الأوكسجين المُحرَّر وطبقة الأوزون فهما نتاج عملية البناء الضوئي - وبالتالي نتاج الحياة نفسها - وهما قوامان أساسيان لوجود الكائنات الحيّة هنا. لكن وجودهما يحوّل دون نشوء حياة جديدة أخرى. وهذا ما يجعلنا نُرجّح بقوة أن جميع أشكال الحياة على هذا الكوكب هي متماثلة بدقّة في أعمارها.

لم تكن الشروط مناسبة لظهور كائنات حيّة أعلى مثل النباتات والحيوانات إلا بعد أن تطوّرت الكائنات المُخلّقة ضوئياً في الدّهر الأسبق لتاريخ الأرض، أو في ما ندعوه حقبة ما قبل الكامبري (حقبة الحياة الخفيّة). في الحقبة الكامبرية (منذ ٥٤٣ مليون سنة إلى ٥١٠ مليون سنة)، ظهرت الرّخويات ومفصليّات الأرجل الأولى، وفي الحقبة الأوردوفيشية (منذ ٥١٠ مليون سنة إلى ٤٤٠ مليون سنة) ظهرت الفقاريات الأولى؛ أي الهيكل العظمي الداخلي الذي أعطى الحياة إمكانيات جديدة كل الجِدّة. وكان الذين يُمثلون فرعاً صغيراً من هذا الخطّ الحيواني هم من انطلقوا بعد نصف بليون سنة إلى الفضاء لدراسة بداياتنا الكونيّة.

في أثناء العصر السيلوري (منذ ٤٤٠ مليون سنة إلى ٤٠٩ مليون سنة) ظهرت النباتات الأرضية الأولى، وكذلك حيوانات اليابسة الأولى، وأسبقها إلى الظهور العقارب. كانت من المفصليّات، من رتبة العنكبويّات، وهي أوّل من شقّ طريقه إلى اليابسة. وعلى أعتاب الفترة الديفونية المتأخّرة (منذ ٤٠٩ مليون سنة إلى ٣٥٤ مليون سنة) كانت البرمائيات تزحف إلى اليابسة، وعلى وجه التحديد ما يُعرف باسم "تَيْهِي السِّن" (حيوان برمائي مُنفَرَض)، وهو من أحفاد إحدى فصائل السّمك التي تُدعى "فصيّات الرّعانف". وفي العصر الكاربوني (منذ ٣٥٤ مليون سنة إلى ٢٩٠ مليون سنة) تطوّرت فقاريات الأرض بسرعة كبيرة، وتوسّعت إلى عائلة غنيّة متنوّعة

من البرمائيات ثم بالتدرّج إلى زواحف أيضاً. استمرّ هذا التطوّر إلى العصر البرمي (منذ ٢٩٠ مليون سنة إلى ٢٤٥ مليون سنة). وكانت الخاصيّة المميّزة لهذه الحِقبة تزايد عدد الزواحف المتكيّفة مع مناخ أكثر جفافاً. وفي هذه الحِقبة ظهرت أولى الزواحف الشبيهة بالثدييات، وهو نظام الزواحف الذي تأبى منه جميع الثدييات.

شهدَ العصر الترياسي (منذ ٢٤٥ مليون سنة إلى ٢٠٦ مليون سنة) ظهور الثدييات الأولى والدّيناصورات الأولى. سيطرت الدّيناصورات على الحياة على اليابسة من نهاية العصر الترياسي، واستمرتّ بسيطة سيطرتها طوال العصر الجوراسي (منذ ٢٠٦ مليون سنة إلى ١٤٤ مليون سنة)، إلى أن أبادت كارثة شاملة، يُرجّح أنّها ضربة نيزك في "يوكاتان" عند خليج "المكسيك"، آخر الدّيناصورات في نهاية العصر الطباشيري (منذ ١٤٤ مليون سنة إلى ٦٥ مليون سنة). وتلك لم تكن نهاية الدّيناصورات تماماً. فكلّ شيء يشير إلى حقيقة أن الدّجاج البرّي أو ما يُعرف باسم طائر الطيهوج الذي حاولنا أنا وأنتِ اصطياده عند هضبة "هاردانجر" هو في الحقيقة من الأحفاد المباشرين لعائلة معيّنة من الدّيناصورات، وهو أصل يشترك فيه مع باقي الطيور الأخرى. وغالباً ما يمزجُ علماء الحفريات بقولهم إن الطيور هي في الواقع ديناصورات.

أما أنا وأنتِ والحيوانات الرّئيسة كلّها فننتهي إلى فئة من آكلات حشرات قريبة الشبه من حيوان "الرّبابة"، وهي حيوانات من القوارض أصغر حجماً من الجرذان، جاءت تعدو منذ ٦٥ مليون سنة حالماً انتهى طفيان الدّيناصورات آكلة اللحوم. هل تتذكّرين مُزاحنا حول هذا؟ قولنا إنّنا حيوانات تشبه الفئران الصغيرة!

على امتداد العصر التيرشيري أو الثلاثي (منذ ٦٥ مليون سنة إلى ١,٨ مليون سنة) كان نظامنا الثديي، أي المقدّمات، يمرّ بمرحلة تطوّر سريع جداً. ثم على عتبة العصر الكواترنيري أو الرّباعي (منذ ١,٨ مليون سنة)، وهو عصر فترتنا الجيولوجية، ظهرَ جدُّنا العظيم الأول الأسترالوبيثكس أو

أَوَّلَ جَنَسٍ شَبِهَ بَشَرِيٍّ مَشَى عَلَى الْأَرْضِ بِقَدَمَيْنِ اثْنَتَيْنِ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ أُشْرِتُ إِلَيْهِ.

هذا ما أؤمن به يا سولرن! أؤمن بالمعرفة التي تُعِدُّنا بها الفيزياء الفلكية وعِلْمُ الكَوْنِيَّاتِ أو الكوزمولوجيا. وأؤمن بما يستطيع عِلْمُ الأحياء وعِلْمُ الإحاثَةِ تزويدنا به من معلومات عن نشوء الحياة على الأرض وتطوُّرها. وأؤمن على نحو قاطع وبكلِّ ما في الكلمة من معنى بفلسفة العلوم الطبيعية. أعرف أن هذا كُلُّهُ يتغيَّرُ باستمرار: فالبحوث العِلْمِيَّةُ تأخذ خطوتين إلى الأمام وخطوةً جانبيةً، أو خطوةً إلى الأمام وخطوتين جانبيتين. ومهما اختلفت الأحوال، فإن شيئاً لن يجعلني أؤمن إلا بالقوانين الطبيعية، وبالتحليل النَّهائِي الذي يعني قوانين الفيزياء والرياضيات.

أؤمن بما هو موجود. أؤمن بالحقائق. نحن لا نعرف بعدُ كلَّ شيء، ولا نفهم كلَّ شيء - معرفتنا مُفَعِّمةٌ بالتَّغَرُّات. إلا أننا نعرف ونفهم أكثر بكثير من أسلافنا.

ألا توافقيني يا سولرن على أن ما كَسَبْنَاهُ من بصيرةٍ خلال القرن الماضي فقط يدعو إلى العَجَبِ؟ يمكننا أن نبدأ قَرْنًا بنظرية النسبية الخاصة لـ "آينشتاين" في ١٩٠٥. فوراء المعادلة $E = mc^2$ يكمنُ استيعاب عميق، يفوق التصديق تقريباً، لطبيعة الكون؛ الطاقة يمكنُ أن تتحوَّلَ إلى كتلة، والكتلة إلى طاقة. وفي ١٩٢٠ اكتشف العالم "إدوين هابل" انزياحاً كونيّاً أحمر وانتهى إلى أن المَجَرَّاتِ يبتعد بعضها عن بعض بسرعة تتناسب مع المسافة التي تفصل بينها. لا مجال للشكِّ في أن هذه إحدى أهمِّ إنجازات القرن العِلْمِيَّةِ، لأنها جلبت معها حقيقة أن الكون يتوسَّعُ وأن أصله كان الانفجار العظيم. نظرية أُبْثِتْ بعدة طرائق منذ ذلك الاكتشاف، ناهيك عن إثباتها بواسطة الكشف عن الأشعة الكونية الخلفية، حيث تبيَّن لنا أن الكون ما زال ساخناً بعد الانفجار العظيم قبل ١٣,٧ بلايين سنة. وفي عام ١٩٩٠ وُضِعَ مِنْظَارُ الفضاء العظيم - الذي حملَ اسم "هابل"

تيمنا به - حول مدار الأرض، وبعد إجراء تعديلات وتحديثات ضرورية عليه، زودنا بصور مهمة للكون على بعد العديد والعديد من بلايين السنين الضوئية، وبالتالي أعادنا بما يعادها من بلايين السنين إلى تاريخ هذا الكون. لأن الإطلال على الكون لا يختلف في شيء عن الرجوع بالزمن إلى الوراء. اليوم، لا معوقات كثيرة تحول بيننا وبين النظر إلى بدايات الكون، مع أنه ليس من المحتمل أن نرى ما هو أبعد من ٣٠٠,٠٠٠ سنة بعد الانفجار العظيم. وينبغي ألا ننسى أن الكيمياء الحيوية واستيعابنا لماهية الحياة قد واکبا هذا التطور على مدار القرن بسرعة جنونية. ومن اللحظات المهمة في هذه الفترة توصل "فرنسين كريك" و "جيمس واطسون" إلى وصف الشريط الثنائي اللولبي المؤلف من خزيقات الحمض النووي (دي إن إي) في ١٩٥٣. ولا يمكن أن نغفل اللحظة الحاسمة الأخرى التي شهدت رسم الخريطة الجينية للإنسان، أي تلك البلايين الثلاثة تقريباً لزوجي القواعد الأساسية التي يتركب منها الجينوم البشري أو مجموعة العوامل الوراثية. وقد اكتملت هذه الخريطة في نهاية القرن. العلامة الفارقة التالية في سعينات لفهم الكون وطبيعة الهبولى ستجلى في التجربة الفيزيائية الأكبر في العالم، والتي سيُجريها المركز الأوروبي للبحوث النووية "سيرن CERN" في فترة ما من ٢٠٠٨. حيث سيدخل في حيز الاستعمال مُعجّل جسيمات فائق القدرة وجديد كلياً. والهدف منه تحريّ الجزئيات الأولية التي تألف منها الكون بعد الانفجار العظيم — ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ من كسر الثانية الأولى. ولعلنا يوم نستوعب تاريخ هذا الكون بالعودة إلى أول جزءٍ مجهرى من أول ثانية لظهوره، نجد ما يجعلنا نكف عن التذمر من استيعاب الإنسان الناقص للكون.

غالبًا ما درج الناس على القول إن مناقشة التساؤلات المهمة عن أصول العالم أو جوهر الحياة هي في عبثيتها مثل مناقشة حقيقة الجانب المظلم من القمر، لأن القمر يُرينا دائماً الهيئة نفسها. اليوم، أصبحت هذه الفكرة

ساذجة وباطلة لأننا الآن - بعد الرحلات الفضائية إلى القمر - نستطيع العثورَ في أي مكتبة على صور مُفصَّلة لجانبه المظلم.

ها.. بهرتني يا ستاين! وأنا هنا أتَهكَّم في الواقع.

تذكرني بتصرفُ الطفل الذي لا يستطيع أن يجيبَ السؤالَ المطروح عليه، فيبدأ بدلاً من ذلك في التحدث عن شيء مختلفٍ تمامًا. سألتك عن رؤيتك الآن إلى العالمِ المعجزة، لا عما تظنُّ أنت وبقيّة الناس أنكم تعرفونه. أنت بلا شك لا تعتقد أن تلميذتنا الصغيرة اللطيفة جاءت إلى مكتبك لتسألك عن هذا؟ إن آخر ما أرائته هو أن تتخذك كتابًا مرجعيًا.

من ناحيةٍ أخرى لا رغبة لدي أبدًا في أن أباعدَ بيني وبين ما طرحته عن الفلكِ وعلمِ الحفريات أو التاريخ العلمي. ولذا أتقبلُ ما قلتَ بصدرٍ رحب. إلا أنك في الحقيقة تتلو على مسامعي سلسلةً من الحقائق. ما يعني أنك لا تجيبُ أي سؤال، وأن ليس لديك نظريات تتعلق بكيف حدثَ أي شيء أو لماذا؟ أنت فقط تعكس العالم كما يظهر لنا جميعًا.

أنت لا تأتي مطلقاً على ذكر كلمة واحدة عن الشيء الأكثر غموضاً - وربما الأكثر أهمية - وهو أننا أرواحٌ نشعُ نوراً أيضاً. كل فردٍ منا هو بعدُ ذاته روح في هذا الكون. أليس هذا ما رأيناه في 'الذمي' آنذاك؟

تخيل أن طفلاً يذهبُ إلى أمته ويسألها، من أنا؟ أو ما ماهية الإنسان؟ فنتناول الأم سكيناً ونبدأ في تقطيع لحمه لنتسنى لها أن تزوده بجواب أفضل.

في الوقت نفسه، وردَ في رسالتك مقطعٌ عاودتُ قراءته مرّات. تكتبُ قائلاً: 'وفقاً لآخر الحسابات، يبلغ عمر هذا الكون الذي يكتفغه غموض رهيب ١٣,٧ بلايين سنة تقريباً. في ذلك الوقت وقع ما يُسمى الانفجار العظيم. كيف؟ ولماذا؟ لا تسأليني! ولا تسألني أي شخص آخر، لأن أحداً لا يعرف..'

على هذه الحاقّة البرّانية المُضِيّة يا ستاين وقَفنا في تلك الآونة. وأسلمنا زِمَام أمرنا إلى تلك اللاأثرية الوجدانية التي تطلّعتنا من خلالها إلى كلّ ذلك الذي كان 'غارِقاً في لُجّة الغموض'. وربما كانت هذه الحميّة هي ما أمدّنا بالطاقة لنعيش سبعة عشر يوماً مثل أهالي الكهوف. كنّا مُصابين بئوار الذُهشة، وأصررنا على تحرّي كلّ شيء على الإطلاق. وفي أدنى الأحوال، كان جوابُ تساؤلنا عما تبدو عليه الحياة في العصر الحجري في متناولنا. ولا أرى داعياً اليوم لأن تكون المسافة بيننا شاسعة. لعلّ اختلافنا لا يكمنُ إلا في أن ما تدعوه 'الانفجار العظيم' هو ما أسميه لحظة الخلق، أو كما تقول الآية الثالثة من سفر التكوين، 'وقال الله ليكن نور' فكان نور'. ما تُنحّيه جانباً باعتباره 'تحرّر طاقة' هو بالنسبة لي فعل خلق، ولا بدّ لي من القول إنه من المُحزن جداً من وجهة نظري أن يقترب المرء من يدِ الله المُبدعة إلى حدود ٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ من الثانية، ولا ينتابه ولو على نحوٍ مُبهم الشعور بالحُضرة الإلهية. هذا برأيي يدلُّ على نقصٍ معيّن في الحسّ المُرهف.

على أي حال، سأمُحك من جديدِ فرصةٍ أخرى. ما هو مُعتقدك يا ستاين؟ أعني بما يتعلّق بالأشياء التي لا نعرفها.

أُتخالفين؟

ماذا؟

أذكّركَ أن تحذني رسائلي قبل أن تُردّي عليها؟

أراكِ قادرةً على تذكُّر ما كتبتهُ بدقَّةٍ. مثل 'المقطع' الذي استشهدتِ به. وضعته بين علامات اقتباس، وبقدَّر ما أستطيع التَّحمين، يبدو لي أنك اقتبسته كلمةً بكلمة.

يا لِحِفَّةِ دَمَكِ. لطالما كانت ذاكرتي حادة. أنا كما ترى أمتلك بعض 'المواهب' الخاصة...

وإذا؟

أشعلَ يُوناسَ ونيلز بيتر شوايَّة اللحم للتَّو، وعلي أن أقومَ وأعدَّ السَّلْطَةَ. لم ألاحظِ إلا الآن فقط أن يُوناسَ فاقَ أباهُ نموًا. بشكلٍ عامٍّ أرى أنني سألقي مُرتَبطةً مع العائلة لبقية هذا المساء. فماذا عن الغد؟

لدي مَسَّعٌ كبيرٌ من الوقت غداً. استمتعي بأُمسينكِ العائلية!

وأنا بنوْري أتمنّى لك وقتًا طيبًا مع حَمِيكَ الفَطين.

صباحُ الخير! أأنتَ هناك يا ستاين؟

أهلاً بك. بعثت برسالتك قبل نصف ساعة. وها قد أصبحتُ الآن أمام الشاشة، والحاسوبُ متّصل بشبكة الإنترنت.

الجوُّ هنا أروع من أن يُصدّق يا ستاين. لا نفحة ريح واحدة تهبّ، والذّفق اللطيفُ يغمُر الدنيا منذ الآن. أخذتُ حاسوبي المحمول إلى الخارج تحت الشمس، وأنا الساعة جالسة إلى طاولة في الحديقة الصغيرة التي لطالما تعهدتُها جدتي بالرعاية وهي تندنون بترنيمتها: أوه، يا له من شخصٍ لطيفٍ ذلك الستاين.

إنّ القدمَ من غرب البلاد إلى هنا يفعل بالمرء فعله، فهو يجعله حريصاً على ألا يفوت يوماً صيفياً دافئاً. احتفاءً بالشمس ومحيطي ارتديتُ ثوباً هفهاً أصفر تتخلّله زخرفة كرزِيّة اللون رقيقة، وأمامي على الطاولة حالياً إلى جانب الحاسوب المحمول وعاءٌ صغيرٌ من الكرز. اشتريتُ الكرز من بقالةٍ يدي عند رصيف الميناء.

ولنت؟

أظنني أشرتُ إلى أننا في "نوردبيرغ"، على مسافة لا تبعد كثيراً عن المكان الذي كنتُ أعيش فيه أنا وأنت يا سولرن. وأتذكّر أننا في مناسبتين أو

ثلاث مَرَرنا بالقرب من البيت الذي أقيم فيه حاليًا في قَمّة "كونغليفيين".
إنّما أَرَجَحُ أن تكوني قد نسيتِ معظم أسماء الشوارع في منطقة لم تَطَّأها
قدمكِ منذ أكثر من ثلاثين سنة.

حاليًا أنا على شُرُفَة زجاجية أُرِنو إلى الحديقة التي تواجه الجنوب. وهذا
يكاد يماثل الجلوس في الخارج لأنني فتحتُ نافذتين كبيرتين، وبين آن وآخر
تدخلُ نحلة طنانة عابرة، ثم تعود وتخرج بعد لحظاتٍ قلائل. أرادت بيريت
أن ترصَّ في هذه الشُرُفَة أحواض الأزهار، إلا أنني نجحتُ في إقناعها بأن ما
لدينا من أزهار في الحديقة أكثر مما نحتاج. وكان علي في المقابل أن أتأقلمَ
مع واقع تكديس أحواض النباتات على الشُرُفَة طوال الشتاء. وحينذاك،
ليس هناك طبعًا نَحْلُ أو دبابير تطير إلى الداخل عبر النوافذ المفتوحة. إنني
أصِفُ هنا مساوِمة زَوْجِيَة نموذجية. فأقلُّ ما في وسع المرء أن يفعلَه في هذه
الحالات مُقابلة شريكه في منتصف الطريق، والموافقة على ترتيبات كهذه.

عادت بيريت إلى عملها بعد العطلة. ربما أخيرتُكِ بأنّها أخصائية عيون
وتعمل في مستشفى "أوليفول". أما ابتائي إينّا و نُورون فهما كالمعتاد
تسكّعان في الأرجاء، جدلتين كجذَل الصيف نفسه. وأنا وحدي في البيت
كما ترين.

أتذكّرُ "كونغليفيين" جيدًا يا ستاين، وكيف درَجنا على التنزّه في تلك الأثناء.
كنّا أحيانًا نمشي إلى محطة "بيرغ"، وأحيانًا نمضي مباشرةً إلى الجامعة.
وهذا تعدّي المرتين أو الثلاث. ثم إنني كنتُ أقوم بزيارات خاطفة إلى
"كرينغشو" كلّما وجدتُ نفسي في "أوسلو" تقريبًا. لا تنسَ أنني عشتُ هناك
خمس سنوات، وهي سنوات مهمة في حياتي، فقد كان ذاك بيتي. وإلى يومنا
هذا ما زلتُ أُنور مرتين حول بحيرة "سوغنسقان". لا أظنُّ أنّها منطقة
مَحظورة عليّ، أليس كذلك؟

قطعاً لا. يَسُرُّني أن أعرفَ أنلُكُ كنتِ تأتيين إلى هنا خلال هذه الفترة.

إلا أنني لم أقابلُكَ قطَ يا ستاين، أعني عند بحيرة "سوغنسفان".

ها، ها أنتِ!

ها أنا ماذا؟

الصدفةُ يا سولرن. إنها لا تعملُ دائماً.

لعلَّ اليتام الشَّمْلُ العظيم وفُرَّ إلى أن نعودَ إلى تلك الشُّرفة القديمة...

أنتِ ممزَّحِين. لكن مهلاً، عندما تدورين حول البحيرة، هل تدورين مع عقارب الساعة أو عكسها؟

عكسها يا ستاين. هذا ما فعلناه دائماً.

وأنا محافظٌ على التقاليد مثلكِ! مَنْ يدري، لربما كنتُ في تلك الأثناء أمشي

خلفك على بُعد خمسين أو مئة متر منك. وبما أنني الآن بدأتُ أهرول، قد يتاح لي اللحاق بك في المرة القادمة.

ما يهمني حاليًا يا ستاين هو تشكيلُ صورة لك وأنتَ جالسٌ أمام حاسوبك على شُرقة زجاجية في "تورنبيرغ". أخذتُ علمًا بالنحلة التي زارتك للتو، وأشكرُك على هذا. مع ذلك أنا أحتاج إلى مزيدٍ من التفاصيل لأنسى تمامًا أننا مُتباعدان مسافةٍ إبحارٍ عَبارَتَين و ٦٠٠ كيلومترًا. هناك شيء آخر تستطيع أن ترسمَ لي تفاصيله؟

حسنًا، أنا ألبس "فانيلة" بيضاء وبنطلونًا قصيرًا كاكي اللون، ولا أنتعلُ شيئًا. أمامي منضدة صغيرة جدًا، هي بالأحرى أقرب إلى المنصّة، مساحتها تكفي فقط لحاسوبٍ مَحْمول، وعلى حافة النافذة فنجان فيه كمية "إسبريسو" مضاعفة وكوب من المياه المعدنية. أنا جالسٌ على مقعدٍ عالٍ، ولا أتذكّر من أين حصلنا عليه. في الخارج بلغت الحرارة حوالي ٢٥ درجة. وفي وسعي أن أرى من هنا في الحديقة المسوّرة بسياجٍ من نبات الثويا عِنةً من شجرٍ إخص ثمره ما زال رماديًا وفجأً، وشجرتي نخوخ تحملان نخوخًا ناضجًا تقريبًا مُشرّبًا باللونين الأزرق والبنفسجي. وإن لم يُخَيِّبني الظنُّ فهذا النوع يُدعى "هيرمان". ومن حول ساعة شمسية قديمة تنبثق باقةٌ كثيفة من أزهار "لووس ستريف" الصفراء - غالبًا ما تبقى مُزهرة طَوال الصيف - وإذا مشينا إلى الأمام ثمة عناقيد من الزهور النّجمية البيضاء والحمراء إلى جانب الممرّ الحصى - تزهّر في وقت متأخّر وتدوم منتصبّة معظم الخريف كأها الأعمدة الصغيرة.

هل في هذا تعويض كافٍ لرحلة عَبارَتَين و ٦٠٠ كيلومتر؟

نعم. هذا دَعْمٌ عظيم، فالآن في مقدوري أن أَخْبِكَ. ولكن ماذا عن البنطلون القصير؟ لم يسبق لك قط أن لبتَ شيئاً كهذا. كنتَ عموماً تلبس بنطلونات مُضْلَعَة مُخْمَلِيَة الزَّعْب، بُنْيَة أحياناً، وأحياناً بلون الصوف الطبيعي، أو حتى حمراء قانية. أي أن هناك شيئاً قد تَغَيَّرَ.

والآن، يمكنك أن تشرع في التحدُّث إلي يا ستاين. فأنا لن أبرح مكاني.

أشرعُ في التحدُّث إليك؟

منحكُ فرصةً أخرى لتطلعتني على ما تَعْتَقُه من مُعْتَقَدَات بالنسبة إلى تلك الأمور التي لا تستطيع أن تجد لها تفسيراً.

آه، نعم. أرى أنك تُناورين ثم تعودين إلى طرح السؤال عِنه تقريباً، وأنا لا أستطيع استرجاع ما كُتِبَته لك بالضبط. ولا أخفي عليك أنني، بعدما غادرتِ أنتِ وزوجكِ بلدة الكتب في ذلك الأربعا، أمضيتُ وقتاً طويلاً أتمشَّى في الحديقة معاًوداً التفكير ملياً في ما وقفَ وراء فراقنا. إنه في الحقيقة لم يكن إلا بسبب هذه الأسئلة عن المُعْتَقَدَات. وبما أنكِ ذكَّرتني بـ 'مَرأة العِنيَّة'، حاولتُ أن أستحضرَ في ذهني جميع الحادثات التي أجريناها عن مثل هذه الأمور قبل أن يحطَّ علينا الصمتُ المِباغِت وينهار كل شيء.

تتأبني بعض المخاوف من نُبش ذلك ثانية. فأنتِ على صواب في قولكِ إنني جلستُ في غرفة النوم أَدخُنُ بلا انقطاع في أمسية ذلك اليوم الأخير وليلته. كنتُ في حالة يأسٍ رهيبه. ما عاد في وسعنا تبادل الحديث. لا بل ما عاد في وسعنا البقاء معاً في الغرفة نفسها. وعندما اضطجعتُ في لحظةٍ ما

قُبيل الفجر، لم يكن قد بقي لديّ إلا سيجارة واحدة من أصل عشرين في العلبة - أتذكّرُ هذا جيداً، لأنني أشعلتها وأنا قابع على حافة السرير حينما قمتُ بعد ساعة. وقبل أن أصلُ إلى منتصفها، سحقتها بعنف وخرجتُ إلى غرفة الجلوس، وهناك وجدتُكِ جالسة على طرف الصوفا، وفي يدكِ أنتِ أيضاً سيجارة.

ستاين! كان كلّ ما قلته، إلا أن شيئاً ما لاحَ في عينيكِ، فأومأتُ لكِ برأسي.

عرفتُ أنّكِ سترحلين في ذلك اليوم. وعرفتُ أنني عرفتُ. ولم أحاول منعكِ.

الآن، تعودين بعد أكثر من ثلاثين سنة لتسأليني عن المُعتقدات التي اعتنقها؟ قد يجِبُ هذا آمالكِ، فأنا في جميع الأحوال لستُ واثقاً من أن لديّ أي نوع من أي 'مُعتقدٍ' شخصي بأي شيء. ومن الأسهل لي أن أهدّدَ لكِ ما لا اعتنقه من مُعتقدات.

أرى أنّكِ تُعقّدُ الأمور الآن. لا بأس، ما هي المُعتقدات التي لا تعتنقها؟

يمكن أن ألخصّها بعبارة واحدة يا سولرن. أنا لا أعتقدُ أن هناك أي كَشْفٍ غيبي من أي نوع. ومعزل عنه يوجد الكثير ممّا يدعو إلى التساؤل، إلى جانب قدر كبير من الأمور التي نجعلها. هناك حقٌّ لا حدودَ له من المُعتقدات التي قد يؤمن بها المرءُ أو يشكّك فيها.

نعم؟

إننا نستخدم كلمة 'الاعتقاد' في سياقات مختلفة متعددة. فنحن قد نعتقد أن فريق "مانشستر يونايتد" سيغلب فريق "ليفربول"، أو قد نعتقد أن الجوَّ غداً سيكون رائعاً. هذا الأسلوب نحن نعني أن شيئاً ما في نظرنا له الأرجحية على شيء آخر. أي بمعنى آخر أن كفة فوز فريق "مانشستر يونايتد" بمباراة كرة القدم يوم الأحد قد تكون الراجحة. وربما هناك علامات تشير إلى أن الجوَّ غداً سيكون رائعاً. وهذه ليست الأمور التي نناقشها هنا.

ثم لدينا تصنيف آخر من الأسئلة عن المعتقدات التي لا مانع أيضاً من أن نضعها جانباً الآن - ما يحول في ذهني بالتحديد التساؤل الذي تطرقت إليه بخصوص ما إذا كان الانفجار العظيم قد حدث من تلقاء نفسه أو أنه نتيجة فعل خلق رباني. هذا سؤال لا يستطيع أحد إعطاء جواب حاسم له؛ فهو من الأسئلة النموذجية المتعلقة بالإيمان، ومن جهتي أنظرُ باحترام كبير إلى فكرة أن الانفجار العظيم قد يكون من معجزات الله، على الرغم من أن تعبير أو مصطلح 'الله' مشحونٌ كثيراً جداً بمفاهيم إنسانية أرباباً أن أستخدمها بنفسني. ضمن هذا التصنيف لدينا أيضاً، وفق ما أرى، سؤال آخر يهتمُّ، وهو الذي يدور حول ما إذا كان فينا أو ليس فينا شيء مثل 'روح' أو 'نفس' سيُكتبُ له النجاة من الموت. أنا شخصياً أستبعدُ أن يكون في شيء سيُكتبُ له أن يستمرَّ من بعد ما أنا عليه اليوم. أقول أستبعدُ، لا لأنني أرى أن مثل هذا الاعتقاد لا يتوافق مع العلم، على الرغم من إمكانية القول إنه يشغل منطقة ضبابية، بل لأنني لن أرغب في دحض الإيمان بوجود آخر بعد هذا - وبدرجة أقل سلبه منك - بناءً على أسس علمية.

عظيم يا ستاين، ولكن؟

ولكن، لا أعتقدُ أنَّ هناك أي قُوَى 'عَبِيَّة' تتخلَّل حياتنا باستمرار و 'تظهر' لنا. كان يجدر بي أن أكون أكثر وضوحًا معك في الماضي بخصوص هذا كله، لأن ردَّ فعلي لم يأتِ بسبب افتناعك المفاجئ بحياةٍ أخرى بعد حياتنا الآن، إنما لأنك ربطتِ هذه التصوَّرات بفكرة أن 'مَرأة العَبِيَّة' كانت ظُهورًا من العالم الآخر. وكما سبق أن بيَّنتِ في رسالتك، كان ظهورها حدثًا اخترناه معًا. وعلى الرغم من أنني ربطتُ فورًا بينها وبين ما واجهناه عند تلك البحيرة في الجبال، لم أستطع التصديق أنها ماثت هناك، وأنها بعد ذلك عادت لتزورنا من 'الطرف الآخر'.

ها، فهمتُ، ومع ذلك تابع يا ستاين. إنني أحاول في الوقت الراهن أن استوعبك جيدًا. ثم، عندما يأتي دوري سأنقلُ لك وجهة نظري. ما عليك الآن إلا أن تُخرج ما في داخلك، فأنا قادرةٌ على تقبُّله.

حسنًا إذًا، إليك ما لدي. أنا لا أعتقدُ أن تاريخ الإنسانية بأسره يتضمن حالة واحدة ظهرت فيها لأي فردٍ أو عرق الآلهة أو الملائكة أو الأرواح أو الأسلاف أو الأشباح أو العفاريت، أو أعلنت عن نفسها بأي سبيلٍ أخرى. والسبب هو أبسط الأسباب على الإطلاق: تلك الأشياء بالتحديد لا وجود لها.

نعم يا ستاين. لقد تناولتُ إلى الآن خمسَ حباتٍ من الكرز. ولتسهلَ علي متابعة العدِّ، أحفظُ بالنوى على الطاولة أمامي.

هناك إشاعات تقول إن بقالةٍ أيدي ستُغلق بعد أن كانت تجارةٍ عائلية منذ ١٨٨٣. لدينا طبعًا دكاكين في "تورا" وفي "إيتروفريند"، وتعداد سكان

الجزيرة الدائمين لا يكاد يتجاوز المتنين. مع ذلك سيكون مُحزنًا أن نفقد الدكان هنا عند اللسان البحري. بالتأكيد ليس ثمة ما يحول دون أن تقود السيارة أو تتركب الدراجة إلى "نورا" وتتسوق من هناك، لولا أنه عندما يفقد مجتمع صغير مثل "كولغروف" دكاكينه، تبدأ بُنية المكان بأكملها في التفتك، شتاءً في أدنى الأحوال، عندما لا يكون زوار الصيف هنا.

هل تتذكر جميع رحلاتنا على الدراجة التي قمنا بها في ذلك الصيف؟ أعرف أنك تفعل. كان لا بد لنا في كل مساء من الذهاب إلى "سوندره يونيفوغ" لنأمل البحر والغروب، ومن بعد ذلك لا بد لنا من الاستحمام في كل البرك الجبلية على طريق البيت.

تابع حديثك يا ستاين. أنا لستُ بالهشاشة التي تظنها. كتبتَ تقول إنك لا تؤمن بالقوى الغيبية...

طيب، بما أنك تسألين، إليك بمنظاري الغاليليوي. حاولي أن تتمثلي في ذهنك أن جميع الأفكار عن الظواهر الغيبية هي بلا استثناء ليست إلا تصورات إنسانية بحث، وليس لها أي أساس بتأناً إلا في أعماق الإنسان نفسه. فهناك يجذ الناس تربة خضبة جداً للتعويض عما ينقصهم. ما أراه شخصياً هو أن لدينا هنا ثلاثة عوامل بارزة: ذخيرتنا المفرطة من الخيال، حاجتنا الغريزية إلى البحث دوماً عن معانٍ خفية حتى في حال عدم وجودها، وأخيراً توقنا الفطري إلى وجودٍ بَكْرٍ بعد هذا، أعني حياة أخرى بعد الموت.

وقد أثبتَ كوكبيل الطبيعة البشرية الثلاثي هذا أنه مُثَمِّرٌ على نحوٍ فريد. ففي العصور كافة بلا استثناء - وفي المجتمعات والحضارات كلها - عزَّزَ البشر، كمَّا هائلاً إثر كمٍّ من المفاهيم المتعلقة بالكائنات الغيبية مثل أرواح الطبيعة، والأسلاف، والآلهة، والعمالقة، والملائكة أو الشياطين.

خُذِي مَا تَزَخَّرُ بِهِ خَيَالَاتُنَا مِنْ حَيَاةٍ نابضة كبدابة. الجميع يحلم، لذا لا أحد يستطيع أن يَصُونَ نفسه صيانة مُطلقةً مِنَ الهَلُوسَةِ، وفي مواقف معينة يمكن أن يحدث الشيء نفسه ونحن في حالة اليَقْظَةِ. حيث يخطرُ لنا أننا نشاهد أشياء ونشعر بها من غير أن يكون لتلك المُدْرَكَاتِ أي أساس على أرض الواقع. مَنْ مِنَّا لم يسأل نفسه ما إذا كانت هذه الذِّكْرَى أو تلك هي شيء اختبرَه بالفعل، أو أنها ليست إلا شيئاً ذُكِرَ أمامه أو فُكِّرَ فيه، أو حلمَ به أو تخيَّله.

أنا بنفسِي قابلتُ أناساً يزعمون أنهم شاهدوا 'جنّيات'. يَبْدُو أن الواقع يُنصُّ على أن رؤوسنا هي على الدوام جدّ محشوَّةٌ بِانطباعات حِسِّيّة بحيث لا يكاد يبدو مفاجئاً أن تغلي وتنفور من حين لآخر، أعني أن الاضطرابات البسيطة تحدث، الأشياء التي ندعوها عموماً الأوهام أو التَّهْيُؤَات.

أما الوثوب المفاجئ من ثَوْبَات الارتباك الحِسِّي الطبيعية جدّاً هذه، إلى ما نسمّيه الحقائق الدينية فيحدث عندما نسمح لخيالاتنا أو لخيالات الآخرين أن تكتسبَ مَرَلَةً كيانات موضوعية قائمة بذاتها، ومُستقلّة عن وعينا الخاصّ أو وعي غيرنا. إنني أفكرُ هنا في كلّ شيء؛ ابتداءً من أرواح الطبيعة، ومروراً بالحشد الكبير للشخصيات الصّوفيّة التي تلقّاها في الأديان القوميّة القديمة، وانتهاءً إلى المفاهيم التي تفوقها عَظَمَةٌ أو تُبَدِّها فِكْرًا والتي تُواجهُها عادةً في الأديان العالية الكُبرى، مثل فكرة وجود ربٍّ قادر على كلّ شيء يُظهر نفسه للبشر على الأرض، أي يُظهر نفسه على كوكبنا في درب التَّبانة.

أرى أنه يجدرُ بي هنا إجراء تمييز مهمّ. فجميع الأديان، تنضمّن إلى جانب بعض المُثُل الأخلاقية وَفَرَةً من التجربة الإنسانية التي يمكن أن تكون قِيَمَةٌ جدّاً بحدّ ذاتها. ومثلها سبق وقلتُ، ليس تدنّين الناس هو ما أسعى إلى

إلقاء ظلال الشك عليه. فأننا لا يطفح بي الكيل إلا عندما أسمع أو أقرأ عن أناس يهرون اتصالاً روحياً مع ربٍّ عليّ، ربٍّ خاطبهم أو ظهر لهم مُحملاً إياهم رسالةً مُحدّدة ينبغي أن يطيعوها الجميع. ملايين من الناس يعيشون على هذه الأرض مُعتقدين أن الربَّ يُخاطبهم - ويُملي عليهم ما ينبغي فعله - على نحوٍ فرديٍّ كلياً. ملايين وملايين من الناس هم كذلك مُقتنعون بأن ربّاً مُهيّماً يتحكّم بكلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ تحدث هنا، سواء كانت تسونامي أو حرباً نووية أو كسعة بعوضة.

أو ربما يا ستاين توقّف بطارية حاسوبٍ مَحْمُولٍ عن العمل هنا في هذا الزقاق البحري. سأعملُ على حلِّ هذه المشكلة. ما عليك إلا الاستمرار في الكتابة. الآن، ليس في بطارية حاسوبي طاقة كافية لأنغمس معك في نقاشٍ مُطوّل. ولن أدخل إلى البيت في هذا الجوِّ.

هل أكمل إذا؟

نعم يا ستاين. سيأتي دوري من بعدك، وأرجو أن تكون مُستعدّاً نفسياً لما أنوي قوله. لعلَّ النُبشَ في محيط ما اختبرناه في الماضي من مهماتي. لا أعرف ما تبقى في ذاكرتك منه. على كلِّ حال ما عليك الآن إلا أن تكمل حديثك.

لا أجدني قادراً على القول إنني أنطَلَع بشوق إلى ما ستمدّنين إلى نبشه، إلا أن الترامنا الحذَفَ يشجّعني على قبول شروطك، ولذا سأتابع الآن.

لقد تأملنا قليلاً في ما يمكن أن نُسميه التفسير الديني. إلا أننا نعرف أن الطبيعة البشرية لا تتغير، وأنت تعلمين طبعاً أنني لم أؤمن قطّ بقائمة علوم الباراسيكولوجيا، سواء ما يتعلق بظواهر الماورائيات أو بالظواهر الخارقة. وهنا لا يقتصر تفكيري على الجلّسات الرّوحانية لتحضير الأرواح وكلّ تنويعات الشّعودة غير الرّوحانية في صالات الاستقبال ذات الطراز الفيكتوري. فهذا النوع من استنساخ الواقع أصبح قديم العهد نوعاً ما. ما أفكر فيه فعلياً هو المفاهيم الحديثة عن توارّد الخواطر والاستبصار وتحريك الأشياء عن بُعد والأشباح. من غير أن تُغفل الأفكار القديمة عن الملائكة و 'الملاك الحارس' التي نَعِمَت في السنوات القليلة الماضية بعودة قوية. وهذه مثلها مثل سابقاتها اختزلت إلى نمط من الاعتقاد بالتحلي المرتبط بمفاهيم عن إمكانية التواصل مع بعض القوى الماورائية أو الغيبية. وقبل فترة ليست بعيدة حدثت بلبلة طفيفة عندما صرّح ٢٨ بالمئة من سكّان "النرويج" أنهم يعتبرون اتصال البشر بالملائكة ممكناً.

أدرج أيضاً في قائمة هذه الظواهر الزائفة جميع نماذج التنبؤ بالغيب، لأن هذه أيضاً تستند إلى فكرة وجود قدرٍ مُحتمٍ يتيسر الكشف عنه أو إظهاره باستخدام تقنيات محدّدة. خصوصاً عبر وساطة قارئ البخت ذوي الأنعاب الباهظة. إننا نتحدّث هنا عن تجارة قائمة بأكملها، قد تعادّل في نشاط مبيعاتها نشاط مبيعات تجارة الجنس. فسَلَع كل من الفُحش والعرافة تلقى على ما يبدو الرّواج نفسه، حتى على الرغم من أن إحداها تتعلق بشيء طبيعي للغاية، والأخرى بشيء هو فوق الطبيعي.

الشيء الوحيد الذي من المحتمل أن تحقّقه هذه المُسمّاة علوم الباراسيكولوجيا هو في رأيي رسم خطوط مشهّد لا وجود له - أعني خطوط مشهّد خيالي أو وهمي. ولا أرمي بقولي هذا إلى الخطّ من قيمة آداب هذه العلوم. فهي آداب يمكن أن تماثل في مستوى تشويقها تاريخ الدّين والفولكلور وبقيّة المجالات الثقافية إذا قرّرت باعتبارها وصفاً لنوعية المفاهيم السائدة لدى شريحة واسعة من الناس. نحن لا نعتبر الحكايات

الخُرَافَةُ بلا قِيَمَةٍ، لا بل نحن سُعْدَاءُ بالتأكيد لأن "سنورى ستورلسون" جمع الكثير من الأساطير "الثورسية" و "الجرمانية" قبل أن يُعَيِّها النسيان.

في جَعَبَتِي المزد، إلا أنني سأتوقّف بانتظار أي تعليق منك على طول ما كتبتُ، ومن أجل ذلك سأرسلُ الآن هذه الأفكار التحريية قبل أن تفرغَ بطارية حاسوبك نهائياً.

لا أتسلّمُ أي ردّ منك يا سولرن، ما يعني أنك تواجهين مشكلةً مع البطارية. لذا سأتابع في الوقت الحاضر تحليلي العَبَثي إلى أن يَصِلَنِي بريدُ منك.

إن رَفَضِي كُلَّ الأفكار المتعلقة بالظواهر الخارقة أو الظواهر اللاجسيّة يجعلني، بطبيعة الحال، أتبني موقفاً يُشكّكُ في جميع المفاهيم المماثلة ضمن الأديان المُعترف بها. في نظري هما وَجْهان لِعُمَلَةٍ واحدة، ولا أدري ما إذا كان من المفيد بشكل خاص إجراء أي تمييز منهجي بين الأديان المُوحاة من ناحية، وبين مفاهيم الظواهر الخارقة للطبيعة التي تتفوّق عليها في انفلاتها الجامح وفي تأكيداتها التي لا تقوم على بُنْيَةٍ من ناحية أخرى. إذ في مقابل نبتة الحكايات المتبرعمة عن الحوادث 'الخارقة' في علوم الباراسيكولوجيا، ترسّخت الروايات المناظرة لها في صلب الأديان العالمية الكبرى، وتحوّلت إلى مُسلّمات، وهي تواصل حياتها في إطار إيمان له أركانه ونُظمه الجيدة وتتدخل فيه القوى الإلهية.

إنما، كيف نستطيع حتى التمييز بين الإيمان والمُعتقَد الخُرَافي؟ فإيمان أحدهم هو في الواقع المُعتقَد الخُرَافي لشخص آخر - والعكس بالعكس. ولا تنسي أن لميزان العدالة كفتين.

أنا لا أستطيع تلمس الاختلاف بين الرطانة وبين تواصل مُحَضَّر الأرواح مع الأرواح ومُصادقتها. أليس الشخص الذي يَرطُن، أو يتكلَّم بلُغة غير مفهومة 'وسيطاً رُوحياً' أيضاً؟ وكذلك، لا أستطيع تلمس أي اختلاف بين التنبؤات الدنيوية وبين عروض فنون السحر والعرافة الفُتية أبداً. وسواء أطلقنا على الحوادث اسم 'مُعجزات' أو تحريك نَفْسِي المنشأ، أو 'صُعود' أو استرفاع، هي في نظري واحدة. لأنها في كلِّ حالة من هذه الحالات تَمَسَّ تعطيل جميع قوانين الطبيعة.

فكرة أن 'الخارق للطبيعة' يتجلَّى لنا في بعض الحالات النادرة، هي في الحقيقة فكرة مشاعة بين الخرافة والعُلوم الغيبية والأديان العالمية - مقارنة مع ما ندعوه نظرية علمية أو واقعية إلى العالم. ومع أنك تستخدمين عبارة 'ظهور روح'، أرى أنها تحمل معنى التحلِّي تقريباً.

إن أحد الدوافع المهمة لبحوث الباراسيكولوجيا التي أشرت إليها كان على وجه التحديد محاولة العثور على ركيزة علمية لفكرة الإيمان بوجود حياة بعد هذه، وهو شيء استقطب الزُخْمَ بعد أن بدأ تهديد "الداروينية" والتفكير الحر يَطالُ الأديان التقليدية. إشارتك إلى الزوجين "رايتز" جعلتني أقوم ببحث متواضع. كان دافعُ هذين الزوجين وغيرهما من رواد حقول الباراسيكولوجيا التجريبية البرهنة على خلود الرُوح. ولو نجحوا فقط في تقديم دليل دامغ على أن توارُد الخواطر ظاهرة أصيلة، لسهلَ الدُودُ عن المُعتقد الذي يرى أن روح الإنسان أبدية، أنها روح 'حرة'، تُقيمُ في الدِّماغ لفترة مُؤقتة فقط، من غير أن تكون مرتبطة به ارتباطاً لا فكاك منه. مثل هذا الدليل غير القابل للدُّخْض لم يُعثر عليه بعد.

ها أنا أرسلُ من جديد، فهل تتسلمين؟

نعم أفعل يا ستاين! اهتديتُ إلى وصلة كهرباء قديمة في سقيفة الأدوات، ولنا

الآن أحصل على الكهرباء من البيت. وحاسوبي الموصول بالشريط الأحمر الطويل يشبه القمر للصناعي الخاص بشبكة الجزيرة الكهربائية. وفي هذه اللحظة هو عملياً مرتبط بالبيت ومحيطه، ولكن ليس ارتباطاً لا فكاك منه. حصلنا مؤخراً على مَحَوَّل بيانات لاسلكي وهو يغطّي الحديقة الصغيرة بأكملها، من غير أن نحتاج إلى قابس كهربائي أو وصلات. وهذا يتيح لي الجلوس حيث أنا والتواصل مع العالم بأسره. لذا حاول فقط أن ترى بعين خيالك أن البشر ليسوا وحدهم من استطاع إبداع مثل هذه الشبكات اللاسلكية...

أنت تفكرين في توارّد الخواطر، وربما أيضاً في الاتصال بأرواح الموتى؟

إنني أفكرُ في الكثير من الأشياء يا ستاين، إلا أن ما أريده هو أن يتسنى لك إنهاء كل ما لديك لنقله حتى نتاح لي فرصة فهمك. تعرض أراعيك أولاً، وفي هذه الأثناء وفيما تتابع حديثك أتولى مهمة الهمز والمَز قليلاً، ثم يأتي دوري لأحتل الساحة وألبي بكل أرائي.

جيد. شرط ألا ننسى جُمْلَتِكَ الأخيرة، لأنني أنا أيضاً أرغبُ في فهمك.

لا بأس يا ستاين. سيكون عليّ إلى جانب ذلك أن أعيدَ استعراض ما اختبرناه فعلاً آنذاك بسرِّ مُفَصَّل، لأنه من المستحيل بالنسبة لي فصل ذلك الحدث عن هَوَيْتِي الدنيوية اليوم. أظن أنك قد نسيتَ بعضه - أعني بعض أهم النقاط - وكما أخبرتك، أنا أتمتع بذاكرة قوية جداً.

ألا تَرَيْنَ أن ذلك شيءٌ قد نُعْمِدُ إلى مناقشته لاحقاً، في حال رأينا أنه ضروري؟ أعني، إن نَحْتَمِ عليك أن تفعلِ هذا. إن نَحْتَمِ علينا أن نفعل هذا. فنحن كما تذكُرِين تعاهدنا على ألا نعودَ أبداً إلى نُبَشِ ذلك الموضوع ثانيةً.

سنرى يا ستاين. فحوارنا في حركةٍ تصاعديّةٍ مُستمرّةٍ.

عندما عثرتُ على وَصَلَةِ الشريط الكهربائي الطويلة وقمتُ بِكَرِّها وتَمَريرِها عبر الحديقة، دَوَّرَتِ ابنتي إنغريد عينيها. حَسِبْتُكِ في إجازة، قالت مُحْتَجَّةً. فهي تظنُّ أنني أعملُ على مادّةٍ تخصُّ مجلسَ المعلمين لو أنني أُحضرُ دروس اللغة الفرنسية للسنة الدراسية القادمة - على فكرة في هذه السنة سأعلِّم بعضَ الصفوفِ اللّغة الإيطاليّة أيضاً. طبعاً، العمل على هذا أو ذاك ليس فيه ما يبعث على الاستغراب، بما أنه بقي على افتتاح المدارس أقلَّ من أسبوع. غير أن نيلز بيتر ويوناس عادا منذ فترة قصيرة من نزهة صيد السمك. وعندئذٍ حَدَّثَتْنِي نيلز بيتر وَحَدَّجَ وَصَلَةَ الكهرباء بنظرةٍ شبه قَلِقةٍ قبل أن يُقْبَلَ نحوي ويدلِّكَ رقبتي وهو يتناول ما يحلو له من الكرز. تَجَنَّبَ بِحِرصٍ النظرَ إلى شاشة الحاسوب التي ليس من السهل كثيراً على أي حال استشفافها تحت هذه الشمس الساطعة. أظنّه يعرف أنني جالسةٌ أتبادل الرسائل الإلكترونيّة مع شخصٍ ما، ويتهيا لي أن حدّسه يقول له إن ذاك الشخص هو أنت. لم أتجاسر على إخباره لا عن ماذا أكتب ولا لِمَنْ. ويبدو كما لو أنه هو أيضاً لا يتجاسر على الاستفسار.

لين أنت يا ستاين؟ هل من أخبارٍ من "تورنبيرغ"؟ إذا لم يصلني فوراً أي شيء من تلك الشُرْفَةِ الزُّجاجيّة، سيراودني شعور بأنك تواريت عن الأنظار.

أنا في الحقيقة لم أفعل شيئاً تقريباً ما عدا الجلوس هنا والكتابة، ثم انتظار ردودك وقراءتها، فأنت تستمرين في الإجابة فوراً بمجرد أن أرسل. على أي حال، ولاكون صادقاً معك، أعترف أنني قصدتُ خزانة الزاوية وسكبتُ نفسي قدحاً صغيراً من "الكالفادوس". تلك "الإسريسو" كانت شبه خالية من النكهة.

لا تقرب من تلك الخزانة ثانية يا ستاين. تابع فحسب. كنت تتحدث عن الباراسيكولوجيا وما وراء الطبيعة...

نعم، إلى هنا وصلنا فعلاً.

عرّض "جيمس راندي"، السّاحر الأميركي المشهور، جائزة بقيمة مليون دولار لأوّل مَنْ يستطيع أن يُظهر، تحت شروط ملاحظة دقيقة، دليلاً على وجود أي قوى خارقة أو ما ورائية أو غيبية. اسمها جائزة المليون دولار لتحدي الخوارق، وقد وُضعت أوّل ما وُضعت في ١٩٦٤ عندما عرّض "راندي" مبلغ ألف دولار من جيبه الخاص لأوّل شخص يستطيع تقديم دليل عن أي شيء خارق للطبيعة. شيئاً فشيئاً، دعم أشخاص آخرون الجائزة، وسرعان ما أصبحت قيمتها مليون دولار. وإلى يومنا هذا لم ينجح أحدٌ في الاختبار.

يحقّ لك طبعاً أن تعترضني على هذا بقولك إن المُستبصرين أو الناس الذين يمتلكون مواهب خارقة ليسوا بالضرورة جشعين. ولكن، حتى من بين آلاف المُشعوذين اللاهثين وراء المال والذين يشغلون أعمدة الصحف ويظهرون في القنوات الترفيهية الرّخيصة، بالكاد انضمّ أحدهم إلى تحدي الخوارق سعياً وراء اقتناص مال جائزة "راندي" السهل. لماذا؟ الجواب واضح للغاية: لأنه ليس هناك أي مُستبصرين ولا أناس يتمتعون بمواهب 'خارقة'.

معظم الذين تقدّموا ليشاركوا في تحدّي الخوارق هذا، وكان هناك الكثير منهم، لم يكونوا في الواقع مُحترفين في تجارة 'عوالم ما وراء الطبيعة'. فهذا الفريق الأخير يُجنّبه كما لو أنه الطّاعون؛ فهو في نهاية المطاف، يُهدّد باستتصال قِطاعهم بأكمله من جذوره. (طبعاً لن ينحجّ أبداً، لأن العالم يريد أن يُخدع!)

قبل بضع سنوات، اجتمعت قارئة بَحَث ذائعة الصّيّة في أميركا واسمها "سيلفيا براون" مع "راندي" وجهاً لوجه في البرنامج التلفزيوني "لاري كينغ على الهواء"، وعندما تحدّثا "راندي" لتعرّض ما لديها من مواهب تحت ظروفٍ خاضعة للرقابة، وعدّت على الهواء بأن تقبل دخول الاختبار. مضى على هذا عدّة سنوات، وإلى الآن لم تذهب لترى "راندي". في إحدى المناسبات تعلّلت بقولها إنّها لم تجد وسيلة للتواصل معه. وأرى أن هذا دسّمٌ جدّاً. دسّمٌ جدّاً أن تزعم امتلاكها لقوى الاستبصار وفي الوقت نفسه تعجز حتى عن العثور على رقم في دليل الهاتف.

أغلب المتطوِّعين الذين تقدّموا إلى مباراة تحدّي الخوارق الملبّوي كانوا من السّدّج أو المُقنّعين ظاهرياً أو غير المُترنّين عقلياً. واضطرّ "راندي" باستمرار إلى تشديد القوانين ليتجنّب إجراء التّحدّي بطريقة قد تسبّب الأذى أو الخطر للمشاركين. فإذا أراد رجلٌ، على سبيل المثال، أن يعرض قدرته على إلقاء نفسه من بناية بعشر طوابق من غير أن يتأدّى، يرفض "راندي" السماح له بالمحاولة.

في جميع الأحوال من المؤكّد أن جائزة التّحدّي هذه غير ضرورية، فلو كنت عرّافة، لو أن لديك قدرات خارقة، فأمامك فرص كثيرة أخرى للثراء. سبق أن أشرت إلى لعبة الرُّوليت، ولدينا غيرها صالات ترفيه نموذجية توفّر مجال ربح واسع في حال امتلاك المرء قدرات خارقة. ومع ذلك، لم أسمع قطّ عن أي حلقة "بوكر" تطرد أحد اللاعبين لأنه مُستبصر. ما يُقلقهم هو الغشّ لا العرّافة.

القدرات الخارقة والخيال. إننا هنا نتكلم على شريكَي فراش قديمين يا سولرن، وقدّمهما هو بلا جدال كقدّم الجنس البشري نفسه. ويبقى مليون "راندي" في الحِفظ والصّون.

إن مَعْقِلَ 'الخوارق' النهائي بالنسبة إلى الكثيرين كان وما زال اختبار ضربات حظّ موفّقة أو مواجهة 'صُدْفٍ عشوائية'، وهو ما وصفه "كارل غوستاف يونغ" بالترّامن. هذا شيء سبق أن ناقشناه في مَعْرِض حديثنا عن اجتماعنا هناك عند اللّسان البحري، علماً بأن اختبار مثل هذه الأمور لا يقتصر علينا وحدنا. فالمرء قد يفكّر في شخص لم يخطر على باله منذ عقود، ثم يتعظف عند زاوية وفجأة يجد نفسه وجهاً لوجه مع ذاك الشخص. والكثير من الناس إذ يختبرون مثل هذه اللقاءات الخاضعة للصُدفة يرون فيها البرهان الحاسم على بُعْدِ خارق للطبيعة. وهذا واردٌ وصحيح: ففي لحظة وقوع صُدفة كهذه يشعر المرء بشيء من التّشوّش وقِلّة الحيلة، وليس في هذا الشعور ما يدعو إلى العجب كثيرًا. ما تطرّقنا إليه قليلاً في بعض رسائلنا الإلكترونية الأولى، وما يسمّيه "يونغ" التّرامن، هو في نظري ليس إلا ما يُدعى الصُدفة الخالصة.

أنت دائماً متيقّن جدًا من كل شيء يا ستاين. وأراك تتجاهل حقيقة أن ليس كلّ ما 'يكون' أو 'يحدث' يمكن بالضرورة إخضاعه للاختبار بالطرائق العلمية. إنني بصراحة لن أستغرب كثيرًا إذا لم يُتَحَ لعلوم هذا العالم إلا عَرْض ما هو من هذا العالم. ألا يسعك أن تدع الآخرين يؤمنون بما يحلو لهم؟ ماذا عن المثل القائل، عيش ودع غيرك يعيش.

طبعاً ينبغي أن تُترك للناس حرية اختيار الإيمان بما يريدون. لكن عندما يعلن أي شخص أن سلطات عليا ما كشفت له الحقائق، لدينا سبب يدعونا إلى إظهار شيء من الارتياب. ولا أظنه يخفى عليك مدى شيوع استشهاد أفراد أو جماعات بمهمة أو دعوة من الله، سواء هي مهمة عدوانية أو حميدة. بينما يكفي غيرهم بالتشكي من سماع 'أصوات' في رؤوسهم ويقصدون طبيباً نفسانياً.

في جميع مراحل التاريخ استخدم الأفراد والشعوب الادعاءات الدائرة حول 'العجائب' و 'المعجزات' لا مجرد التثبث. بمنصب وامتياز، بل أيضاً لتحريض أفعال قمعية ولا إنسانية. نعرف بالتأكيد أن الدين قد يلهم الناس الأعمال الورعة والخيرية والغيرية. إلا أن كلاً من التاريخ والصحف اليومية يبين لنا كيف يمكن إساءة استخدام المفاهيم الدينية. وما يرتكب من أعمال وحشية باسم الآلهة والبطارقة والأسلاف قد لاحق تاريخ الإنسان منذ الأزل.

استطاع السيد المسيح منع جمع من الرجال من رجم امرأة ضبطت وهي تزني. مع ذلك ما زال الرجم مستمراً، وفي بعض البلدان يطلق سراح المغتصب أما الأنثى الضحية فقد يُحكم عليها بالموت رجماً.

مؤخراً، أُعْذِم رجل في بلد من الشرق الأوسط، وزعم من ضمن تهمة أخرى، أنه حاول استخدام السحر ليفرق بين شخصين. وفي البلد نفسه حُكِم على امرأة بقطع رأسها لأنها لجأت إلى السحر لتصيب رجلاً بالعنة. من الشنيع طبعاً أن نجعل رجلاً ما عاجزاً جنسياً. إلا أنه من المناسب هنا دحض التصور الذي يرى أن 'الشعوذة' و 'السحر' ظاهرتان أصيلتان في العالم. نعم، الشر موجود، بيد أنه من المهم في نظري التشديد على أن ما يرتكبه الناس من شر إنما هو من صنع الناس، وليس من صنع الشياطين أو الأرواح الناقمة.

إذا وسّعنا مجال الرؤية، نجد أن الإيمان بالشعوذة، وبالتواصل مع الأسلاف أو الموتى ما زال يُخصّب البشرية، وكذلك الإيمان بكامل

السلسلة السَّماة الظواهر الخارقة. ونجد في بعض أنحاء إفريقية وآسيا وأمريكا اللاتينية أن الاعتقاد بالعرَافة والسَّحر الأسود وتأثير الأسلاف على السلوك الفردي بالغُ التَّفشِّي بحيث إنه يُهَيِّم على حياة ملايين الناس. مع العلم أن تصديق الخرافات واسع الانتشار في الدُّول الصناعية أيضًا. وما زالت قطاعات كبيرة من سُكَّان أوروبا والولايات المتحدة الأميركية تُصِرُّ على الاعتقاد بوجود الأشباح، وباستحواذ الأرواح الشريرة على الإنسان، وبإمكانية التواصل مع الموتى، وكذلك بأكثر الظواهر 'مُتَدُّنًا' مثل قراءة البَخت وتوارد الخواطر والاستبصار.

قلتُ إن المفاهيم الدِّينية يمكن أن "يُساء استخدامها"، إلا أنه يمكن أيضًا أن نجد جذورًا للتَّعذيب والأعمال الوحشية في النماذج الدِّينية نفسها. فالتَّعصُّب الذي يُواجه به بعض الأعداء والزنادقة أو حتى شعوب بحالها ليس بلا سوابق تعود إلى مراجع لاهوتية. وبالنسبة إلى الأصوليين - وهؤلاء يُعْتَر عليهم في شتَّى زوايا العالم - قد يصبح المعيار كلُّ شيء مُدوَّن في الكتب المقدَّسة القديمة والكتب السماوية المُترلة. ولذلك نحن في حاجة إلى نقدٍ ديني مستمرٍّ. وعلى الرغم من أن هذا ما عاد يُمثِّل تهديدًا مباشرًا في مُعظم البُلدان، ما زالت هناك استثناءات كثيرة، وهو أمر يجعل النقد الدِّيني أكثر أهمية.

أنتِ هناك يا سولرن؟

نعم، أحتاجُ إلى أن التَّقَطَّ أنفاسي قبل أن أجيبَ يا ستاين. امنَحني لحظةً فقط.

سأنتظر.

أنا معك في نقطتك الأخيرة، وأنفقُ ثقتائيًا مع شجبتك الآراء المتصلبة والأصولية. وعلى الرغم من أنني أجدُ في الإنجيل الكثير مما يشيعُ في نفسي المَسْرَة ويثير دهشتي، لا أشعرُ أن كل ما فيه من مقاطع لفظية هي من إملاء الرب. وبالنسبة لي يُشكّل إيماني بصعود المسيح أحد النقاط الأساسية.

منذ فترة ليست بطويلة اعتلى نيلز بيتر سلّمه مجدّدًا ووضع طبقة طلاء *ثالثة* على إطار النافذة! في اللحظة الراهنة هو يقطعُ توت العَلِيق. يبدو لي أنه يُبقي عينه على الحديقة لمجرّد أنني جالسة هنا أكتب. في لحظة ما سألني عما أكتبُهُ، فصارحته بالحقيقة. الآن، قلتُ له، أرسلُ رسالة إلكترونية إلى ستاين.

أما زال لديك ما تريد قوله؟ أم أن النقدَ الدّيني انتهى في الوقت الحاضر؟ أعتقدُ أنك قلتَ الكثير. يكفي ربما؟

ما زال لديّ نقطة أخيرة واحدة.

طَيّب، هيا يا ستاين إليّ بها. ليس لدينا رقابة هنا على الأكل.

لا يخفى عليك أن الأديان الموحاة تقوم على فكرة أن الحياة في هذا العالم ليست إلا مجرد محطة انتقالية إلى وجهة سماوية. وتماشياً مع هذه الفكرة، نجدُ أن الظروفَ الموجودة هنا والآن لا تستوفي حقّها من الاهتمام الذي كان من المحتمل أن تحظى به لو انتفى وجود عالم آخر أعظم وأكثر أصالة سيأتي لاحقاً.

ولأني عالم مناخ، لا شيء يجعلني أسأم من تذكير الآخرين باستمرار
بأننا قد لا نحصل على ما نتشبت به إلا هذا الكوكب. لكن الكثير من
الناس يحبون مع فكرة أنه على المدى الطويل لا تُشكّل رعاية كوكبنا
ووسائل الحياة المادية فيه أهمية كبيرة، لأن قضاء الله وخلاص المؤمنين هو في
جميع الأحوال على قاب قوسين أو أدنى. ولذلك لا ضير في النظر إلى علمنا
الدنيوي على أنه مرحلة متوسطة، لا بل هناك فرق من المؤمنين الذين
يتطلعون بتوق إلى انهيار المحيط الحيوي هنا، لأنهم يرونه بشيراً بالأيام
الأخيرة وعودة المسيح. هكذا يُقال في الكتاب المقدس!

بناءً على استطلاع أجري لمصلحة قناة "السي إن إن"، يعتقد ٩٠ بالمئة
من الأميركيين أن النبوءات الواردة في سفر الرؤيا ستتحقق، وأن يوم القيامة
سيأخذ مجراه على نحو ما وصفته هذه الرؤى التنبؤية المعجزة في الخيال.
والأمر لا يتوقف هنا. فثمة الكثير من الوعّاظ والقساوسة الذين يساعدون
على بذور بذور النزاعات الدولية، كي يُسهّموا فعلياً في تعجيل عودة
المسيح. ولا يُستبعد أن يكون لأولئك المسيحيين الأخرى نفوذ عالمي
المستوى في البيت الأبيض، لأنهم، مثل فصيلة من المناجذ (حيوان الخلد)،
يطلعون إلى السطح دائماً في فترات الانتخابات الرئاسية الأميركية.

خوفي من هذه النبوءات الأخرى وأمثالها طفيف، كما تعلمين، وأنا
واثق من أن هذا حالك أيضاً. ما يُرعبني حقاً هو ما ندعوه نبوءات ذاتية
التحقيق. ربما لن يكون هناك جنة وأرض أخرى. ربما لن يكون هناك يوم
حساب أخير فيه فداء للمؤمنين. ربما هذه الأرض هي كل ما لدينا، هي
بيتنا الوحيد ورابطنا الوحيد. في هذه الحالة قد لا يعادل أي شيء في أهميته
أهمية المسؤولية المتوطة بنا باعتبارنا القائمين على رعاية هذا الكوكب وعلى
جميع الأجناس التي عليه.

طبعاً، يقتضي الواجب منا الاعتناء بكوكبنا يا ستاين. ولا أظن أنك من

السُّخْفُ بِحَيْثُ تَلُومُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى التَّدْهَوْرِ الْبَيْئِيِّ. مَا أَتُصَوَّرُهُ شَخْصِيًّا هُوَ أَنَّ الْعَدِيدَ مِنْهُمْ وَقَرَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ يُقَدَّرُونَ الطَّبِيعَةَ أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِنَ الَّذِينَ لَا يَعْتَبِقُونَ أَيَّ مُعْتَقَدٍ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ. أَلَا تَرَى أَنَّ الْاسْتِهْلَاكَ الْمَفْرُطَ وَالطَّائِشَ فِي أَنْحَاءٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْعَالَمِ مَا هُوَ إِلَّا مِنْ مَظَاهِيرِ الْمَادِّيَةِ الْخَامِ؟ النَفِيزُ الْمَتَطَرِّفُ لِلتَّوَجُّهِ الرُّوحِيِّ، إِذَا صَحَّ التَّعْبِيرُ. كُلُّ شَيْءٍ فِي وَقْتِنَا الْحَاضِرِ يُجَزَّ وَيُغَيَّرُ فِي مُحَاوَلَةٍ لِلْعُثُورِ عَلَى طَرَائِقَ لِلْحَدِّ مِنْ تَزَايِدِ غَازَاتِ الْإِحْتِبَاسِ الْحَرَارِيِّ. الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي لَا يَتَجَاسَّرُ أَحَدٌ عَلَى طَرَحِهِ لِلْمُنَاقَشَةِ هُوَ مَا لَدَيْنَا مِنْ إِمْكَانِيَّاتٍ وَفُرُصٍ مُتَاحَةٍ لِتَخْفِيزِ نِسْبَةِ الْاسْتِهْلَاكِ الْجَسِيمِ؛ هَذَا الْكُوكَيْتِلُ الْأَكْثَرُ فَتْكَاً وَالَّذِي لَيْسَ لَهُ مِثِيلٌ فِي التَّارِيخِ، الْمُوَلَّفُ مِنْ سِلْعٍ سَهْلَةِ الْمَتَالِ، مُلَوَّنَةٌ لِلْبَيْئَةِ، وَقَابِلَةٌ لِلرَّمْيِ. إِنَّمَا نَعِيشُ فِي عَهْدٍ تَارِيخِي لَا أَسْتَبْعُدُ أَنْ يَنْتَهِيَ أَحْفَادُنَا إِلَى تَسْمِيَّتِهِ عَصْرَ الْمُسْتَهْلَكِ الْفَاشِسْتِيِّ. وَلَدَيْ قَنَاعَةٍ بِأَنَّ الْمَذْهَبَ الْفِكْرِي الْمَادِّيَّ فِي زَمَانِنَا حُلٌّ إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ مَحَلُّ الدِّينِ.

قَدْ تَكُونِينَ مُحِقَّةً، وَأَنَا أَدْعِيُ لِهَذِهِ النِّقْطَةِ بِرَحَابَةِ صَدْرِي، لِأَنِّي فِي الْوَاقِعِ لَا أَمْلِكُ دَلِيلًا وَاحِدًا لِأَتَسَكَّ بِقَوْلِي إِنْ رَغِبَ الْأَشْخَاصُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْحَيَاةِ الْآخِرَى فِي تَحْمِيلِ مَسْئُولِيَّتِهِمْ تَحَاكُوكُنَا أَقْلٌ مِنْ رَغْبَةِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَهُمْ فِي مُعْتَقَدَاتِهِمْ. إِنَّمَا أَحْذَرُ دَائِمًا مِنْ مَعْبَةِ الْاعْتِمَادِ عَلَى فِكْرَةٍ أَنَّ 'الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ سَتَفْنِيَانِ'، وَأَنَّ هُنَاكَ عَالَمًا جَدِيدًا بِالْإِنْتَظَارِ يَحْمِلُ مَعَهُ الْخَلَاصَ لِلْمُؤْمِنِينَ.

أَرَى يَا سَتَايْنُ أَنَّهُ يَنْبَغِي إِجْرَاءَ بَعْضِ التَّغْيِيرَاتِ فِي الْأَجْوَاءِ عَاجِلًا - مِنْ نَاحِيَّتِي فِي أُنْدَى الْأَحْوَالِ. أَظُنُّ أَنَّ الْكَيْلَ قَدْ طَفَحَ بِالْآخِرِينَ هُنَا مِنْذُ وَقْتٍ لَا بِأَسْ بِهْ بَعْدَ أَنْ عَزَلْتُ نَفْسِي عَنْهُمْ الْيَوْمَ. وَلَا بَدَلِي مِنَ الْإِقْرَارِ بِأَنَّ انْعِزَالِي كَانَ تَقْرِيبًا عَلَنِيًّا وَغَيْرَ مُتَحَفِّظٍ. لَعَلَّ وَصَلَةَ الْكَهْرِبَاءِ الطَّوِيلَةِ مِنَ الْبَيْتِ إِلَى

طاولة الحديقة فيها شيء من المُبالغة. إنه يومنا العائلي الأخير في هذا المكان، وقد مضى عليّ أنا وأنتَ ونحن نتبادلُ الرسائلُ أكثر من ستّ ساعات. قطعناها أنا فقط ببعض المناورات نحو أحواض الزهور وببدي صفيحة الرّيّ إلى أن أسمعَ طنين الحاسوب على الطاولة، حيث أسارعُ إلى إلقاء الصفيحة وأطلقُ عائدةً إلى محطّتي الصغيرة الأنيقة. نيلز بيتر ما عاد ينظرُ إلي مباشرة كلما مرّ بي، وصار يكتفي برشقي بنظرات جانبية.

قمتُ بلفّ الوصلة الكهربائية وأعدتها إلى سقيفة الأدوات. بطارية الحاسوب المحمول شُجِنَت بالكامل، أما وعاء الكرّز ففرّغَ عن آخره.

عليّ أن أصحّح الوضعَ هنا. أعلنتُ أنني سأضطلع وحدي بمهمة تحضير سمك القدّ للعشاء. عاد الفتيان مع ثلاث سمكات قدّ كبيرة في هذا الصباح، وبالكاد نظرتُ - أعني إلى السمك - وفي الوقت نفسه أظنّ أنني الوحيدة التي تعرف عن زجاجة "البرغاندي". واليوم سأجعلها ورقتي الصغيرة الربّحة. أو ربما يجدر بي القول كفارة دنوبي. خبأتُ الزجاجة في درج تحت طبقات من الملاءات للقطنية، على نيّة إخراجها مع وجبة سمك القدّ في أمسيننا الأخيرة.

يحلّو لهما دائماً الذهاب إلى الصيّد في يومنا الأخير، ولا يروقني حمل السمك إلى البلدة حتى مع توافر أكياس حفظ المُنتجات المُربّبة. فأهل "بيرغن" لا يتنقلون هنا وهناك بسياراتهم ومعهم سمك طازج في الأكياس الحافظة. نفضّل أن نقصد السوق ونشتري سمك قدّ حيّ.

ثمّة فكرة تجول في ذهني الآن. ألدّيك مانع في أن تختتمَ جلستنا بإعطائي نبذةً عما حدثَ في افتتاح معرض المناخ الجديد؟

في هذه الأثناء سأضعُ غلاية سلق السمك على النار، وأقشّرُ بضع حبّات من البطاطس المَحَلّية، وأعدّ السَّلطة وأحضّر الطاولة. بعد ذلك أعود لأقرأ

رسالتك. أما أنا فلن أكتب المزيد اليوم.

اتفقنا؟

بعد أن رحلت أنت وزوجك بقيت لفترة من الوقت أروح وأجيء على طول المَرَج الفسيح المقابل للخليج. ثم صعدتُ إلى غرفتي وأخذتُ حماماً قبل أن أنزلَ إلى الصالة. هناك حيَّتُ بعض الضيوف قبل الندوة القصيرة عن ذوبان الجليد والمناخ والبحوث القطبية في "مقهى ميكيل". وبعد كوب من التَّيِّد الأبيض، ومُقدِّمة مُسلِّية عن تاريخ الفندق والبلدة وسياحة الجليد، جلسنا إلى العشاء. شعرتُ في الواقع بالكريم عندما جعلوني أَتصدَّر المائدة. حالما انتهينا من العشاء سعيْتُ إلى طلب كأس "كالفادوس". كنتُ طوال الوقت أفكِّر فيكِ - أو فينا بالأحرى، وفي رحلتنا بالسيارة إلى "نورماندي". أعلموني أنهم ما عادوا يقدِّمون "الكالفادوس". عندئذٍ، بدا لي كما لو أنني تخيلتُ وجوده في السابق، بدا لي كما لو أن أقيبتهم لم تحوِ قطَّ على "براندي تفاح" في أي زمنٍ من الأزمان. فهل خذلتني ذاكرتي؟ وفي حال كانت قضية "الكالفادوس" هذه ناجمة عن خللٍ في ذاكرتي، فكيف لي أن أثقَ بأي شيء آخر خلَّتْ أُنِّي أتذكُّره من تلك الأيام؟ امتنعتُ بإصرار عن "البراندي" الذي جاء تَقْدِمةً من الفندق في هذه المناسبة - أعتقد أن الشَّابَّة صاحبة الفندق سمَّعت من بعض المعارف أنني سألقي كلمةً على الغداء في اليوم التالي - وبدلاً من "البراندي" طلبتُ نصف لتر من الجِعة و "فودكا" على حسابي.

كانت صالة الفندق تَضجُّ بكثير من الأصوات المُفعَّمة بالحوية، فصعدتُ باكِراً إلى غرفتي وأويتُ إلى الفراش. أظنُّ أنني نمتُ على الفور. وليلتي لم تحفل فقط بالجِعة و"الفودكا"، بل قابلتكِ ثانية، وذهبتُ إلى كوخ الراعي، ومررتُ بأجمة البتولا مرَّةً أخرى.

في الصباح التالي استيقظتُ باكراً على صباح النوارس الحادّة، ونزلتُ لأتناول الفطور بينما هم يفتحون أبواب صالة الطعام. في ذلك الصباح أيضاً أخذتُ قهوتي إلى الشرفة. إلا أنك لم تكوني هناك في هذه المرّة. جلستُ على الشرفة وحدي تحت أشعة شمس الصباح وأرهفتُ السَّمْع إلى ورق شجر الزان النحاسي يوشوش الريح. صاحَت النوارس وخفقت بأجنحتها فوق التّعاونية وفوق رصيف ميناء البواخر القديم. وفي الرّفاق البحري لمَحْتُ في زورق تجديف شخصاً يلبس ثياباً خضراً يصطاد السمك. تمرّد شيء في داخلي على جوّ الصباح المفرط في شاعريته.

بعد بضع ساعات اضطررنا إلى متحف الجليد. وهناك أطلّعنا على مُستوى المَضَيّ البحري المُتَوَقَّع في غضون عقود قليلة إذا لم نجد حلاً لمشكلة تغيّر المناخ. ووجدتُني أتساءل ما إذا قد أخذوا بعين الاعتبار كلّ تلك الرواسب التي تُجرّف من الجليد بلا انقطاع، حيث يؤدي هذا إلى زيادة تمُدّد مساحة الدّلّنا وتوسّعها في لسان الخليج. اليوم هم يزرعون البطاطس في المَوْضِع الذي اتّخذَه "الفايكنغ" ميناءً لهم قبل ألف سنة!

عندما وصلنا إلى معرض المناخ وزّعونا إلى مجموعات صغيرة، ودخلنا أولاً إلى مقصورة ضيّقة حيث عشنا وسط الهدير والقعقة تجربة خَلَقَ الأرض قبل ٤,٦ بلايين سنة. وفي القِطَاع الثاني الذي اقتادونا إليه عُرِضَ أماننا ما بدّت عليه الحياة على الأرض قبل ما يُقارب ٤٠ مليون سنة، ثم كيف أثّر العصر الجليدي الأخير على سطحها. بعد ذلك دخلنا إلى غرفة صغيرة حيث أطلّعنا على أسلوب عَمَل الدَّفِئَةِ الطبيعيّة، وكيف تصبح ظروف الحياة على كوكبنا غير مِضيفَة في حال الغياب الكُلّي لمفعول الدَّفِئَةِ. وفي الوقت نفسه بيّنوا لنا فداحة تأثير النتائج الناجمة عن البيوت الرّجّاجية الصناعيّة على توازن الكربون الأصلي. وفي القِطَاع الذي تلاه رأينا ما ستبدو عليه الأرض في سنة ٢٠٤٠ وفي سنة ٢١٠٠ إذا لم نتخذ إجراءات جذريّة الآن لتخفيض انبعاث غازات البيوت الرّجّاجية. وهذه، لم

تكن تجربة تشرح الصدر كثيرا. إنما ولحسن الحظ، أرونا أيضا ما يمكن أن تبدو عليه الأرض في ٢٠٤٠ و ٢١٠٠ إذا نجحنا في توحيد سُكَّان الأرض لِيَتَحَدُّوا تدابير جذرية للحد من انبعاث الغازات وكذلك لوقف كوارث قطع الأشجار وتدمير الغابات الاستوائية. أي أنه ما زال هناك أمل في أن يستعيد هذا الكوكب توازنه. في الغرفة الأخيرة كانوا يعرضون بعض الشرائح الرائعة لمواطن الأرض المختلفة، مع التركيز بشكل خاص على تنويعات كوكبنا البيولوجية. كان "ديفيد اتنبرو" يتولَّى مُهمَّة التعليق. وبعد عَرْضِ صُور مُذهلة لفشات فريدة من النباتات والحيوانات اختتم بقوله، "... لم يَفُت الأوان بعد كي نتصرف ونُجري تغييرات تضمن حياة هذا الكوكب. إنه بيتنا الوحيد..."

لما انتهت مراسم افتتاح المركز الرسمية اقتادونا إلى الحافلات وأخذونا إلى كتلة جليد "سوهيليرين"، حيث هياؤا مُسبقًا المكان لإقامة حفل استقبال في الهواء الطلق، وتضمنَ الحفلُ النيذَ والفراولة والطعام الخفيف. جهَّزَه هناك موظفون من الفندق ونحن بعدُ في متحف الجليد. وسرعان ما لمَحَني مالكةُ الفندق الأنيسة ثانية، وقد بدا واضحًا أنها كانت مشغولة جدًا في الأربع والعشرين ساعة السابقة. وأعتقد أنها عرَفَت منذ البداية أنني هناك بسبب افتتاح معرض المناخ الجديد، وأني سألقي كلمة قصيرة أثناء الغداء في الفندق بعد بضع ساعات.

أقبلت نحوي وعلى وجهها ابتسامة دافئة وودودة، وبطيعة الحال انبرَت تستعلم عنك.

‘أين زوجتك؟’ بادرتني بالسؤال.

لم أستطع تخييب أملها يا سولرن. لم أستطع. ولذلك قلتُ بلا تَلَكُّؤٍ إنك اضطررتَ فجأة إلى مغادرة "فايرلاند" والعودة إلى البيت في "بيرغن" لأسباب عائلية.

‘الأولاد؟’ استفسرت.

‘لا، حالة عجوز،’ كَذَبْتُ.

عندئذٍ، وَقَفْتُ في مكانها لثانيةٍ أو ثانيتين مترددةً: لعلها راحت تتساءل
بينها وبين نفسها إلى أي درجة يَحِقُّ لها الخوض في أمور شخصية.
‘وهل لكما أطفال؟’ سألت أخيراً.

ماذا كان علي أن أقول؟ كنتُ قد انغمستُ في الكذب، ولم أستطع
التراجع والاعتراف بأننا التقينا هناك صدفة، بعد أن لم نَحْظ ولا حتى
بفرصةٍ أن يلمح أحدهما الآخر منذ أكثر من ثلاثين سنة. حاولتُ أن يأتي
ردِّي مُبهماً بقدر ما استطعتُ.

‘أثنان،’ أَحَبْتُ وأنا أهرُّ رأسي. ولا أرى أن ما قُلته بجانب الحقيقة
كثيراً، بالنظر إلى أن لكلٍ منا زوجاً من الأبناء.

غير أنهما لم تكف بهذا القدر: أرادت أن تعرف المزيد عن أبنائنا. ولا
أدري ما دافعها إلى ذلك. فالتزمتُ من تلك اللحظة الحديث عن “بيرغن”.
لم آتِ قطّ على ذكر ابنتي، بل أشرتُ باختصار شديد إلى إنغريد ابنة
التسعة عشر ربيعاً ويوناس ابن الست عشرة سنة - على الرغم من أنهما
معلومات عرفتُها قبل بضع ساعات فقط. ما رأيته هو ضرورة التمسك
بكذبةٍ واحدة، وهناك مثل يقول إن كنتَ كذوباً فكن ذكوراً. باختصار
تظاهرتُ بأنني زوجك.

من المؤكد أنهما قامت بعملية حساب ذهنية سريعة لأنهما ما لبثت أن
هتفت، ‘حقاً؟ إذا أمضيتما بضع سنوات معاً قبل أن تُنجبا؟’

قلتُ في سرِّي أكانَ يَحْدُوكِ الأملُ في أن تسمعي اعترافاً مني بأننا
مهّدا الطريق لطفل هنا في فندق “مُندال” في تلك الفترة الماضية ونحن ما
زلنا بعدُ في ربيعان الشباب؟

راوغتُ وأشرتُ إلى جبل الجليد قائلاً، ‘كان أضخم بكثير في تلك
الأيام.’

هزّت رأسها وضحكت، ولم أعرف سبب ضحكها. ثم قالت، ‘سرّي
أن أراكما ثانية!’

تسارعت الأفكار في رأسي. وأظنّ أنّها تمحّورت حول اختلاف حياتنا وانفصالهما. وفكرتُ أيضًا في رصيف ميناء العبارات في "ريفسنيس"، وسيارتي الشرطة في "لايكائغر"، وأجمة البتولا في "مُندلسدال".
أوماتُ برأسي في اتجاه جبل الجليد ثانية.

أنا في الواقع أكثر قلقًا على جبال الجليد في الهملايا، قلتُ. هناك آلاف منها ينحسر عنها الجليد أيضًا، وهي تُزوّد عديدًا من مئات ملايين الناس بالماء.

وافقتُ على ملء كأسٍ مرّة ثانية، واستندتُ على أعقابي فورًا لأتجنّب اضطراري إلى الردّ على أسئلة أخرى، ثم سلكتُ بضع خطوات نزولاً إلى جانب الجدول الفيروزي. تمشيتُ وفكرتُ في الكتاب الذي حملته إلى غرفتنا في ذلك المساء، والذي اختلستُه لاحقًا وأخذته إلى البيت في "أوسلو". بعد لقائنا مع 'مرأة العنّبة' أصبح ذلك الكتاب السيّف القاطع الذي فصلنا. لو لم تصاد في ذلك الكتاب، لربما بقينا نعيش معًا إلى يومنا هذا. حسنًا، ألا يخطرُ ذلك على بالك؟

كان في وسعنا من غير ريب التعامل مع موضوع 'مرأة العنّبة'. لولا أنكِ ما لبثتِ أن لاعمّتها في غضنّ أيام في سياقٍ أوسع بكثير جدًّا.

خواطرُ متشعبة جدًّا تحتشّد في رأسي الساعة يا ستاين، بيد أنه عليّ الآن إنهاء حوارنا. سأطفيّ الجهاز، وسأكاتيك من "بيرغن" في الأيام القليلة القادمة.

لنا الآن جالسةً إلى مكتبي أمام النافذة في "سكانسن"، أَسْرَحُ النظر عبر "بيرغن". الجوُّ بديع هنا، ويكاد يكون خريفيًا. لاحظتُ مؤخرًا أن الصقورة قد كَسَتْ بعض أوراق الأشجار لأول مرة في هذه السنة، وأن النهار بدأ يميل إلى القِصَر.

أنا في الغرفة التي كنتُ أشغلها في نشأتي وصيائي. ومع أنها غدت غرفة نوم ابنتي إنغريد منذ أن بَلَغَت الثالثة من العمر، استرجعتها بعد انتقال إنغريد قبل بضعة أشهر لنَقِيمٍ مع فتيات أخريات في شَقَّةٍ مُشتركة، وبأشرتُ العمل عليها فورًا. نزعْتُ السجاد القديم الذي يغطي الأرض من الجدار إلى الجدار، لمعتُ البلاط وطلّيتُ الجدران بلونٍ أصفر باهت. أعدتُ تحويل تلك الغرفة إلى عَرَبِيٍّ للصغير ثانية. أدعوها المكتبة، غير أن نيلز بيتر ينظرُ إليها كما لو أنها غرفتي الخاصة، وهذا كرمٌ أخلاق منه.

كان ردُّ فعل إنغريد على ما فعلتهُ مُحِبًّا للغاية. إذ عندما جاءت بصحبة صديقةٍ لتأخذ آخر ما بقي من أغراضها - تركتُ هنا بعض صناديق الملابس وعطّافات الثياب - اندفعتُ تعانقني فجأةً عناقًا حارًا وشكرتني لأنني أعرتُها هذه الغرفة. شكرتني على إعارتها غرفةً شغلَّتها منذ أن كانت في الثالثة! طبعًا عرفتُ دائمًا أنها لطالما كانت غرفة نومي سواء في طفولتي أو في صباي.

عِشْتُ في هذه الشَقَّة طَوَالَ حياتي ما عدا خمس سنوات.

عندما ركبْتُ القطارَ السَّريع في عصر ذلك اليوم، ركبتهُ وأنا أبكي. وهل

تَرَكَ تَعْتَوِدُ أَنَّنِي كُنْتُ أَفْعَلُ شَيْئًا آخَرَ لَمَّا بَلَّغْنَا "هَاجَسْت"؟ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ الْقِطَارُ إِلَى "فِينْسِه" جَلَسَ جَامِعُ التَّذَاكُرِ إِلَى جَانِبِي وَحَاوَلَ التَّخْفِيفَ عَنِّي. لَمْ أَقُلْ كَلِمَةً وَاحِدَةً، وَهُوَ لَمْ يَسْأَلْنِي شَيْئًا، اكْتَفَى فَقَطُ بِالتَّخْفِيفِ عَنِّي. وَبَعْدَ أَنْ تَرَكْنِي لِيَلْوَحَ بِعَلَمِهِ الْأَخْضَرَ فِي "مِرْدَال"، عَادَ مَجْتَدًّا. وَحِينَمَا رَأَى أَنَّنِي مَا زِلْتُ لُبَكِي قَدَّمْ لِي فَتْجَانُ شَاي، لَمْ يَدْفَعْ لِي الشَّاي بِتِلْكَ الْأَكْوَابِ الْوَرَقِيَّةِ لِتَنِي نَشْتَرِيهَا عَادَةً مِنَ الْعَرَبَاتِ، بَلْ بِفَتْجَانٍ لَائِقٍ. بَعْدَئِذٍ، نَجَحْتُ فِي التَّحَامُلِ عَلَى نَفْسِي لَأَرْفَعَ نَظْرِي إِلَيْهِ وَلِبْتَسَم. تَسْنَى لِي أَنْ أَشْكُرَهُ، إِلَّا أَنَّنِي لَمْ أَسْتَطِعْ إِخْبَارَهُ عَنِ الْعَصْرِ الْحَجَرِيِّ.

كُنْتُ فِي طَرِيقِي إِلَى الْبَيْتِ. فِي طَرِيقِي إِلَى أُمِّي وَأَبِي. وَهَذَا هُوَ الشَّيْءُ الْوَحِيدَ الَّذِي بَدَأَ لِي مُؤَكَّدًا آنَ ذَاكَ. لَمْ أَتَكَلَّمْ مَعَهُمَا بِالْهَاتِفِ لِأَعْلِمَهُمَا بِقُدُومِي. لَمْ أَسْتَطِعْ إِعْمَالَ ذَهْنِي فِي مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنَ الْوَصُولِ إِلَى الْبَيْتِ. وَكَانَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَقَبَّلَانِي كَمَا أَنَا.

وَهَكَذَا عُدْتُ إِلَى غُرْفَتِي مِنْ جَدِيدٍ. وَعِنْدَمَا قَابَلْتُ نِيلِزَ بِيْتَرَ بَعْدَ بَضْعِ سَنَوَاتٍ كَانَ أَبِي وَأُمِّي يَوْسَعَانِ بَيْتَ جَدَّتِي الْقَدِيمِ فِي "لِيْتِرْ سُولَا"، الْجَزِيرَةِ الَّتِي فِي لِسَانِ الْخَلِيجِ. وَفِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ بَدَأَ أَبِي 'يَسْتَفِيدُ طَاقَتِهِ' كَمَا عَبَّرَ هُوَ عَنِ الْأَمْرِ، وَفِي النِّهَايَةِ بَاعَ الْوَكَالَةَ. وَأَمَّنَ لَهُ ذَلِكَ مَعِيشَةً مَيَسُورَةً. 'الْحَيَاةُ فِي بِيرْغَنَ جَيِّدَةٌ يَا سُولَرْنُ'، قَالَ يَوْمًا مَتَفَكِّرًا، 'مَعَ ذَلِكَ لَا أَرَى لِلْمَدِينَةِ مَكَانًا يَصْلُحُ لِأَنْ يَمُوتَ فِيهِ الْمَرْءُ'.

عَاشَ هُوَ وَأُمِّي مَا يَزِيدُ عَنْ عِشْرِينَ سَنَةً فِي "كُولْغُرُوف"، وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّهُ مُحِقٌّ فِي مَا قَالَهُ. مَاتَ أَبِي فَجَاءَ بِلَا أَيِّ سَابِقٍ إِذْ بَارَ قَبْلَ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ. حَدَّثَ هَذَا وَهُوَ مُسْتَرْخٍ فِي أَرِيكَتِهِ الْمُجْتَنِّحَةِ وَبِيَدِهِ قَدَحٌ فِيهِ مَشْرُوبٌ، قَدَحٌ قَدِيمٌ مَوْرُوثٌ عَنِ الْعَائِلَةِ، وَقَدْ سَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ وَتَهَشَّمَ فِي طَرَفَةِ عَيْنٍ بَعْدَ مَوْتِهِ. وَكَمَا أَخْبَرْتُكَ تُوفِّيَتْ أُمِّي فِي الشِّتَاءِ الْمَاضِي. لَمْ يَكُنْ لَدَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي. وَقَدْ جَالَسْتُهَا وَأَمْسَكْتُ يَدَهَا فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ.

عِنْدَمَا قَصَدْتُ "أَوْسْلُو" لِلدِّرَاسَةِ، كُنْتُ بِعُمْرِ إِنْغْرِيدَ الْيَوْمِ بِالضَّبْطِ. التَّفَكُّيرُ فِي

هذا يثير في النفس الدهشة. التفكير في أننا كنا جدّ قتيّين!

لأننا التقينا بعد أسبوعين فقط من قدومي إلى المدينة. جرى هذا اللقاء في إثر مُحاضرة في مبنى 'ثاتو نوف' - أردت أن تشعل سيجارتك، وربما اتخذت السيارة عذراً فحسب، إلا أننا من بعد ذلك بقينا متلازمين دائماً. وفي شهر تشرين الأول انتقلنا للعيش معاً في الشقة الصغيرة في 'كرينغشو'. ومرّت علينا أحياناً شعرنا فيها أن زملائنا من الطلبة في الجامعة ينظرون إلينا بعين الحسد. كنا شيئاً متفرداً كل التفرد. كنا سعيدين جداً!

كان من البديهي أن أبكي وأنا على متن القطار. بكيتُ على امتداد طريق عودتي إلى البيت في 'بيرغن'. عجزتُ بأي حال من الأحوال عن استيعاب ما جرى. عرفتُ أن أفكارنا تعارضت فجأة، أما ما استغرق عليّ فهمه فهو لماذا لا نستطيع أن نتابع حياتنا مع هذا التعارض. فنحن في نهاية المطاف لم نكن الرقيقين الوحيديين في العالم اللذين لا تتوافق معتقداتهما. أم تراك من الناس الذين يرون أن شخصاً مؤمناً وآخر غير مؤمن لا يمكنهما الإبقاء على علاقتهما ولا الاستمرار معاً تحت سقف واحد؟

لَكم كرهتُ تلك الكتب يا ستاين. خصوصاً أحدها. لكم لزدريتته، ولكم لزدريتتي لأنني أقرأه. لم تراك ما اتخذت ذلك الموقف إلا لشعورك بالغيرة؟ أولئك اهتمامي كله على مدى خمس سنوات. ما فكرتُ خلالها في أي شيء سواك وسوانا. وبعد لقائنا مع مرأة العنبيّة، وبعد أن شرعتُ أقرأ الكتاب الذي أخذته معي، واعتبرتُ أنني استعرتُهُ من الفنق، بدأتُ في تطوير معتقدٍ ينحو إلى التسليم بوجود حياة أخرى قائمة. أما كان في وسعك على الأقل أن تدعني أحتفظ بذلك الإيمان؟

من أنتَ حقاً؟ أعني من أنتَ اليوم. سألتك عما تعتنّقه من معتقدات، فزودتني بتفسير علمي مُسهب، مثالي في تناغمه مع أخلاقيات الكلية التي تعمل فيها. فانتَ لستَ منشقاً عنها كما يبدو من مجيئك على ذكرِ الزواحف الشبيهة

بالتنبّيات (ثيرانيسيدس) والأسترالوبيثكس إلخ.. إلخ. ثم غدت وطرحت
 للسؤال مرةً أخرى، والجواب الوحيد الذي حصلت عليه كان عن كل ما
 ليس من مُعتقداتك. ومع ذلك لن أستسلم يا ستاين. تعرف ما أنا عليه من
 عناد، وما أريده هو العودة بك إلى النقطة التي بدأنا منها معاً.

قبل أن أقول المزيد عما أؤمن به أنا نفسي، أريدُ الرجوع بك إلى ذلك
 الشعور الجذلي تجاه الحياة الذي ما انفكَّ يَتملّ فينا آنذاك، والذي في الوقت
 نفسه لم يستطع أي منا ربطه ولا بشرارة أملٍ واحدة. إنني أسألك يا ستاين،
 ما العالم؟ ما الإنسان؟ وما فحوى الأسطورة الكونية هذه التي نطفو في
 أرجائها مثل لآلئ سحرية صغيرة من الوعي؟ من النفس والعقل وللروح. ألا
 ترى أن في وسعك استشفاف شعاع أمل واحد للأرواح التي على شاكلتنا؟

مرحباً بك مُجدِّداً يا سولرن!

ألمني بلا شك ما قرأته عن رحلة عودتك إلى "بيرغن".

وتراودني رغبة قوية أيضاً في أن أصبح أصبَحُ أصبتُ في النقطة الأخيرة التي
 وضعت إصبعك عليها. لربما أعطيتك أجوبة ركيكة للأسئلة الجسيمة التي
 طرحت. ستلاحظين أنني على مرّ السنين طوّرتُ قدرًا معيّنًا من النظّر
 المحدود أو ما يُسمى الرؤية التفقيّة بسبب كل ما قمتُ به من بحوث
 ودراسات. على المرء أن يلتزم الحقائق. لا مانع من تقديم النظريات
 والفرضيات، إنما حتى هذه ينبغي لها أن تُبنى على شيء نعتقد أننا نعرف
 عنه.

لعلّ كلمة "المُعتقد" بحدّ ذاتها هي التي تجعلني أنحرفُ عن مساري. إنها
 ليست من مفردات قاموسي. وأجدُّ أن الأسهل لي التحدّث عن الحُسن.
 فما لدي من حُسن هو أكثر مما لدي من مُعتقدات، خصوصاً ربما عندما
 نتكلّم على الوعي.

لَكُتُبٌ عَنْ هَذَا يَا سَتَايْنِ. أَرَى أَنْ كَلِمَةَ الْحَدْسِ جَيِّدَةٌ لَيْضًا. يُمْكِنُكَ عَلَى سَبِيلِ
الْمِثَالِ أَنْ تَرَوِي لِي الْحُلْمَ الَّذِي رَأَوْنَاكَ اللَّيْلَةَ السَّابِقَةَ عَلَى لِقَائِنَا ثَانِيَةً. أَلَمْ
تُخْبِرْنِي بِأَنَّهُ كَانَ حُلْمًا كَوْنِيًّا؟

صَحِيحٌ مَا تَقُولِينَهُ، وَهُوَ مَا زَالَ حَيًّا فِي دَاخِلِي. بَلْ أَشْعُرُ كَمَا لَوْ أَنِّي
اِحْتَبَرْتُ حَقًّا مَا أَخَذَ بِجِرَاهُ فِي ذَلِكَ الْحُلْمِ. نَعَمْ، يَتَهَبَّأُ لِي أَنَّنِي كُنْتُ فِي تِلْكَ
السَّفِينَةِ الْفَضَائِيَّةِ بِالْفِعْلِ..

طَوَيْبٌ يَا سَتَايْنِ، لِنَسْمَعْ تَفَاصِيلَهُ إِذَا.

لَكِنِ الْيَوْمَ السَّابِقَ عَلَى الْحُلْمِ دُمِغَ كُلِّهِ فِي ذَاكِرَتِي، الْيَوْمَ السَّابِقَ عَلَى لِقَائِي
بَلْ. وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَفْصِلَ ذَلِكَ الْيَوْمَ فَصْلًا تَامًا عَنِ الْحُلْمِ الَّذِي رَأَوْنِي
بِسَبَبِهِ، مَعَ أَنِّي لَمْ أَفْعَلْ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّنِي جَلَسْتُ فِي الْقَطَارَاتِ وَالْحَافِلَاتِ
وَجُبْتُ آفَاقَ الْأَرْضِ. لَذَا أَرَى أَنَّهُ يَجْدُرُ بِي حَقًّا الْبَدْءُ مِنْ هُنَاكَ.

لَا أَمَانِعُ أَنْ تَبْدَأَ مِنْ حَيْثُ تَشَاءُ يَا سَتَايْنِ، شَرَطُ الْأَتَهْمِلُ الْحُلْمَ. ثَأْنِي وَخُذْ مَا
تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ وَقْتٍ، فَأَنَا لَنْ تَتَّاحَ لِي الْعُودَةُ إِلَيْكَ قَبْلَ مَسَاءِ الْغَدِ لَعْدَةً أَسْبَابَ.
وَأَهْمُهَا عَدَمُ شَعُورِي بِالْأَرْتِيَاكِ لِلْجُلُوسِ هُنَا وَالْأَنْكِيَابِ عَلَى الْكِتَابَةِ وَنِيلِزِ
بِيْتَرِ فِي الْبَيْتِ. وَلَا أَعْنِي بِهَذَا أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ تَحْمِلُ الْأَمْرِ، بَلْ لِأَنَّنِي لَا أَتَقَبَّلُ
فِكْرَةَ أَنَّهُ قَابِعٌ هُنَا يَسْمَعُنِي أَنْقَرُ عَلَى لَوْحَةِ مِفَاتِيحِ الْحَاسُوبِ. أَنَا بِنَفْسِي لَا
يُرَوِّقُنِي سَمَاعُ نَقْرِ النَّاسِ عَلَى لَوْحَاتِ الْمِفَاتِيحِ هَذِهِ. يَنْتَابِنِي النُّفُورُ عَيْنَهُ الَّذِي
أَشْعُرُ بِهِ كَلَّمَا اضْطَرَرْتُ إِلَى سَمَاعِ مُكَالِمَاتِ النَّاسِ الْهَاتِفِيَّةِ فِي الْحَافِلَاتِ

والقطارات على سبيل المثال، أو عند دربٍ في الغابة. إنه شيءٌ مسبَّبٌ للإحباط والإحراج. ثم إنَّ الغدَّ هو يومُ إعدادِ خُطَطِ المعلمين، وأنا في الحقيقة أتلَّعُ بشوقٍ كبيرٍ إليه، فالبدءُ ثانيةً أمرٌ جيّدٌ.

هذا حَسَنٌ، وما تقترحينه يناسبني، لأنني سأحتاجُ إلى بعض الوقت. ولا أستطيع أن أحدِّدَ لك متى يمكنني العودة إليك.

خُذْ وقتك يا ستاين، فلنا باقيةٌ هنا.

أسمعه الآن يتَّحَنج، لذلك سأسجِّلُ خروجي من البريد الإلكتروني فوراً. أظنُّ أنني سأقترحُ تناولَ قَدَحٍ نبيذ. سأدعوه قَلَنسوةُ النوم، وفقِ مصطلحاتنا العائلية الخاصة.

أشعلُ نارَ المدفأةِ للمرَّةِ الأولى في هذه السنة، ولا ريب في أن جوَّ البيت سيكون مُريحاً.

يوم الثلاثاء ١٧ تموز ٢٠٠٧. استيقظتُ مع انبلاج الفجر على هدير عاصفةٍ رعدية قوية. كان يومًا رماديًا: الغيومُ الرصاصية الثقيلة تُجَلَل "أوسلو". وكان عليّ أن أركبَ القطار إلى "غول"، ثم الحافلة من هناك إلى "ليردال" و "فيارلاند"، وهي رحلة تستغرق تقريبًا تسع ساعات. لم أجد يومًا السفر وحدي بسيارتي، وغالبًا ما فضلتُ اللجوء إلى الثقل العام حيث تُتاح لي فرصة الجلوس والقراءة والاسترخاء كما يحلو لي.

أوصلتني بيريت إلى محطة "ليساكر" ذلك الصباح، لأن عليها في جميع الأحوال الذهاب إلى أبيها ببعض الملابس النظيفة. بقيتُ بضع دقائق على الرصيف بانتظار قدوم قطار "بيرغن" في الساعة ٨,٢١. هناك أيضًا عاد الرعد يقصف قصفاً متقطعاً: كان حقاً صباحاً صيفياً كئيباً. لم يزل المطر، وأثارت الغيوم الفحمية في النفس انطباعاتاً بحلول الليل، وعلى الرغم من تقدّم فترة النهار في ذلك الوقت من السنة لمحتُ البرقَ كلّما خرّق صفحة السماء. وأخيراً أقبلَ قطار "بيرغن" إلى المحطة، وما لبثتُ أن عثرتُ على مقعدي - تحقّقتُ كالعادة وأنا أحجزه من مجاورته للنافذة - كان المقعد رقم ٣٠ في العربة ٥.

سرعان ما أصبحنا في "درامين"، وواصلتُ الرحلة مسيرتها إلى الشمال متتبّعة خطّ نهر "درامنسألفا" باتجاه "فيكرسوئد" و "هونيفوس". بقيتُ مُلءة الغمام منخفضة، ولفّ السّلم مُعظم قمم الأشجار، ولكن مجال الرؤية بدا جيداً تحت مترين أو ثلاثة من السّحب الواطئة. كان النهر يفيض، والماء يحجّب جذوع الأشجار عند حافة خليج "تيري" أيضاً، وغمر الماء كذلك بعض محطات السفن. هكذا حدثَ عدّة مرّات في هذا الصيف، صيف لا ريب في أن الكثير من المزارعين يعتبره فاجعاً، لأن أضرار

الفيضانات شملت مناطق واسعة من البلاد، خصوصاً على امتداد نهر "درامنسألفا"، ما أدى إلى تَلَفٍ مجموعات كبيرة من المحاصيل.

منذ اللحظة الأولى التي جلستُ فيها هناك وحدثني في حالة تركيز عميق، ولا أعرف إن كان لهذا علاقة بالمناخ السائد. شعرتُ فجأة بأنني أكثر تنبهاً من المعتاد، وتقريباً أحدُ بصيرةٍ من أي وقت مضى. شعرتُ بأنني حاضِر بقوةٍ في العربة المطلية بالأصفر فيما القطار يسارع إلى شقِّ طريقه وسط الأرض التي حطَّ عليها السَّلم. وسألتُ نفسي، ما الوَعي؟ ما الذاكرة، وما التدبُّر؟ ما ماهية أن 'تذكُر' أو 'نَسَى' شيئاً؟ ما معنى أن أجلسَ هنا هكذا وأفكر، وأفكر في ما معنى أن أفكر؟ والأهم من ذلك كله، هل الوَعي صُدفة كَوْنِيَّة؟ هل هو من قبيل الصُدفة الخالصة فَحَسْبُ أن يمتلك الكَوْنُ حالياً وعياً بذاته وبتطوُّره؟ أم أن الوَعي خاصِّية أصيلة لطبيعة هذا الكَوْن؟

إنما لستَ المرَّة الأولى التي أنسأقُ فيها إلى التأمل ملياً في هذا السؤال الجوهري والفطري. بل أحياناً طرَحْتُ السؤال نفسه على علماء الأحياء وعلماء الفيزياء الفلكية. وعادةً، يظهر ردُّ فعلهم الأوَّلِي في مواجهتي برفضٍ منطقيَّة السؤال أو التحفظ تجاهه. وغالباً ما بدوا مُخرَجين نيابة عني، بل لظالماً اعتبرَ العديد منهم أن طرَحي أسئلة من هذا النوع - حتى بصفتي عالِماً - إنما هي سذاجة لا تُعْتَفَر. وفي حال ألححتُ في السؤال مشدداً على أنني لا أَسْعَى إلا إلى إجابة حَديثية، أتااني الجواب مؤيِّداً عموماً. نعم، يقولون مؤكِّدين، الوَعي بوصفه ظاهرة ليس أكثر من صُدفة كَوْنِيَّة.

ليس لدى الكون نِيَّة كَامِنَة ولا هدف ولا جوهر، وهذا عموماً يُنظَر إليه على أنه من الافتراضات البديهية أو المُسلَّمات. أما نشوء الحياة هنا، وتطوُّير المُحيط الحيوي بعدئذٍ لِمَا تُسمِّيه 'آلئ' سحرية من الوَعي، فلا يتعدَّى كَوْنه نتيجة صُدفةٍ خالصة. أو كما عبَّرَ عنه البيولوجي الفرنسي

الحائز علي جائزة نوبل "جاك مونو" بقوله: 'لم يكن الكون ينبض بالحياة، ولا المحيط الحيوي بالبشرية. نحن مجرد رقم جاء صدفة، مثل أي رقم على مائدة قمار في مونت كارلو.'

يرفض "مونو" تصنيف الحياة باعتبارها ظاهرة كونية مهمة أو ضرورية في الكلمات التالية: 'أشدُّ على أن المحيط الحيوي لا يشتمل على فئة موجودات أو فئة ظواهر يمكن التنبؤ بها واستخلاصها من المبادئ الأولية، لكنه يشكل في مجموعه حادثة خاصة، حادثة مع أنها متوافقة حكمًا مع هذه المبادئ ويمكن تفسيرها من خلالها، يتعذر استنباطها منها، وبالتالي لا يمكن التنبؤ بها إجمالاً.'

هذه إفاضة مفيدة. وللمرء بلا شك أن يأخذ جزم "مونو" القاطع بمدلوله الظاهري - مع أنه سيكون من الصعب أن نشير إلى أي مثال يُثبت دقته. ولا بد من أن عبارة 'لا يمكن التنبؤ بها' في هذا السياق تعني أن الظواهر التي نشير إليها فردية جدًا - وبالتالي محلّية جدًا - بحيث إنها تقف إلى حد كبير على تخوم القوانين الطبيعية.

وهذا ليس نهجي الفكري في الحقيقة. فأننا، حتى منذ أيامنا معًا يا سولرن لطالما تملكنا شعور حدسي بأن الخاصية الأقرب إلى طبيعة العالم هي القول بنشوء الحياة والوعي هنا. أي ربما هناك منشق في داخلي على الرغم من كل شيء، إن لم يكن بصفتي واحدًا من الذين يشغلون هذا العالم، فعلى الأقل بصفتي باحثًا في كُلية الرياضيات وعلوم الطبيعة. أغلب الفلكيين والفيزيائيين والبيولوجيين الذين قابلت يُصرون في الواقع على شيء مناقض: لا يمكن تعقب الحياة ولا الوعي باعتبارهما ناتجًا 'أساسيًا' أو 'ضروريًا' في الحالة البدائية الهامدة.

يبدو في الحقيقة أن النموذج المعرفي للعلم الحديث بحد ذاته يفترض أن الذرات والجسيمات دون الذرية - أي النجوم والمجرات - والمادة المظلمة

والثقوب السوداء هي سمات أساسية دالة على واقعية الكون أكثر من الحياة والوعي، اللذين، وفقاً لهذا النوع من العلم الاختزالي، لا يمثلان أي شيء أكثر من صدفة عشوائية محض، وهما بالتالي ليسا مظاهر مهمة للطبيعة. ما يعني أن ظهور النجوم والكواكب هو النتيجة المباشرة والضرورية للانفجار العظيم. أما ظهور الحياة والوعي التكميلي فهو لم يحصل بمقتضى أي شيء آخر، ولا يتعدى أن يكون ناجماً عن صدفة خالصة، حادث عرضي مروع، شذوذ كوني.

كنتُ مُبحِراً في هذا النوع من الأفكار عندما دخلَ القطار محطة "هونيفوس". ظهرت رسالة على شاشة صغيرة فوق الباب عند نهاية العربّة تقول: هونيفوس ٩٦ متراً فوق مستوى البحر. وفي المحطة اندفع مسافران إلى الخارج وأشعلا سيجارتيهما.

لم تكن الدنيا تُمطر، غير أن السماء رَحِمَتْ متاثلةً على مشارف الأرض مُهددةً بالانفجار في أي لحظة. ثم تصاعد صوت صفارة، وتحرك القطار ماراً بحقول صفراء وخضراء من جهة، وبسفوح تلال مُشجرة من الجهة الأخرى. وفوق أشجار الصنوبر تدافعت دُفءٌ داكنة من السحب. حاولتُ أن أستحضر في ذهني كيف بدأ كل شيء. حاولتُ أن أستحضر في ذهني تاريخ الكون.

ولدت الكواركات (الكوارك هو أصغر جسم معروف في بناء المادة، وأحد المكونين الأساسيين فيها) البروتونات والنيوترونات بعد بضع ميكروثوانٍ من الانفجار الكبير. وتلاها في غضون فترة لا تكاد تُذكر ظهور نوى الهيدروجين ونوى الهليوم. أما الذرات الصحيحة ذات التوزيع الإلكتروني المُكتمل فلم تتطور إلا بعد مئات آلاف السنوات، وبقيت مُقتصرة تقريباً على الهيدروجين والهليوم، وهذه الذرات الأثقل 'خُبِزَتْ' على الأرجح أو

‘طُهِيتْ مَعًا’ فِي جِيلِ النُجُومِ الْأَوَّلِ، وَمِنْذَ ذَلِكَ الْحِينِ فَصَاعِدًا انْتَشَرَتْ لُتْخَصَّبَ الْكُونِ. نَعَمْ ‘تُخَصَّبُ’، وَاخْتِيَارِي الْمُتَعَمِّدَ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ يُنْبِئُ عَنِ انْخِيازي الصَّرِيحِ. مَعَ الذَّرَّاتِ الْأَثْقَلِ نَبْدًا طَبْعًا فِي الْاقْتِرَابِ مِنْ يَنْبُوعِ كُلِّ مِنَ الْحَيَاةِ وَأَنْفُسِنَا، لِأَنَّا مُؤَلَّفُونَ مِنْ تِلْكَ الذَّرَّاتِ، مِثْلُنَا مِثْلَ الْكَوْكَبِ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ.

لَا يَوْجَدُ أَيُّ شَيْءٍ عَمَلِيٍّ أَوْ خُصُوصِيٍّ يَتَعَلَّقُ بِكُلِّ ‘ذَرَّاتِنَا’ أَوْ بِقُدْرَتِهَا عَلَى الْانصِصَارِ. فَالذَّرَّاتُ الَّتِي تَتَأَلَّفُ مِنْهَا مَوْجُودَةٌ فِي جَمِيعِ أَرْجَاءِ الْكُونِ. وَلِذَا يَنْبَغِي حَتْمًا الْقَوْلَ إِنَّهَا مِنْ أَسَاسِيَّاتِ طَبِيعَةِ هَذَا الْكُونِ. وَبِقُدْرٍ مَا مَكَّنَتْنَا فِيزِيَاءَ الْجَسِيمَاتِ - وَتُدْعَى أَيْضًا فِيزِيَاءَ الطَّاقَةِ الْعَالِيَةِ - مُؤَخَّرًا مِنْ تَشْكِيلِ فِكْرَةٍ عَنِ دَقَائِقِ الْكُونِ الْأَوَّلِي، لَا رَيْبَ فِي أَنَّهَا قَادِرَةٌ أَيْضًا عَلَى أَنْ تَفْسِّرَ لَنَا بِدَقَّةٍ لِمَاذَا يَتَحَتَّمُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الذَّرَّاتُ جُزْءًا مِنَ الْمُرَكَّبَاتِ الْكِيمِيَاءِيَّةِ الَّتِي تُسَمِّيْهَا جُزْئَاتٍ.

أَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَتَأَلَّفُ مِنْهَا الْحَيَاةُ كُلَّهَا وَالَّتِي نَسَمِّيْهَا الْجُزْئَاتِ الْعِمْلَاقَةِ، فَهِيَ أَكْثَرُ تَعْقِيدًا، وَلَكِنهَا بِالْمُقَايِسِ الْكُونِيَّةِ أُنْدَرُ بِكَثِيرٍ. فَالْجُزْئَاتِ الْعِمْلَاقَةِ جَذَرِيَّةٌ لْجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ عَلَى كَوْكَبِنَا، وَذَلِكَ مِثْلَ الْبَرُوتِينَاتِ وَالْأَحْمَاضِ النَّوَوِيَّةِ ذَاتِيَّةِ التَّكَاثُرِ "الَّذِي إِنْ إِي" وَ "الْأَرِ إِنْ إِي"، وَهِيَ الْأَحْمَاضُ الَّتِي تَضْبِطُ تَشَكُّلَ الْبَرُوتِينَاتِ وَتَوْجُدَ فِي الْمَادَّةِ الْوَرَائِيَّةِ لِكُلِّ كَائِنٍ حَيٍّ. وَالْعَامِلُ الْمَشْتَرَكُ بَيْنَ جَمِيعِ أَشْكَالِ الْحَيَاةِ عَلَى الْأَرْضِ هُوَ أَنَّهَا مَكُونَةٌ مِنْ مُرَكَّبَاتِ الْكَرْبُونِ وَتِلْكَ الطَّاقَةِ (الشَّمْسِ)، مِنْ غَيْرِ أَنْ نَغْفَلَ مَا لِلْمَاءِ الْجَارِي مِنْ دَوْرٍ حَاسِمٍ.

مَا عَادَ التَّسَاوُلُ عَنْ كَيْفِيَّةِ تَكُونِ جُزْئَاتِ الْحَيَاةِ الْعِمْلَاقَةِ عَلَى الْأَرْضِ قَبْلَ مَا يَفُوقُ أَرْبَعَةَ بِلَايِينَ سَنَةٍ مُحَاطًا بِكَثِيرٍ مِنَ الْغَمُوضِ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ بَقَاءِ بَعْضِ الْأَلْغَازِ الصَّغِيرَةِ، اسْتَطَاعَتِ الْكِيمِيَاءُ الْحَيَوِيَّةُ أَنْ تُرِينَا نَظَرِيًّا وَعَنْ طَرِيقِ التَّجَرُّبَةِ الْعَمَلِيَّةِ أَيْضًا كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ أَسُسُ الْحَيَاةِ الْأَوَّلِيَّةِ قَدْ

تشكّلت على كوكبنا الفتية في جو خال تمامًا من الأوكسجين. وأنه فقط، بعد عملية التمثيل الضوئي في النبات، اكتسب هذا الكوكب غلافًا جويًا غنيًا بالأوكسجين، إضافة إلى طبقة الأوزون التي حمت الحياة عليه من الطاقة الكونية المشعّة.

بقدر ما يرى العلم أنه مؤهل ليفسر كيف بدأت الحياة على الأرض - من خلطة جزئيات عملاقة بدائية على سبيل المثال، أي من موادّ الحياة الأولية - يعترف في الوقت نفسه بأن تطوّر الحياة في خلطة بدائية كذلك ممكن. فكلّ ما يحدث في الطبيعة يحدث لسبب ما. وما دام الأمر كذلك، فلماذا لا يكون هذا هو الحال أيضًا مع خلق الحياة؟

نعرف اليوم أن الكثير من لبنات أو أسس الحياة الأولية يمكن إنتاجها صناعيًا من مركّبات كيميائية غير معقّدة. فالتمييز الصارم بين ما كان يُسمّى كيمياء عضوية وكيمياء غير عضوية ما عاد له وجود. ثم إن الجزئيات التي تُشكّل الحياة اكتشفت في الفضاء أيضًا. وفي فترة قريبة جدًا تبين أن المركّبات العضوية مثل الكحول وحمض التّملك موجودة في السّلم البينجمي (بين النجوم). ومؤخرًا أيضًا، ثبت وجود حمض الفليسبين الأميني في الفضاء، حيث اكتشفت هذه الجزئيات في ذبول المذنبات وفي المَحَرّات التي تبعد بلايين السنوات الضوئية عن دَرَب التّبانة. ونحن نعلم أن الكيمياء الفلكية هي من فروع العلم التي ما زالت في مراحلها الأولى.

قد لا تكون الحياة - أو جزئيات الحياة على كوكبنا - قد تشكّلت هنا بالضرورة. وربما جاءتا كليهما من الفضاء الخارجي إلى هنا بواسطة مُذتّب على سبيل المثال. بل في الحقيقة ثمة ما يرجّح أن يكون مُعظم ماء كوكبنا قد جُلِبَ إليه عن طريق أحد المذنبات. وماء كذاك لم يكن بالضرورة 'نقيًا'، ناهيك عن كونه مُعقّمًا.

كنتُ جالسًا في عالم الواقع الخُصّ تاريخ الكون. الأمور التي أخذت مجراها فيه مميزة، ومميّز أيضًا أن يتاح لي الجلوس حيث أنا وأقوم مؤقتًا بأداء

دَوْرَ ذَاكِرَةِ هَذِهِ الْحِكَايَةِ الْإِسْتِثْنَائِيَّةِ. كُنْتُ لِحُسْنِ حِظِّي أَجْلِسُ مَعَ اتِّجَاهِ
الرَّحْلَةِ - أَنَا عَادَةً أَطْلُبُ هَذَا عِنْدَمَا أَحْجَزُ مَقْعَدًا - وَلِبَرِّهِةٍ سَرَّحْتُ نَظْرِي
فِي بَحِيرَةِ "كِرودِيرين" عَنْ يَسَارِي. فَوْقَ تِلْكَ الْبَحِيرَةِ تَدَلَّتْ قِطْعُ الْقِمَامِ
الصُّوفِيَةِ كَأَنَّهَا مَنَاطِيدُ "زَبْلَن" الْهَائِلَةِ، وَمِنْ فَوْقَ تِلْكَ الْمَنَاطِيدِ انْعَكَسَتْ فِي
الْمِيَاهِ السَّمَاءُ الْمُكْهَفَرَةُ الْمَظْلِمَةُ جَاعِلَةً "كِرودِيرين" مُوحِشَةً وَمُعْتَمَةً مِثْلَ
حَالِهَا فِي الْخَرِيفِ. وَلَمْ يَسْقُطِ الْمَطَرُ.

إِنْ عَالَمُنَا فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، هُوَ الْمَكَانُ الْوَحِيدُ فِي الْكَوْنِ بِأَسْرِهِ الَّذِي
نَعْرِفُ مِنْهُ عَلَى وَجْهِ الْبَقِيَّةِ أَنَّ الْحَيَاةَ كَائِنَةٌ. وَأَوَّلُ دَلِيلٍ عَلَى وَجُودِ
كَوَاكِبٍ خَارِجٍ نِظَامِنَا الشَّمْسِيِّ لَمْ يَظْهَرِ إِلَّا قَبْلَ بَضْعِ سِنَوَاتٍ فَقَطْ. وَيَعُودُ
سَبَبُ تَأَخُّرِ هَذَا الْاِكْتِشَافِ إِلَى عَجْزِ التَّقْنِيَّاتِ السَّابِقَةِ عَنْ رَصْدِ الْكَوَاكِبِ
الوَاقِعَةِ خَارِجَ الْمَجْمُوعَةِ الشَّمْسِيَّةِ. ثُمَّ فِي غُضُونِ سِنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ اسْتَطَعْنَا
تَحْدِيدَ مَوَاقِعِ بَضْعِ مِائَاتِ الْكَوَاكِبِ فِي الْفَضَاءِ، وَيُقَدَّرُ الْعُلَمَاءُ الْآنَ أَنَّ هُنَاكَ
كَوَاكِبَ تَدُورُ عَلَى أَقْلٍ تَقْدِيرٍ حَوْلَ رُبْعِ النُّجُومِ الَّتِي تُشَبِّهُ الشَّمْسَ فِي
مَجَرَّةِ دَرَبِ التَّيَّانَةِ.

إِذَا سُئِلَ الْفَلَاحِيُّ الْيَوْمَ مَا إِذَا كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِوُجُودِ الْحَيَاةِ عَلَى
الْكَوَاكِبِ الْآخَرَى فِي الْكَوْنِ، سَتَحْيِبُ غَالِبِيَّتُهُمْ بِنَعَمٍ. فَاتَّسَاعَ الْكَوْنُ
الشَّاسِعِ الَّذِي يَفُوقُ التَّصَوُّرَ يَحْتَمُّ أَنْ يَكُونَ مَا حَدَثَ هُنَا فِي بَاحْتِنَا الصَّغِيرَةِ
قَدْ اسْتَنْسَخَ فِي أَمَاكِنَ أُخْرَى كَثِيرَةٍ. أَوْ هَكَذَا سَيَقُولُونَ. أَمَّا مَا يُحِيرُ فِي
هَذَا السِّيَاقِ فَيَتَحَلَّى فِي أَنْ الْكَثِيرَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْفَلَاحِيِّينَ أَنْفُسَهُمْ، مَا زَالُوا بَلَا
أَيَّ تَرَدُّدٍ رَاغِبِينَ فِي أَنْ يُدْرَجُوا أَنْفُسَهُمْ فِي مَذْهَبِ "مُونُو" الْمَعْرُوفِ الَّذِي
يَنْصُ عَلَى أَنَّ الْكَوْنَ لَمْ يَكُنْ "يَنْبُضُ" بِالْحَيَاةِ. وَلَوْ صَحَّ هَذَا، لَوْ لَمْ يَكُنْ
الْكَوْنَ يَنْبُضُ بِالْحَيَاةِ، فَمَا هِيَ الْعِلَاقَةُ الَّتِي رَبَطَتْ هَذَا الْكَوْنَ بِأَكْثَرِ مَتْنَجَاتِهِ
تَمِيزًا؟

فِي حِينِ تَقَادُفَتْنَا قَبْلَ عَقُودٍ قَلِيلَةٍ أَفْكَارٌ خَيَالِيَّةٌ عَنْ وَجُودِ حَيَاةٍ خَارِجٍ

كوكب الأرض، يركّز علماء الأحياء الفلكية حاليًا على البحث عن الماء. ففرضية الكيمياء الحيوية القائلة إنه حيث يوجد ماء حيّ، يمكن أيضًا توفّر العثور على الحياة، تُؤخَذ الآن بعين الاعتبار أكثر فأكثر. في الحقيقة، قد يبدو من المذهل أكثر أن نعثر في يومٍ على كوكب صغير خصب فيه بُحيرات جميلة وماء جارٍ، ونكتشف، على العكس من الفرضية السابقة، أنه لم تنشأ فيه حياة.

ما نستنتجه من هذا هو أن الموادّ الأساسية شمولية، ويمكن استنباطها مباشرةً من 'المبادئ الأولى'. أما الجزئيات المعقّدة أو الجزئيات العملاقة فهي أندر بكثير. إلا أن نُذرَها لا تعني أنها بأي حال أقلّ شمولية.

هكذا تدافعت أفكارِي. ومع أن سلسلة الأفكار التي خُصّتها تميّزت بامتداد طولي كليًا، كانت أيضًا منطقية جدًا. وربما كنتُ الإنسان الوحيد في أنحاء كوكبنا كافة الذي قعد يَلْبُ النظر في وُجْهِه أو تنويره آنذاك. ومن يدري، ربما كنتُ الوحيد الذي فعلَ هذا في الكون بأسره آنذاك. وإن صَحَّ ذلك فلا ريب في أنني كنتُ جالسًا في عربة القطار الصفراء أستمع بامتياز هائل.

بدأ المطرُ ينهمرُ قبل دخولنا "نيسين". وفوق الباب الرابط بين العربات كُتِبَ بحروفٍ بيضاء على الشاشة الزرقاء: : نيسين الرّصيف إلى اليسار، ١٦٨ مترًا فوق مستوى البحر. وبعد أن تلقينا إشارة الخروج من المحطة. أهلاً بكم معنا في رحلتنا إلى بيرغن. تبعها رسالة أخرى مَرِحَة: نرحّبُ بكم في المقهى. قائمة طعام ممتازة. وجبات خفيفة وعشاء وحلوى.

ترامتُ أطرافُ الغابة على جانبي القطار ما بين "نيسين" و "غول". جلستُ أتأملُ النهر عن يميني. وبين حين وآخر وقّعت عيني على بعض المزارع. في هذه الأثناء كانت السُحب الضبابية مستقرّة في قعر الوادي، وبدا المشهد كما لو أن مَنَاطيد "زبلن" تستعدُّ للهبوط.

هناك شيء في عِلْمِ الكَوْنِ الفيزيائي أو الكوزمولوجيا يُسمَّى المبدأ الكوزمولوجي، وينصُّ على أن الكَوْنَ يَعْرِضُ الخصائص نفسها أينما ذهب المرء. وهذا يؤدي إلى القول إن الكون موَّحد الخواصِّ أو مُتجانس ومتماثل، ما دام المقياس أو النِّطاق واسعاً كفاية.

ما المانع إذاً من أن يُطبَّق هذا المبدأ على سؤالنا أيضاً: هل يمكن أن نترقَّب اكتشاف حياة مُنتشرة عبر الكون مثلما نكتشف الكواكب والنجوم والمجرَّات؟ أم لا يمكن ذلك، لأن الوجود الذي نُطلِّق عليه مُصطلح الحياة هو شيء تصادف حدوثه هنا فحسب؟

يحتوي الكون على شيء في حدود بضع مئات بلايين المجرَّات، وفي نطاق كل واحدة منها مئات بلايين النجوم. وبعبارة أقلَّ تعقيداً، هذا يعني أن لدينا وفرّة من المصانع الكيميائية. ما أقصدهُ هنا، هو أن الفرصة قد أُتيحت لنا لنضع عدداً لا يُحصى من الرقائق على مائدة قمار مونتّي كارلو تلك! وهذا يُقوِّضُ جانباً من أساس القاعدة التي تُقول إن أي حَظَّ سعيد مُحتمَل الحدوث هو 'وليد الصدفة'.

لا جدال في أن فوزَ مُقامِر كبير بمبلغ مالي ضخم أحياناً ليس وليد الصدفة. بل إن فوزَه من حين لآخر يُعتَبَر نموذجياً وفُقْ نظرية الاحتمالات. وإذا حدث أن التقينا عَرَضاً أشخاصاً يتَّبَحِّحون بفوزهم المنتظم في اليانصيب أو في حلِّيات السباق، قد نسأل أحياناً عن مجموع عدد المرات التي راهن فيها أولئك الفائزون المَحْظوظون. وهنا سَنَجِدُ أن السؤال لا يُقابَل دائماً بالترحاب.

بالرَّجوع في الحديث إلى الوَعي، إذا ألقينا نظرةً على مُحيطنا الحيوي، لا مَحَالَ لأنْ نُنكِرَ أن الأنظِمة العَصْبيّة للكائنات العُضويّة وأجهزتها الحِسِّيّة كانت تتفاعل مع المُعِيطِ الحيوي. فالْبَصْرُ، على سبيل المثال، تطوَّر عشرات وعشرات المرات في كوكبنا من غير وجود وصلة وراثية ما هناك. وبناءً على هذا، من المُمكن أن نتوقَّع شيئاً مثل أن تكون الكائنات الحيّة

الأرقى في كواكب أخرى قد طوّرت هي أيضاً حاسة بصر من نوع ما. والسبب واضح: في أي محيط حيوي لا بدّ من توافر ميزة تطورية لبتاح للكائن الحيّ التّأقلم مع بيئته، سواء هي تضاريس قاسية أو أعداء أو فرائس. وحيث يوجد تكاثر جنسي، لا بدّ أيضاً من أن يحظى بالحرية التي تؤهله لاختيار الشريك المناسب. وكذلك ستكون حواسّ أخرى تكملية فعّالة في الصراع من أجل البقاء في الكواكب الأخرى، مثل السَّمْع ونحريّ مواقع الصدى، والقدرة على الشعور بالألم، والتذوّق، والشمّ، وربما أيضاً بعض الحواسّ العجيبة التي ليست مألوفة لنا هنا.

وسيتّاج كل فرد من الكائنات الحيّة الأكثر رقيّاً إلى مركز قيادة فعّال أو 'دماغ' لينسّق مداركه الحسيّة. مرّة أخرى، لدينا هنا في كوكبنا أمثلة تبين كيف طوّرت أنواع مختلفة من الحيوانات، مستقلة كلّ منها عن الأخرى، أجهزة عصبية ذات طبيعة أكثر أو أقلّ تعقيداً وتشابكاً. ما يثير الاهتمام في هذا المقام الإشارة إلى أن الباحثين في طبّ الجهاز العصبي درسوا نسيج الأخطبوط العصبي من أجل أن يتوسّعوا أكثر في فهم نظام الإنسان العصبي.

وهكذا، تماشيّاً مع نظريتنا القائلة إن الحياة ظاهرة كونيّة الانتشار، في وسعنا قول الأمر نفسه عن تطوّر الجهاز العصبي والدماغ.

غول، ٢٠٧ أمتار فوق مستوى البحر. للممتّ أشياء المولقة من سُرّة وحفية ظهر صغيرة. المحطة القادمة غول، الرّصيف عن اليمين.

لم يمض وقت طويل إلا ووجدت نفسي أقف تحت رذاذ المطر الخفيف في الخارج. وحالما ركبْتُ حافلة محليّة إلى محطة حافلات "غول" شغلتُ "الجي بي إس" (نظام تحديد المواقع عالمياً) وأجريتُ اتصالاً بأحد الأقمار الصناعية. أشار الوقت إلى ١١،١٩ وكان موقعي ٦٠ درجة، ٤٢ دقيقة، ٦ ثواني شمالاً؛ و ٠٨ درجات، ٥٦ دقيقة، ٣١ ثانية شرقاً؛ احتمال الخطأ +/- ٢٠ قدماً. شروق الشمس ٠٤،٢١، الغروب ٢٢،٣٨، لكن الجو كان غائماً

وثمة مطر خفيف. طلوع القمر ١١، ٠٨، أقول القمر ٢٣، ٢٣، إنما حتى لو كان يوماً صيفياً صافياً، لما استطعتُ إلا بصعوبة رؤية القمر في السماء. وأعطاني "الجي بي إس" توقعات صيد السمك والفنص التالية: يوم ضمن المعدل. أوه.. لا بأس...

جلستُ في محطة الحافلات بعد أن طلبتُ فنجان قهوة وشطيرة بالجنينة والفلفل الأحمر. كنتُ على حالي السابق من الاستغراق في التفكير، التفكير الكوني، وبالكاد شعرتُ بوجودي هناك، مع أن الزمام أفلتَ مني فتشتتُ أفكاري لبضع لحظات حينما تبادلتُ أنا وامرأة تصعُرني بسنوات نظرات إعجاب مثيرة للدهشة. وراودتني فكرة سخيفة مُفادها أنها ربما ظننتني أصغر بعشر سنوات مما أنا عليه في الواقع.

في "غول"، على الطريق الرئيسي الوحيد عبر مركز البلدة، هطل المطر بغزارة. هذا وَضْعِي، إذا صَحَّ القول، في إطار أجواء فكرية أعمق من السابق. أخذتُ استراحة قصيرة من استفساراتي الفكرية عن الأساسيات وكتبتُ رؤوس أقلام المحاضرة التي سألقبها على الغداء بعد أيام قلائل. ولم تُخالجني حتماً أي فكرة في أنني أنا وأنتِ سنتلقي مجدداً قبل تلك المحاضرة، مع أنه لا داعي إلى الإشارة إلى أن ذاكرتي عادت في "غول" تُلْقائياً إلى زمن مرورنا بهذا الريف بسيارة الفولكسفاغن الحمراء ونحن في طريقنا إلى جبل الجليد في الغرب.

حظيتُ باستراحة غداء طويلة، لأن حافلة "غول" لم تغادر إلا في ١٣، ٢٠. ولم نلبث أن اخترقنا السُّلم بعد وقت قصير في طريق صعودنا إلى "هيمسيدال". تَضَمَّنَت تلك الحافلة أيضاً شاشة عَرْض. كانت الحرارة في الخارج ١٤ درجة، وأنداك بدأ السُّلم ينقَشع قليلاً.

وفقاً لما يشهدُ عليه كوكبنا نَعْلَمُ أن امتلاك دِماغ وجهاز عصبي بعيد كل البعد عما نُسميه 'الوعي'، بل هو أكثر بُعداً فيما لو عَنِينَا بهذا أي شيء

يُضاهي بأهميته أهمية قُدرة المرء على التفكير ملياً في حيزه من الوجود، لا بالنسبة إلى موضع سُكناه ولكن بالنسبة إلى الكَوْن، ناهيك عن وجوده في عالم الواقع. من ناحية أخرى نعرف أنه حالما وقفت الفقرات على ساقين وحررت أوصالها الأمامية - لصناعة الأدوات مثلاً - ظهرت لديها ميزة حاسمة تجلّت في قابليتها على تعلّم بعض الخدع المفيدة، والتحلّي بالقُدرة على مشاركة تقنيات البقاء مع أعضاء آخرين في المجموعة، كالأحفاد وغيرهم. لقد عرّضت الحياة نفسها على العائلة البشرية مع ما نسميه الوعي على هيئة محراب شاغر. ولو لم تكن أوّل من شغله، لانهى بعض ممثلي النظام الفقاري الآخرين عاجلاً أو آجلاً إلى احتلاله وإلى التمتع ملياً في كيفية ظهور هذا الكَوْن إلى حيز الوجود بما في ذلك الحياة والوعي.

لعلّها نقطة تفتّح إلى الجودة، وعلى الرغم من ذلك أرى أنه ما زال يتعيّن علينا التفكير بعمق في الحقيقة المؤكّدة إلى الآن مئة في المئة بالنسبة إلى جميع الأجرام السماوية، وذلك أن الجرم الذي نعلم يقيناً أن الحياة قائمة فيه قد عزز الوعي، وهذا الوعي مصحوب بأفق ضمني ربما هو يمتدّ عائداً على طول الطريق تقريباً إلى الانفجار العظيم.

إنّ تنامي الكَوْن معني بقدر لا يُستهان به بتكوين العمليات المادية المستمرّ أبداً، سواء العمليات المتمايزة أو المتكاملة. وإلى حدّ الآن يُعتبر دماغ الإنسان أعقد الأنظمة التي نعرف وأكثرها تشابكاً. والوعي المودع في داخل هذا العضو هو ما يُعني النظر باستمرار في هذا العالم، سائلاً نيابة عن الكَوْن بأسره، من نحن؟ ومن أين جئنا؟

تُعتبر هذه الجمل المُقتضبة سهلة جداً وأساسية وفق معايير علم الدلالة اللغويّة، بحيث إنه لن يكون من المفاجئ سماعها تتردّد أيضاً في الحيز الفراغي من زوايا أخرى في الفضاء تبعد سنوات ضوئية عديدة عن باحة مجرتنا. قد تختلف تلك الجمل المردّدة في تركيبها عن لغتنا، وقد يصعب علينا أن نتميز في صوتياتها أي لسان لغوي على الإطلاق. ولكن يمكن أيضاً أن تكون

تلك الحضارات تفكر كما نفكر إلى حد ما، وتمتلك طبعاً تاريخاً علمياً ليس فيه اختلاف كبير عن تاريخنا. وهناك، مثلنا أيضاً، لا بد من أن يكون أرقى القاطنين فيها قد جاهدوا ليشق طريقهم على طول الدرب الطويلة المتعرجة في سعيهم نحو فهم أعظم لطبيعة عالمهم، ولولادة الكون، ونظام العناصر الدّوري.

تتفق مؤسسة "SETI"، أو مشروع البحث عن كائنات ذكية خارج الأرض، مبالغ طائلة لرصد إشارات تدل على الحياة في الفضاء - على حياة ذكية بحكم تعريفها - إلا أنه من الصعب أن نغزو البحث عن شيء غير قابل للتصديق إلى ما تقوم به، كالبحث عن صدف كونيّة ثانية مثل صدفنا، لا تبعد عن كوكبنا إلا بضع سنوات ضوئية فقط. ولا بد من أن السبب يعود إلى أن الإشارات التي ننشدها، هي الإشارات التي تدعم اعتقادنا بأن العِرْقَ البشري يمثل شيئاً جوهرياً أو أساسياً للكون ككل.

إلى جانب هذا، هناك ذلك الجدال القائم حول الزعم أنه لا يوجد إلا هنا مخلوقات لديها وعي كوني. على أساس أنه حتى لو كانت أشكال الحياة البدائية قد نشأت في أجرام سماوية أخرى أيضاً، علينا ألا ننسى أن العائلة البشرية استغرقت تقريباً أربعة بلايين سنة لترى ضوء النهار منذ وقت نشوء الحياة هنا. وأربعة بلايين سنة ليست بالمدّة التي يُستهان بها بالنسبة إلى كوكب. ففي غضون بليون سنة فقط ستكون شروط الحياة على كوكبنا قد كُفّت عن العمل، وستفقد الأرض غلافها الجوّي، وستبخر الماء.

ربما نحن وحدنا في النهاية. وفي الوقت الحاضر ليس في وسعنا الجزم جزماً قاطعاً بأن هذا الكون ليس نبع ماءٍ حارٍّ من نفوس وأرواح جدّ متنوّعة في مظهرها الخارجيّ.

تذكّرتُ للتوّ أنني غالباً ما فكرت في طفولتي في هذا الموضوع بالتحديد. لعلّ الكون هناك يدبُّ بالحياة، درجتُ على أن أقول لنفسي. وتلك كانت

فكرة مُحفَزة. ثم فجأة تُراودني فكرة مناقضة. لعلّ الحياة لا وجود لها في أي مكان آخر في الكون بأسره إلا هنا. هذه أيضًا كانت فكرة مُثيرة للاهتمام. فكيلا الاحتمالين شدّد على مُعجزة وجودي الاستثنائية.

اندفعت الحافلة قُدماً عبر "هيمسيدال". أدركتُ مُسبقاً بالتأكيد أنني سأمرُّ بذلك المكان لا محالة. حاولتُ تحضير نفسي. ولعلّ جميع الأفكار التي راودتني عن الكون كانت جزءاً من هذا التحضير. تذكرين بلا ريب رصيف ميناء العبارات في "ريفسنيس". لجأنا يومها إلى التحدُّث عن شيء جسيم للغاية، بحيث تلاشت أهمية حادثة تافهة جرّت في كوكبنا أمام نظامٍ أعلى وسياقٍ يكاد يكون لا نهائياً في اتساعه.

بقيت مُلءة الغيوم منخفضة، إنما كيف للمرء أن يُميّز ما بين بحرٍ من السُّدُم وطبقةٍ من الغمام؟ فتلك الغيوم طُفّت على ارتفاع ثلاثة أمتارٍ من الأرض فقط.

أعلّمتنا لوحةٌ أن الطريق الرئيسي ٥٢ عبر الجبال في "هيمسيدال" مفتوح. طبعاً لا بدّ من أن يكون مفتوحاً، فالصيف ما زال في منتصفه. مضتُ الدربُ إلى الأمام لفترةٍ طويلةٍ بإزاء ضفّة النهر اليمني، النهر الذي جرى مُتدفّقاً باندفاعٍ غير عاديٍ نظراً إلى الرقم القياسي الذي سجّله نزول المطر حديثاً، وكذلك بسبب ذوبان الثلج المتأخّر في هذا الصيف. مررنا بسدّ مياه - كان خزانته طافحاً والماء يفيضُ منه. ذاك على ما بدا ما سبّب فيضاناً هراً "هيمسل" في أسفل الوادي. فهذا المشهد انسجم مع مشهد الماء الذي يحجبُ أرصفة الموانئ في خليج "تاري" - جميعها تعود إلى بحري مائي واحد.

راحتُ كُلُّ سلمٍ مُتراسّةٍ وغيرٍ متناسقةٍ تتأرجح فوق أرض الوادي، وبذت للعين كأنها قابلةٌ للمس. كلُّ هذا جعل الجوَّ في ذلك اليوم أشبه بطُرْفَة أرصادٍ جوية. ثم عاد الضباب إلى التجمّع ثانية: بقي قاعُ الوادي

فقط مَرْتَبًا، أما سفحاً الجبل فتكفنا بالسُّدَم.

تَشَرَّبْتُ تلك المناظر كلها بينما رَكَزْتُ انتباهي على الغموض الكامن في قُدْرَتِي على الجلوس حيث أنا وفي ذهني أفكارٌ واضحة مُحدَّدة عن تاريخ الكون وجغرافيته. بل حتى أَطْلَقْتُ العِنانَ لِنَفْسِي وتركتُها تنغمِسُ في تصوّرات مُتنوعة تتعلّق بكيف ولماذا تطوَّرت أشياء مثلي.

‘لم يكن الكَوْنُ يَنْبُض بالحياة، ولا المُحيط الحيوي بالبشرية. نحن مُجرّد رَقَمٌ جاء صُدْفَةً، مثل أي رَقَمٍ على مائدة قِمار في مونتِي كارلو.’
حسنًا، بدا لي أن هناك شيئًا مُغرِبًا في أن نحاولَ عَزْفَ مقطوعة "جاك مونو" الاختزالية هذه في الاتجاه المعاكس - لنرى فقط هل لها أو ليس لها أي وَقْعٌ موسيقي رَثَانٌ: كان الكون ينبض بالحياة، والحياة تنبض بوعي الكون بذاته.

لم أشعر أن للحملة وَقْعًا سيئًا جدًّا، ولم يتعارض وَقْعها بأي حال من الأحوال مع أي حَدْسٍ قد أمتلكه، سواء كان لذلك أهمية ما أم لا. إن هذا الكون واع بذاته، أو هو يَمْتَلِكُ وعيًا بذاته. وهذه الحقيقة الواضحة والمذهلة أيضًا ليس من الصواب التخلّي عنها كلّها لصالح الحركات الباطنية وتأويلاتها.

وفيما نحن نقترُبُ من مسقَطِ المياه فكُرْتُ، لا يمكن التخلّي عنها لأن هناك شيئًا على مستوى أعلى، أو بالأحرى هو أعلى مستوى يمكن مناقشته عِلْمِيًّا. ربما لم يكن 'ينبغي' عليّ الوعي أن يتطوّر، وربما لم يكن 'ينبغي' على الحياة أن تتطوّر كما جادل "مونو"، ولكن من ناحية أخرى، ربما لم يكن 'ينبغي' على الكون أيضًا أن يتطوّر.

لو اختلف في كَوْننا من اللحظة الأولى فصاعدًا تكوينًا واحد بالغ الصُغر، لانهَارَ بعد بضعة أجزاء من مليون من الثانية من لحظة ظُهوره إلى الوجود. بل حتى لو كانت هناك أي اختلافات مِجْهَرِيَّة في ما دعاه "مونو"

‘المبدأ الأولي’ لأدى ذلك لا محالة إلى لا كون على الإطلاق. يُستحسن أن أورد هنا مثالاً أو مثالين. لو أن الكون، إبان تشكُّله، لم يحتو إلا على مِثقال ذرَّة فقط من الكتلة الإيجابية أكثر من الكتلة السلبية لدمَّر نفسه بالكامل في غضون لحظة بعد الانفجار الكبير. ولو أن الطاقات الذرية الهائلة كانت أضعف بقليل فقط، لتألَّف الكون بأكمله من الهيدروجين. ولو كانت أقوى قليلاً لما توافر لدينا هنا أي هيدروجين على الإطلاق. القائمة أطول بكثير. وقد قال الفيزيائي “ستيفن هوكينغ” مرة: ‘هناك مؤشرات هائلة تتعارض مع احتمال ظهور كون مثل كوننا من شيء يشبه الانفجار العظيم’.

تنص الحقيقة على أن ظهور كون قابل للنمو أصلاً، ليس إلا وليد صدفة ثمَّائل صدفة انبثاق الحياة والوعي. وهذا يعني بالتالي أن مبادئ “مونو” الأولية هي أيضاً وليدة صدفة لا تختلف عن أي صدفة تتحقق على مائدة قمار في مونت كارلو. فهل نأخذ بهذا القول، أو هل يمكننا على الرغم من كل شيء أن نسمح لأنفسنا بالتفكير في أنه ربما كان هناك شيء في الأعلى، في ‘ما وراء’ أو ‘ما قبل’ الزمان والمكان اللذين ولَّدهما الانفجار العظيم؟ خصوصاً أنه ليس لدينا دليل علمي يستطيع أن يقضي تماماً فكرة أن شيئاً ربما كان ‘يتميل’ في هذا الكون.

لأنه كي يستحضر الكون وعياً بذاته وبجماله الخاص ونظامه، ينبغي استيفاء شروط لائحة طويلة من المعايير - حتى قبل الميكروثواني الأولى بعد الانفجار العظيم. نعم، إن هذا الكون هو واحد من نوعه. إنها حقيقة ينبغي أن نُحيط بها علماً.

على هذا النحو جرَّت أفكارني. أفكار قد يصفها كثير من زملائي المتمرسين بأنها نوع من المرطقة. فما كنت منغمساً فيه هو حتماً خارج نطاق التفكير الشائع بقدر ما يتعلق الأمر بالعلم. وهو في الواقع ما عنيته به الحُذس.

تَبَعَ الطريقُ ضَفَّةَ النهرِ السَّرى. ومررنا لفترة من الوقت عبر أرض مزروعة ومروج وحماثل متفرقة، قبل أن نعود إلى النهر ثانية. ثم بدأ بعد ذلك صعودنا نحو نُزُلِ جبل "بيويرغ". لَفَتَ نظري جسر شِيدَ بمسارة فوق النهر. بلغ ارتفاعنا آنذاك حوالي ٧٠٠ مترًا. وعلى جانبي النهر نَمَتَ أَمَاثُكَ كَثَّةٌ من البتولا.

كان السَّدَمُ أَكثَفَ هناك، مع ذلك استطعتُ أن أرى الثلج على سفوح الجبال عن يساري، وبعض الأكواخ عن يميني، هي الأخيرة على الأرجح قبل أن تبلغَ الحافِلَةُ نُحُومَ البلدة الجبلية حيث يُمْنَعُ البُنيان.

اقتربنا من بحيرة "إِلْدَرْفَانْت" عند حدود البلدة وَمَسَقَطُ الماء. إنها المرة الأولى التي أعود فيها إلى هناك منذ أيامنا معًا يا سولرن. لكنني كنتُ قد حَضَرْتُ نفسي لتلك اللحظة وَحَصَّتْهَا مُسَبِّقًا، وفي الوقت نفسه سَرَّني أنني لم آتِ بسيارتي. تحاشيتُ النَّظَرَ إلى البحيرة ونحن نمرُّ بها، وركزتُ عيني على ساعتي. أشار الوقت إلى ١٤.٢٠. ومع أنني لم أَيْتُ النَّيَّةَ على شيء، تَذَكَّرْتُ أنني أَهْمَلُ في حَقِيبَتِي نصفَ قَبِينَةِ "فودكا". تَحَسَّسْتُهَا خِلْسَةً وأخرجتها، نزعْتُ غطاءها خَفِيفَةً وتناولْتُ جَرْعَةً كبيرة منها. لا أَظُنُّ أن آيَا من المسافرين الآخرين لاحظ شيئًا. مضى ما يزيد عن ثلاثين سنة، وما زال ذلك الحدث يبدو قريبَ العهد جدًا. كانت لُغْزًا يا سولرن. أعني المرأة ذات الشَّال.

بعدئذٍ، مَضِينَا قُدَمًا نحو غرب البلدة. كان الوقت يشير إلى ١٤.٢٩ حينما تجاوزنا أَوَّلَ التواء حادٍّ عند الجُرْف. عَبَّيْتُ جَرْعَةً "فودكا" أخرى. وراودني شعور بأن كلَّ ما اصْطَحَبَ في ذهني من أفكار له علاقة بما وقعَ هناك في الماضي. حاولتُ أنا وأنتِ آنذاك التروُدَ بِسُوبَعَاتٍ من النوم في "ريفسنيس"، إلا أنه استعصى علينا، فاتكأنا فقط مُغمَضِي الأعين، نتكلم.

يَمَّتْ الحافِلَةُ "ليردال" ماضيةً لفترة قصيرة على طريق النهر الهائج. وبعد كنيسة القضاة العائدة إلى القرون الوسطى قَادَتْنَا الدَّرَبُ إلى الأنفاق.

وفوق أرض الوادي، رَفَرَت ما بين بقعة وأخرى قطعَ كثيفةً من القَمَامِ كأنها حُمْلانٌ عديمة الوزن. يَمْنَأُ وسطَ "ليردال" حيث قَرَرْنَا في الماضي ألا نَبِيتَ ليلتنا. أتذكّرِينَ؟ ثم ركبَ معنا مزيد من المسافرين وعُصْنَا بعدها في التَّفَقُّ الطويل قاصدين "فوذنيس". شعرتُ بالامتنان لوجود التَّفَقُّ الجديد، وبالامتنان لأنني تَجَنَّبْتُ زيارة أخرى إلى "ريفسنيس" المُرهِقَة للأعصاب. أجريتُ في الرحلة القصيرة على العبارة إلى "مانهيلر" ما يشبه الملخص لما قَلَبْتُهُ في ذهني من أفكار على طول الطريق من "أوسلو" تقريباً.

إذا نَحَيْنَا جانباً عددًا كبيراً من التفاصيل، نرى أن العِلْمَ المعاصر يواجه لُغزَيْنِ عِمْلَاقَيْنِ: ماذا حدثَ حقاً في الكَوْنِ في كَسْرِ الميكروثنائية الأول من لحظة ظُهوره، وكذلك ما هي طبيعة الوَعْيِ. ربما ليس هناك سبب يدعو إلى الاعتقاد بوجود أي علاقة بين هذين اللُغزَيْنِ العظيمين الفريدين المتعلّقين بالإنسان والعلم. وفي الوقت نفسه لا نستطيع استبعاد وجود علاقة ما. ولو طَلَبَ مِنِّي أن أراهن، لراهنْتُ على وجودها.

بالنسبة لي أعتقد أنه يجب أن يكون هناك تفسير أعمق - أو أصل وسبب - يقف وراء القوانين الطبيعية التي شكَّلت كَوْنَنَا. وهذا تكوين قد عَرَفْتِ يا سولرن ما تنطوي عليه عقيدتي الأساسية. في رأيي إذا كان هناك شيء 'رَبَّانِي' فيجب أن يكون موجوداً وراء الانفجار العظيم. أما بعده، فأرى أن قوانين الطبيعة، وأعني قوانين الطبيعة فقط، هي التي فَرَضَتْ سيطرتها، وأن كلَّ ما يحدث له حتماً أسباب طبيعية.

إذا أردتِ البحثَ عن 'براهين ربّانية'، فإن أفضل أماكن تَلَمُّسها هي في الثوابت الكونية. أو في ما سَمَّاهُ "جاك مونو" الملجِدُ 'المبادئ الأولية'. لأن الأشياء الوحيدة التي لا أعتقد بوجودها، كما قلتُ سابقاً، هي 'تَحْلِيّات' القوى الخارقة للطبيعة.

وصَلْتُ سلسلة أفكارِي إلى نهايتها، وفي تلك الأثناء كادت رحلتي في

الحافلة عبر البلاد تقترب من نهايتها هي أيضاً. النقطة الوحيدة التي سأضيفها هي ظنّي أنك ستضطرّين إلى البحث طويلاً قبل أن تعثري على عالم طبيعيات مُستعدّ للمُضي بقدر ما مَضِيَتْ في لَفَتِ الانتباه إلى أن الحياة والوعي ربما هما من خصائص كَوْننا الأساسية فعلاً. وَحُجَّتِي لا تقوم على أيّ تَجَلِّيَّاتٍ أو مُعْتَقَدَاتٍ؛ بل تُنبِئ مباشرةً من استقراي للطبيعة نفسها.

نفقٌ آخر في "ماهيلر"، وبعده مباشرةً إلى اليسار في الأسفل أشرَفنا على "كاوبانغر" التي تَرَجَلَتْ فيها أنا وأنتِ من العبارة في يوم ما من تلك الأيام. ثم من هناك صعوداً إلى بحر جديد من الضباب، قبل المُضي عبر "سوغندال"، والتقدُّم نحو تقاطع جبلي آخر.

عندما اندفعنا خارج النَّفق الطويل في الأعالي عند سفوح الجبال فوق خليج "فيارلاند"، لم أرَ شيئاً سوى السَّلَم في الأسفل. ومع أنني لم أَسْلُك هذا الطريق من قبل، عرفتُ جيداً أن المنطقة التي أعهدُ عُمْدَةً تحت السَّلَم بانتظاري. ثم تدرَّجنا نحو نفق آخر. ولما طلَعنا منه وجدتُ نفسي تحت مُلاءة العَمَام وتَسَنَّت لي رؤية "سوبرهيلدال" و "بويادال" و "مُندالسدال".

في تلك اللحظة لَمَعَتْ في رأسي الفكرة فجأةً: هل هي هناك؟ هل تأتي؟ كان ذاك مجرد ردِّ فعلٍ خالص. أدركتُ ضِمتنا ما تنطوي عليه عَفْويتي من لا عقلانية.

تَرَجَلْتُ من الحافلة عند متحف الجليد، اتصلتُ بالفندق هاتفياً وفي غُضُون دقائق قليلة جاءت سيارةٌ يُثْقَلُنِي. وما لبثتُ أن وجدتُ نفسي في البناء الخشبي التَّليدِ مُجدِّداً، بعد ما يزيد عن ثلاثين سنة. كانت الغرفة ٢٣٥ تَمَيَّز بإطلالةٍ جميلة على الزُّقاق البحري والمتحَر والمكتبات، وتشرفُ أيضاً على كُتلة الجليد والجبال. وبما أن السَّلَم تحوَّل ثانيةً إلى نُذْفٍ صغيرة مُنفصلة راحت نَحوم على ارتفاع منخفض فوق الخليج، انكشَفَ لي الفضاء من فوق تلك النُذْفِ من نافذةٍ غُرفتي.

كانت صالة الطعام مُكَنَّظَةً بالناس. وراقني أن أرى ذلك المكان القديم مُزْدَهَرًا، مع أن جزءًا من هذا قد يعود إلى مناسبة افتتاح معرض المناخ الجديد. طلبتُ ربةً من نبيذ الفندق الأحمر بتسعين "كرونة". كان نبيذاً جيداً وإن لم أستطع تمييز نوعية العنب أو بلد المنشأ، ربما هو "كابرنات سوفينون". ثم قُدِّمَت لي وجبة عشاء رُباعية: سَلْطَة السَّاحِل الغربي، وحساء قرنبيط، وشريحة لحم عِجَل وفراولة بالقشدة.

صعدتُ إلى غرفتي بعد تناول الطعام وأفرغتُ أمتعتي. تناولتُ جَرعة من "الفودكا" وحدقتُ خارجاً إلى الليلة الصيفية. كان المطر يهطل بغزارة بالغة. ولم تنفك النوارس تزغق فوق الخليج ومن على سطح التعاونية. قبل أن أوي إلى الفراش كَرَعْتُ جَرعة أخرى من قِينيتي.

ثم التقيتُكما أنتِ وزوجكِ على الشُرْفة في الصباح التالي. وصلتما بعد العشاء في الليلة السابقة بينما أنا في غرفتي مع قِينة "الفودكا". فكَّرتُ فينا، أنا وأنتِ طبعاً. بيد أنكِ في تلك الأثناء كنتِ هناك في الفندق. وتسنى لكِ ولزوجكِ أن تحصلا على وجبةٍ لائقة في المقهى بعد فترةٍ طويلة من إخراج عربة القهوة من منطقة خدمة الزبائن، وخُلُو صالة الطعام من رؤُودها الراغبين في العشاء.

استلقيتُ في فراشي صاحباً لفترةٍ طويلة أستمعُ إلى النوارس تزغق. ولما أرحتُ رأسي على الوسادة وأغمضتُ عيني فكَّرتُ، هنا في داخلي، وجودي هنا في داخلي حميم ومُطمئن. إنه شيء مُطمئن ومريح جداً أن أكون أنا.

ثم جرفني حلمٌ مذهل. هياً لي أنه دام طوال تلك الليلة، أو على الأصح دام أكثر من ذلك بكثير، وحتى في هذه اللحظة أشعر كأنني واجهتُ أحداثه حقيقة.

لا بل أكاد أقولُ إنِّي فعلتُ.

وهنا، عند هذا الحد، أترك بين يديك مَلَحَمَتِي الصغيرة. واصلتُ الكتابةَ طوال النهار، من غير أن أتوقَّفَ حتى لأَكُل. طبعًا شربتُ القهوة والشاي، ولمراتٍ قليلةٍ قصدتُ خزانة الزاوية وكرَّعتُ بضعَ حَرَعَات. وأنتِ، ماذا عنكِ؟ هل عدتِ إلى البيت بعد اجتماع إعداد الخطط؟

نعم، عدتُ يا ستاين، وأرى أن عليكَ السيطرة على نفسك لتبقى بعيدًا عن خزانة الزاوية تلك. الساعة لم تتجاوز الخامسة بعد. أليس في مقدورك أن تتخذَ قرارًا يشترطَ عليكَ ألا تفتحَ تلك الخزانة قبل الثامنة أو التاسعة ليلاً؟ لطالما ناقشنا هذا في الماضي. كنتُ في باكورةِ المساء أدخل إلى مطعم الشواء لأتفقدك، فأراك جالسًا هناك تتناول الجِعة!

أترين يا سولرن، حتى آنذاك كنتُ أتصارع مع أفكار هائلة. ألا تشعرين ولو بقليلٍ من الدُّوار من فكرة أنكِ جزء من هذا الكون؟ كتبتُ أقول إن في وسعي استشفاف وميض ترابط بين وعيي وبين الانفجار العظيم قبل ١٣,٧ بلايين سنة. وبدلاً من التركيز على هذا، تشرعين في التحدُّث عن إجراء بعض التَّدابير المتعلقة بخزانة زاوية صغيرة متأكِّلة في "كونغليفيين". إن هذا يثير مشاعري بطريقة ما، أن أعلمَ أنكِ ما زلتِ... ما زلتِ تقلقين علي..

نعم، أعرفُ يا ستاين. أعرفُ أن هذا قد يثيرُ المشاعر.

إنما هل لكِ أن تجيبي؟ ما رأيكِ في تأمُّلاتي وأنا أسافر عبر البلاد من "ليساكر" إلى "فيارلاند"؟

لا أدري حقاً ما أقول يا ستاين.. على نحوٍ ما ربما أقول ما قد تقوله تلميذتك الشابة: إنها تأملات مشوقة! ولست أسخر في هذه المرة، بل أعني ما لقوله فعلاً. وكذلك يبعث في نفسي البهجة أن أقرأ جُملاً كَتَبَها مثل: 'في الوقت الحاضر ليس في وسعنا الجزم جزماً قاطعاً بأن هذا الكون ليس نبع ماء حارٍ من نفوس وأرواح جدٍ متنوّعة في مظهرها الخارجي'. وهذه الجملة ليست سيئة أيضاً: 'أعتقد أنه يجب أن يكون هناك تفسير أعمق - لو أصل وسبب - يقف وراء القوانين الطبيعية التي شكّلت كوننا'. ولعلّ هذه الكلمات تتضمّن فعلاً ما تدعوه عقيدة أساسية، ما يعني أنك حاولت في أدنى الأحوال أن تعطيني جواباً لسؤالي الذي طرحته عليك بخصوص ما تعتقّقه من معتقدات.

إلى جانب هذا السؤال طلبت منك شيئاً آخر. أردت أن تروي لي حلمك. وفي المقابل زوّدتني مُجنّداً بأطروحة مادية الأبعاد. لا أنكر أبداً أنها عمل علمي بارع، لو حتى قطعة مدهشة من كتابات السفر، ومع ذلك لا أراك تتكلّم إلا على القشرة الخارجية لطبيعتنا الروحية. بالنسبة لي يشبه هذا الدوران حول المحارة أكثر من الدوران حول اللؤلؤة المزدهرة في داخلها. هناك آلاف من المحارات الفارغة إزاء كل محارة تحتوي على لؤلؤة. إنك لا تتوقّف أبداً عن إدهاشي!

أراي في كبسولة فضاء تحوم حول مدار الأرض. أشعرُ بأنني علم الوزن. أشعرُ كما لو أنني بلا جسد. أنا وعي محض فحسب.

الأرض من تحتي مُخلّلة بالغبار والسُحام. كوكبنا بأسره أسود. لا أرى المحيطات، ولا أرى اليابسة. حتى جبال الهملايا لا تخترق أي من قممها الهرمية الشتاء النَّووي البَظْلِم. أنادي، "هيوستن! هيوستن!" مُدركاً في

الوقت نفسه أن لا فائدة. جهاز الإرسال ميت. والكويكب السيّار الذي كان عليّ أن أصدّه قد أباد على الأرجح البشرية جمعاء، وربما الفقاريات كلّها، أو على الأقلّ ما عاش منها على اليابسة.

أواصلُ الدّوران حول مدار الأرض مُستعيدًا ذِكري ما حدثَ من جديد. ومرةً أخرى، أرى كويكبًا سيّارًا يطمس معالم الحياة كلّها تقريبًا، تمامًا كالكويكب الذي دُمّر الحياة بين الفترة الطباشيرية والفترة الجيولوجية الثالثة، أو ذاك الذي بين العصر البرمي والعصر الترياسي. في تلك المرة الثانية أُبِدَت جميع الدّيناصورات. أما الآن في هذه المرة فربما لن يبقى ولا فرد واحد من الثدييات. والذنبُ ذنبي! أنا وحدي من يقَعُ عليه اللوم في ما حدث.

كان الكويكب الجبّار بقطره الذي يبلغ عدّة كيلومترات على مسار الاصطدام بالأرض منذ زمن طويل. ولذلك شكّلت الأمم المتّحدة لجنةَ أزمات، ولأوّل مرة في التاريخ تآزرت جميع الأمم لتنقذَ كوكبنا من الدمار. وُضِعَت خطط مُتناهية الدقّة لإطلاق سفينة فضاء مأهولة تحمل صاروخًا نوويًا ضخمًا. لم يخفَ على أحد أنها ستكون مهمّة انتحارية. تطوّعتُ للذهاب، أنا وكلّ من حسنَ وجيف. ونصّتُ الخطة على أن تُطلَق القنبلة لتفجير الكويكب حالما ندنو منه، مع التزامنا في الوقت نفسه مسافةً مناسبةً بعيدًا عنه للحؤول دون تناثره إلى شظايا. مهمّتنا اقتصرَت على دفعه قليلًا خارج مساره، حتى ينحرف عن حافة الأرض بمأمنٍ جيد.

في المؤتمر الختامي قبل انطلاقنا علّمنا أن نسبة اصطدام الكويكب بالأرض تعادل ٩٩ بالمئة. لم يكن علينا طبعًا القيام بأي شيء بأنفسنا لتفجير القنبلة، فالكمبيوترات تولّت كلّ ذلك. انحصرت مهمّتنا في الحفاظ على مسار ثابت ونحن نسعى وراء الجسم العدائي، وعندئذٍ ستُقدّف القنبلة من المسافة

الصحيحة بالضبط. كانت المهمة سهلة.

كنا ثلاثة من بين عدة مئات من المتطوعين للذهاب إلى الفضاء. وخضع الجميع إلى برنامج واسع النطاق من الاختبارات الجسدية والنفسية، إلا أن الانتقاء النهائي أجري بالقرعة. وهذا ضمن حصول كل واحد من الأفراد المختارين على فرصة عادلة للتملص من المهمة. كان ذلك بأكمله طوعاً. الجولة الأخيرة فقط جرت على نسق الروليت الروسي. وحالما وقع الاختيار علينا - نحن الفائزون أو الخاسرون، وفق الطريقة التي ينظر المرء بها إلى الأمر - أصبحنا في عداد الأبطال. فقد كنا الذين سنخترق الفضاء لننقذ كوكبنا من الإبادة. كنا رؤاداً. ومثلّكنا فخرٌ عظيم لوقوع القرعة علينا. اقتضت الخطة أن نتحرى الكويكب بين المريخ والمشتري. كانت البشرية جمعاء، وربما غلاف الأرض الحيوي بأسره وفقاً علينا، على انضباطنا وأثراننا العقلي.

أنا مَنْ أخفق في المهمة. دُعِرتُ فجأة. لم يكن قد تبقّى لنا إلا دقائق معدودات قبل أن نموت. وجاءت الرسالة الأخيرة التي بثها جهاز الإرسال تقول: 'حظاً سعيداً يا شباب! تناولوا شراباً الآن. و شكراً لكم!'

لكنني لم أرد أن أموت. أردتُ أن أعيشَ بعد، وهكذا، حولتُ المركبة عن مسارها بضع درجات في اللحظة الحاسمة، وجعلتُ المهمة مستحيلة الإنجاز. أتذكرُ كيف احتجّ حسّان وجيف، لولا أن احتجاجهما جاء بعد فوات الأوان. إن الذين أشرفوا على تدريبي لم يُدربوني جيداً، ولم يُعرضوني لاختبارات كافية.

رأينا في ضوء الشمس الكويكب يتجاوزنا. كان اصطدامه بالأرض حتمياً وفقاً للتكهن الأخير، وحالما يحدث ذلك، ستصلُ نسبة هلاك جميع البشرية إلى ٩٩ بالمئة.

كان الجسم العدائي ضخماً، ذا شكل مُبْتَذَل وغير مُنْتَظِم. استَوْحَيْتُ مَعَالِمَهُ، كما يبدو، من إحدى لوحات "ماغرت" المترسّبة في ذاكرتي. عرفنا أن نقطة اصطدامه بالأرض تقع في آسيا الوسطى، مع العلم أن الموضع لا أهمية له على الإطلاق؛ مجرد اصطدامه بالأرض يعني الهلاك للكوكب بأسره.

أطوفُ حول كَوَكَبٍ مُتَفَحِّمٍ، وأعجزُ عن اجتلاء القارّات. ينصاعدُ الغبار والسُّحَابُ عَالِبًا في الغلاف الجوي؛ غلاف من الواضح أنه دُمِّرَ تدميرًا هائلًا. أعود بذهني إلى الوراء مسترجعًا ما جرى في الكبسولة.

أتذكّر الآن أنني شعرتُ بالخجل. قَبِعَ حَسَّانٌ وجيفٌ في مكانهما يحدّقان. رفع جيفٌ كفيه كما يفعل المرء عندما تسوء الأمور، ورجع بظهره إلى الوراء مُستَسْلِمًا. أما حَسَّانٌ فأجهش بالبكاء. استشعرتُ الازدراء من جيف وأسى لا نهائيًا من حَسَّان. كان حَسَّانٌ مُسْلِمًا مُلْتَرِمًا ووَقَرَ في قلبه اليقين أنه سيذهب إلى الجنة مباشرة إذا نجحت مهمته. استصعبتُ فهم هذا اليقين لأنه في الوقت نفسه كان مقتنعًا بالقدر نفسه بأن قرار نجاحه أو فشله بيد الله. ما يعني بالتأكيد أن الله قد فرض إرادته. لم يعد في مقدوري تحمّل هذا الخزي كله. فتدبّرتُ بعد بضع مناورات ماهرة أمر قطع تجهيزات الأوكسجين عنهما. هذا عني أنني أطلتُ مدّة حياتي في المركبة، لأن فرصة بقائي على قيد الحياة زادت ثلاث مرّات عن الفرصة التي كانت لدي قبل دقائق. حولتُ مسار السفينة نحو الأرض. أردتُ أن أرى ما انتهى إليه كَوَكَبِي. فما بدا واضحًا جدًّا لي أن الأمور بَلَغَتْ حدّها النهائي من السوء. والوقود الذي لديّ يكفيني لأحوم بالسفينة حول الكوكب الأسود، ومؤونتي من الأوكسجين تُفي بعددٍ لا بأس به من الدّورات.

أريدُ توظيفَ الساعات الأخيرة التي بقيت لي في إمعان التفكير في ما عناء

كُلّ ذلك. إنه وقت مُكرّس للتدبّر. ماذا عَنَّت الحياة؟ وماذا عَنَى الوَعي؟
فأنا الآن أصبحتُ متأكّداً بما لا يقبل الشكّ من حقيقة أن العقل والفكر لم
يتطوّرا في أي موضع آخر من الكون إلا في الكوكب المحروق الذي أدورُ
حوله في هذه اللحظة. وأنا الوحيد المتبقّي من وَعي الكون بذاته.

أشعر فجأةً بحزن يائس رهيب نياية عن الكون بأسره من فكرة أن هذا
العالم سينتقل إلى مرحلة الانكماش. كَوْنٌ وَاِعٌ وآخر بلا وَعي هما شيان
مختلفان اختلافاً كاملاً. وأنا أيضاً حزينٌ من أجل نفسي. فما بقي لي من
وقت لأكون أنا قليل جداً. ولو لم أُعَيّد إلى سرقة وقت جيف وحسّان،
لكنّا ثلاثتنا في عِداد الأموات الآن، وَلَبَّاتِ وَعي الكون صفحة مطوية.
أشعر بأهمية إقدامي على تمديد وَعي الكون بذاته.

فجأةً، أنفمسُ في التفكير في شريط حياتي. أو بالأحرى لا أفكرُ، أراي قد
عُدْتُ ببساطة إلى السبعينيات وأراكِ أُمامي في "كرينغشو": أنتِ في قَمّة
السعادة، على وجهك ابتسامةٌ لُعوب، ونحن نقوم بكلّ الأشياء التي لطالما
قُمنا بها. نُعَيّدُ وجبة العشاء، ونمشي إلى المقهى في غابة "أوليفولستير"،
نمضي بدرّاجتينا إلى الجامعة ونجلس متقابلين على طرقي الأريكة نراجع
دروسنا. نتجوّل في "نورماندي" بالسيارة، ونقصِدُ الجزيرة الصغيرة التي من
السَّهل أن نسيرَ إليها عندما ينحسر الماء في أوقات الجزر - أراكِ تلتقطين
نخمة بحر زرقاء من قاع البحر! - ثم نذهب في رحلة على درّاجتينا إلى
"ستوكهولم". نُشيعُ الفوضى في الطُوف القلم الذي استعَرناهُ من مزارع
مُسِنَّ في "توتن". إِعْتَقَدَ ذلك الرَّجل أننا مخبولان، وهذا هو السبب الوحيد
الذي جعله يعيرنا الطُوف. تعاطفَ معنا لأنه رأى أننا مُضطربان عقلياً.

أطرقُ إلى الأسفل ناظراً إلى كوكب محروق. إنه مَهدي، مَهْد الوَعي. إنه
محروق، ومع ذلك أستطيع أن أكون فيه، في أي وقت أشاء وأينما أريد

على امتداد الزمن الذي قضيته على الأرض. مثل قارعة الطريق في "السويد" حيث اضطررنا إلى التوقف لأن عجلة دراجتي ثَقِبَتْ. غضبتُ كثيراً يومها، ووبَّختني على غضبي. والآن، من الأعلى هنا في مداري، بعد فنائك وفناء العالم بأسره، أدركُ أنك كنتَ مُحِقَّةً في ذلك الصباح. لا يصحُّ أن يتعكَّرَ مزاجكُ لأن عليكَ ترقيع أنبوب عجلة داخلي، قُلْتُ يومها. نحن في الصيف يا مُقَفِّل. ونحن أحياء!

أنا هناك في الأسفل الآن أعيد اكتشاف كلِّ ذلك من جديد. استعرنا سيارة والديكُ وها نحن نقودها من "بيرغن" إلى "روثلداال". نقف على سطح العبارة ونستشفُّ المدى على امتداد خليج "سوغني"، ثم نلجُ ميناء "كراكهيل" في المضيق الحادِّ بين "لوزنا" و "سولا". نقود سيارتنا في الجزر ونركب العبارة الصغيرة إلى "نورا". يبدو الأرخبيل الذي حُتَّتْه عوامل الطبيعة مثل عالمٍ قائم بذاته بكلِّ خلجانه الصغيرة ورؤوسه البحرية وقنواته وبحيراته. نقطع الكيلومترات الأخيرة إلى "كُولغروف"، تستمهليني، وتطلبين مِنِّي أن أوقِفَ السيارة أولاً في بقعة مُعَيَّنة لتريني أروعَ منظر يُشرف على البحر. تحرفكُ البهجة لأنك تُطلعينني على جنة طفولتك، أنتِ منبهة آيما انبهار. تُوقِفُ السيارة أمام بيت جدتك، وعندما أقابلُ راندي أشعر بأنني أعرفها منذ الأزل، وذلك طبعاً لأنني أرى فيها الكثير منك. نحن كالأطفال هناك. نذهب إلى حانوت إيدي ونشتري الحلوى والمثلجات. في المساء نستلقي في سريرنا في الغرفة الزرقاء نتهامس عما رأيناه واستكشفناه في يومنا الصَّيفي الطويل.

يَتَمَحَوَّر ذلك كله حول حكايتين؛ تاريخي وتاريخ الكون. لكن التاريخين يتمازجان، لأنه لو لم يكن للكون تاريخ لما كان لي تاريخ، ثم إنني صرفتُ نصف عمري أدْرُسُ ذلك التاريخ، ولولاي الآن، لما عاد في مقدور الكون أن يعيِّم ميزاته، فلا ذاكرة أخرى متبقية إلا ذاكرتي.

أجلس فترات طويلة في كَبْسولتي أراقب تاريخ كَوْننا، حيث يمرُّ العالمُ أمامي في مَوْكب استعراضي كأنه مسيرة كَوْنية، قبل أن ينتهي إلى الأبد في بَحْر ساعات عصر الذاكرة والوعي. وعندما تعتريني هذه الأفكار نيابة عن كيان يَفوقني بكثير، أكون طوال الوقت في المركبة، كما لو أنه المكان الذي يتعيَّن علي أن أكون فيه وأبقى كلما تملكنتي تلك الأفكار. لا أختبر ولا مرة واحدة صَحْوًا جزئيًا، مثلما يحدث للمرء غالبًا في الأحلام، عندما يدرك أنه يحلم، ثم يعود ويواصل حلمه بلا مبالاة. أنا في تلك المركبة الفضائية بعد أن ارتطم كُونكب سَيَّار بالأرض في الأسفل. أتذكّر تفاصيل لوحة أجهزة القياس وجميع الشاشات وواجهات العَرَض، وفي إمكاني أن أرى جيف وحسّان بوضوح - أنا أعرفهما حقّ المعرفة أكثر مما أعرف أي أحد آخر، تقاسيم وجهيهما وخطوطهما، وقد أمضينا معًا ساعات وساعات في تلك المركبة الضيقة، والآن هما في مقعديهما هامدان.

تأخذُ طريقةً اختباري لكلّ ما أواجهه منحي ثنائيًا، لأنني في الوقت نفسه قادر على الخروج من المركبة لأرافك في جميع الأماكن التي زُرناها من قبل، إنه كما لو أنني أعيش تجربة خروج من الجسد قوية. الأمر بأكمله مفكّك وغير منطقي، ومع ذلك أجدني قادرًا إلى حدّ ما على اختيار المكان والزمان اللذين أريد أن أعيشهما على الأرض، مثلما يفعل الكهّان في رحلاتهم الروحية. عندما أكون وإياك في "نورماندي"، نحن هناك فعلاً. وعندما نجلس على صخرة نأكل السمك المشوي عند هضبة "هاردانبيرفيدا" نحن نفعل ذلك حقًا، لأنني أستطيع حتى استدعاء رائحة السمك المطبوخ. ليس هناك حياة بين حدث وآخر، ولا ترتيب في الزمن. لا شيء سوى الاستمرارية، سوى الخلود؛ مثل طَبَقٍ هائل يمكن اقتلاع قِطْع فسيفساء صغيرة منه - لا، بل هي قِطْع فسيفساء من زجاج ملوّن مصفوفة في مِشكّال أمعنُ النظر فيه وأنا جالس في مركبتي الفضائية، ولي حرية اختيار قِطعة الذاكرة التي أريد التركيز عليها واختبارها ثانية.

فجأة يخالجي شعورٌ بأنك ما زلت حية في الأسفل تحت سحابة السُحام والغبار والفحم السميكة. بل يُومض ذهني بفكرة أنك قد تكونين المخلوق الوحيد الذي نجا من الموت. هذا منطوق الأحلام، أو على الأصح منطوق افتقار الأحلام إلى أي منطوق. ومنه نبع اقتناعي بأنك نجوت لأنك سعت إلى اللجوء إلى أحد الأنفاق العميقة في غرب البلاد، وأن مساعدتي على النزول مهمتك. لا أحد سواك يستطيع مساعدتي على النزول. قريباً سأسقط في اللسان البحري تحت جليد "يوستدالسيرين"، وأنت من سيفتح المركبة المتحطّبة في وسط الخليج. يبدو هذا في الحلم سهلاً جداً، لأن ما عليك فعله لا يتعدّى التحديف في مركب وانتشالي.

أعيش ثانية رحلة التحديف البحرية التي قمنا بها عبر الخليج آنذاك. افترشنا العشب عند مخزن التبن على الشاطئ البعيد وأخذنا حماماً شمسياً. ذهبنا إلى هناك لأنك لم تستلظفي فكرة الاستلقاء تحت الشمس عارية الصدر في المرج المواجه للفندق. أرانا مُستلقين هناك. الجو حار، ودرجته لا تقل عن عشرين. وذلك لا يهمنّا لأننا نعرف أننا تركنا زجاجة شراب فوار عند ضفة الماء لتبرد. بعد فترة قصيرة نُحدف عائدين، ونلمح في رحلة عودتنا بعض خنازير الماء تسبح من "بالستراندا" موغلة في الخليج. ينتابنا القلق عندما تدنو منا ونحوم حول قاربنا عدة مرات، إلا أنها سرعان ما تُقلع مبتعدة.

أدور وأدور حول الكوكب الأسود. مؤلم إلى حد يفوق الوصف إدراكي أنه لم يتبق هناك إلا ساعات قلائل قبل أن يُجرّد الكون من الحياة الروحية. أشبك يدي وأصلي لإله لا أصدق به: رجاء، رجاء، أعد عقارب الساعة إلى الوراء! امنحني فرصة واحدة أخيرة رجاء! ألا يستحقّ العالم بأسره أن يحظى ولا بفرصة واحدة أخيرة؟

ثم يحدث شيء غريب، شيء ما أمكن حدوثه ولا في الأفلام، وهذا طبعاً

نوع مختلف كلّ الاختلاف عن الأفلام، هذا حُلْم. يشرع جيف وحسان على حين غرة في التحرك ويفتحان أعينهما. وعندئذ؟ عندئذ يضمحلّ كلّ ما يلف الكوكب من سُحام وغبار، وأرى الأطلسي الداكن الزرقة في الأسفل. ونحن الآن نظير في الأعالي متجهين إلى ساحل إفريقية الغربي...

وهنا استيقظتُ. لم أصدق أنه ليس إلا حُلْمًا. وحسان وجيف هما أغرب الأشياء على الإطلاق في هذا الحُلْم. كانا مُفعمين بالحياة وواقعيين جدًّا، ولم يشبها أي شخص قابلته في عالمنا الحقيقي. ومنذ ذلك الحين لازمني شعور آسِرٌ بأن أنماط الواقع الموازي موجودة حتمًا، وأن مثل هذه الرحلات الروحية مُمكنة الحدوث.

في الخارج كانت بعض قصاصات السُّدُم ما زالت تطفو فوق سفوح الجبال. إلا أن مجال الرؤية تجاه الخليج بدا جيدًا.

نزلتُ إلى صالة الطعام وتناولتُ الفطور، مستغرِفًا استغراقًا تامًا في حُلْمي. ثم حملتُ فنجانًا طافِحًا بالقهوة وخرجتُ إلى الشرفة.
وهناك كنتُ!!!

نعم، هناك كنتُ يا ستاين. ولعلك أدركتَ وأنتَ تراني أمامك أنكَ أبصرتَ
حلمًا استشرافيًا؟

في الحقيقة...

هل أنتَ مشغولٌ بشيءٍ مُعَيَّن؟

لا. لماذا؟

أتساءلُ ما إذا كان لديكَ ما يشغلكَ هذا المساء.

لا، أبدًا. ذهبتَ زوجتي بيريت إلى المسرح مع أختها وأنا وحدي هنا.

في هذه الحالة أرى أنه يجدرُ بنا متابعة حوارنا. نيلز بيتر خارج البيت يلعبُ
"البريدج" مع بعض الأصدقاء. والمساء كله بتصرفنا. إنني في الحقيقة أشعرُ
بالتوتر، على الرغم من أن الجلوسَ هنا وتأملُ المدينة من النافذة ممتعٌ
جدًا....

ماذا عنك؟ أين أنت في هذه اللحظة؟

أنا في مكتب مُتواضع في الطابق الأول من البيت. ومكتبي، مثل مكتبك، أمام نافذة تُطلُّ عليّ البلدة. بدأ الظلام الآن يهبطُ عليّ "أوسلو"، ومع هبوطه غَدَت أضواء المدينة أكثر سطوعًا. وهذا يُتيح لي أن أَسْتَشِفَّ "إيكبرغ" و "نيسودين".

أما أنا فأرْنُو في هذه اللحظة إلى الميناء وكنيسة "كورسكينن" و "يوهانس كيركن" التي تقع في الخلف مباشرة. وكذلك يمكنني أن أرى محطة الإطفاء وقاعة البلدية أمام بركة ليله لونغه غوردسغان".
هناك كنت، كتبتَ تقول يا ستاين، وربما أدركتَ عند ذاك أن حلمك كان تنبؤًا...

لا تُنسى أنني عندما وصلتُ إلى الفندق المعهود في المساء السابق، هُيأ لي أنني قد أصطدمُ بك في أي لحظة، في الرُدْهة أو في صالة الطعام. كلَّ درجةٍ صعدتها إلى غرفتي ذكّرتني بك، وكلَّ صورة، وكلَّ لوحة حائطٍ منسوجة. وكُشِك الهاتف القديم، هل تتذكّرينه؟ أو لأضع لك هذا بطريقةٍ مختلفة، ما لاحظته بقوةٍ عندما انتهيتُ إلى فندق "مندال" أنك لستَ هناك. كنت في الواقع - غيرَ حاضرة - في جميع الأمكنة. ولذا لا أجدُ ما يستدعي الدهشة في أن أحلمَ بالزمن الذي قضيناه معًا. الغريبُ في ذلك كله أن أراك فجأة واقفةً هناك على الشرفة. وهذا ما وصفته بأنه حظٌ ميمونٌ استثنائي. إلا أن وجودك الفعلي في ذلك المكان، لم يكن السبب الذي جعلني أحلمُ بك.

أحقاً؟ مع العلم بأنني كنت طوال تلك الليلة، وبينما أنت تدور حول كوكبك المتفحم، اضطجع على سرير في الجور، ومستغرقة في النوم مبتك. ألا ترى يا ستاين، إذا أخذنا كل ما أبصرته في حلمك بعين الاعتبار، أن هناك احتمالاً قوياً يرجح حدوث شيء من قبيل المناضحة الفكرية بيننا؟ هل تعلم أن المرة أكثر عرضة لاختبار توارث الخواطر والاستبصار وهو يحلم؟ وذلك في فترة تدعى الرِّيم أو نوم حركات العين السريعة؟ وهي ظاهرة متعارف عليها وتسمى الأحلام الخارقة للطبيعة أو أحلاماً خارج القنوات الحسية الطبيعية. هناك كم لا يستهان به من الأبحاث المخبرية المتعلقة بها، ولدينا أيضاً دراسات أنثروبولوجية (علم الإنسان) تظهر الشيء نفسه بالضبط. هل قرأت في يوم المَلحمة "الأيستندية" "غونلو لورستيون"؟ أو اطلعت على أحلام النبي يوسف في سفر التكوين بما أنها أكثر شهرة. تلك كلها أحلام تنبؤية أو استبصارية نموذجية.

قرأت لي أُمِّي مَلحمة "هيلجا وغونلو وهرفان" وأنا صغير. لعلك ما زلت تذكرين يا سولرن أنني وُلدتُ في "أيسلندا"؟ والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو ما مدى صحة هذه الأحلام الملحمة حرفياً. من ناحية أخرى أوافقك على أن تأويل الأحلام عالمي تقريباً، أعني تأويلها على أساس أنها تُعبّر عن شيء يخص المستقبل.

تضمن حلمك يا ستاين جميع العلامات المميزة لما يصح أن أدعوه حلمًا شفافاً. كان على ما أرى من الأحلام الإلهامية المثالية. ألسنت معي في أنه جدٌ عميقٌ ومُعَبَّرٌ؟

أنا معك في هذا. ولقد أخبرتُك ونحن هناك عند كوخ الراعي بأنني أبصرتُ حلمًا غيرَ عادي في قوّته وحيويته. وأنني شُهِدْتُ وأنا أراي أمشي معك بعد بضع ساعات من استيقاظي. أو هل ينبغي لي أن أقول بعد بضع ساعات من إنزالِك لي من الفضاء؟ بقدر ما يتعلق الأمر بي، كشفَ الحلمُ الشيءَ الكثير عن حقيقة أن تلك السنوات التي قضيناها معًا زالت تواصل حياتها في داخلي وما زالت تؤثر فيّ، وربما أيضًا يَعْمَلُ في داخلي شعور بأنني منذ أن أبصرتُ هذا الحلم عُدْتُ قليلًا إلى 'المدار'، وأن الحياة التي عِشْتُ من بعدكِ كانت على نحو ما خارج ذلك المدار. ولا يخفى عليك أن مُعْظَم الأحلام غالبًا ما تتعرّزُ بشيء جرى مع المرء في اليوم السابق. وقد قضيتُ ذلك اليوم وأنا أسافرُ عبر أرضٍ يُعْشِبُها السَّلَم.

كان حلمك إلى جانب شفافيته مُفْرَعًا وأقرب إلى الكابوس، ويكادُ يوحي بأنك مُتَعَطِّشٌ إلى شيء تُؤْمِن به. ففكرةُ أنكَ وعي الكون الوحيد تستجديكَ لِتَقْنَدَها. أعني أنك تستجدي نفسك لِتَتَبَذَّ هذه الفكرة غير الصائبة. لا تنسَ يا ستاين أن هناك الكثير مِنَّا، أعني الكثير من الأرواح في هذا الكون. وأنا أعتقد أننا أرواحٌ تفوق العدَّ والحصر. لا أعرفُ عددنا طبعًا، غير أنني أظن أنه لا مُتَنَاهٍ، لا مُتَنَاهٍ مِثْلُ لَأَلاءِ الشَّمْسِ على وَجْهَةِ البحر في يوم صيفي.

على رِسْلِك يا سولرن، يُوسِفني أنني لا أستطيعُ مجاراتكِ في هذا، فهَلَّا عذرتني؟

أعزركَ وزيادة. وأسألكَ من صميم قلبي. فأنتَ كما هو واضح تؤمن بأن المادّة ستَعْمُرُ بعد الروح، وهذا ظهر جليًا أيضًا في حلمك. وذلك أنه في يوم

ما، سيكتَّبُ الاستمرار لهذا الكون العملاق بأكمله بعد أن يتخلَّص مِنَّا كما لو
أننا مجردُ نفاياتٍ سطحية. ما أؤمن به هو النقيضُ تمامًا. فإنا لكاذِبٌ أَجْزَمُ بأن
أرواحنا ستصمَّدُ في وجه هذه الأوحال المادية. وإذا كان ثمة أمر نتفق عليه
يا ستاين فهو أن كلَّ الأشياء الطبيعية ستضمحلُّ في نهاية المطاف.

نعم أنت مُحِقَّة. هذا، لسوء الحظ، من النتائج الحتمية لقانون الديناميكا
الحرارية الثاني.

وفي المقابل يا ستاين، ليس هناك مبدأ مكافئ يقول إن الاضمحلال المَرهون
بِوَقَالَاتِ الزَّمن يمكن أن يطال ما هو روحي بأدنى أثر.

تَعْنين لأن لدينا روحًا حُرَّة قادرة على النجاة بعد مَوْتِ الجسد. أظنني أدركُ
ما ترمين إليه.

تَخَيَّل يا ستاين أنك ذاهبٌ لتتمشَّى في الغابة، فَتَسْلُكُ دربًا لم تطرقها منذ
بضعة أسابيع، فجأة تُشرف على كوخٍ خشبي لم تَرَهُ من قَبْل قط. ومُجَرَّد
وقوعك على ذلك الكوخ المُشَيِّد هناك غريب بما فيه الكفاية بالنسبة إليك، ثم،
بينما تقفُ أمامه تتأملُه، يَفْتَحُ بابُه ويُطلُّ منه رجلٌ باسم المُحَيَّا، عيناها
زرقاوان لامعتان، وأسنانه ناصبة البياض. يبدو ذلك الرجل أنه خلق وفق
أَنقِ المَقاييس. ولا يلبثُ أن ينحنِي لك باحترام ويهتِفُ، صباح الخير، صباح
الخير! الإطار سُرِّيالي، مُحاط بالإبهام.

وعندئذٍ ينبثقُ السؤال؛ ماذا جرى بالتحديد؟ هل شَيَّدَ الكوخُ نفسه

أولاً من بعض أشجار الغابة ثم لتَشيعَ في أنحائه الحياةُ خَلَقَ الرجلُ؟ أم أن ما جرى هو عكس ذلك: هل بنى الرجلُ الكوخَ ثم سكَّنه؟

استأعلُ أيهما أقربُ إلى التصديق في نظرك؟ أن ما ظهرَ في البداية كان شيئاً روحياً أم شيئاً مادنياً؟ في وصفك لرحلتك انتهيتَ إلى ما لخصَّته بقولك إنك تستطيع استشفافَ علاقةٍ بين الوعي وبين ما حدثَ 'في الكونِ في كسَرِ الميكروثانية الأولى'. الآن أسألك أيهما في رأيك ظهرَ أولاً: الوعي أم تفرُّغ الطاقة الهائل الذي وقعَ في تلك الثانية الأولى؟

بل أَلَمْ تَزْعَمْ أنه قد يكون 'هناك شيء في الأعلى، في ما وراء أو ما قبل الزمان والمكان اللذين ولَّدَهما الانفجارُ العظيم'؟ إنها كلماتك أنت. وبالتالي، ألا ترى أن اعتبارَ الانفجار العظيم بداية كل شيء يَنْطوي على التحريف؟ إن ما نعرفُ أنه لُغزُ العالم الأكبر قد لا يكون إلا مُجَرَّد استمرارية صَارِمة من حالةٍ إلى أخرى.

لا أدري يا سولرن. لا، ما عُدْتُ أدري حقاً. إننا لا نعرف شيئاً.

كنتَ أسيرَ اليأسِ في حُلْمِكَ. شعرتَ بحاجةٍ كبيرةٍ إلى أن تَنْقُذَ من نظرتك المادية للعالم. لا بل بلغ بك الأمرُ حدَّ الصلاةِ لإلهٍ لم تؤمن به. هذا بلا ريب مُنتهى العجز.

تُرى، ألا تَسْتَشِفُ أي بارقة أملٍ في إمكانية تَلَاهينا فكرياً؟ ولا حتَّى بعدَ حُلْمِ كذا؟ حُلْمُ جاء كأنه إعلانٌ عظيمٌ نُورٍ عن تحلُّيكِ بِبُعْدِ روحي عميق. وقد استجِبتَ صلاتك. لا بدَّ من أن هذا يعني، أنك لا شعورياً على الأقل، تَشْكُ في مصداقية علمانيتك.

أَلَمْ تَمَرَّ قَطَّ بِأَيِّ تَجَارِبٍ يَا سَتَايْن؟ أَلَمْ تَخْتَبِرْ فِي يَوْمٍ شَيْئًا يُمْكِنُكَ تَأْوِيلُهُ أَنَّهُ تَلْمِيحٌ رُوحِي أَوْ تَجَاوُزِي؟
تَعَلَّمْ أَنَّ السَّاعَةَ لَمْ تَتَجَاوَزِ الْعَاشِرَةَ بَعْدَ، وَلَيْسَ فِي نَيْتِي اللُّجُوءَ إِلَى السَّرِيرِ فِي وَقْتٍ قَرِيبٍ.

بَلَى، وَاجْهَتْ شَيْئًا - أَخَذَ مَجْرَاهُ خِلَالَ سَنَةِ ١٩٧٠. كُنْتُ قَدْ عَزَمْتُ عَلَى إِخْبَارِكَ بِهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ تَمَوُّزٍ، عِنْدَمَا جَلَسْنَا بَيْنَ أَطْلَالِ كُوخِ الرَّاعِي الْمَغْهُودِ، وَمَا عَوَّقَنِي إِلَّا رَغْبَتِي فِي إِخْرَاجِ ذَلِكَ الْحُلْمِ الْمَسِيطِرِ عَلَيَّ مِنْ نِظَامِي. ثُمَّ ظَهَرَتِ الْعُجُولُ، وَتَعْرِيفُ مَاذَا حَالَ دُونَ أَنْ تَتَبَادَلَ حِوَارًا يُذَكَّرُ وَنَحْنُ نَهْرَعُ عَائِدِينَ. أَعْتَقَدُ أَنَّ الْمَوْقِفَ تَحَدَّثَ عَنَّا بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ، وَالْإِقْرَارُ بِهَذَا وَنَحْنُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ مُؤَلَّمٌ. كَانَ هُنَاكَ شَيْءٌ مَا، كَمَا تَعَلَّمِينَ، جَعَلَنَا فَجْأَةً مُخْرَجِينَ قَلِيلًا مِنْ بَعْضِنَا. وَعَلَى الْفَوْرِ مَا عَادَ لَدَيْنَا مَا يُقَالُ. وَلِذَا اقْتَرَحْتُ أَنْ نَبْدَأَ عَلَى الْأَقْلَى فِي اسْتِخْدَامِ الْبَرِيدِ الْإِلِكْتُرُونِيِّ الْعَجِيبِ لِتُرَاسُلِ. تَتَذَكَّرِينَ أَنَّنِي أَشْرْتُ إِلَى هَذَا وَنَحْنُ فِي الْأَسْفَلِ عِنْدَ مَيِّدَانِ الرَّمَايَةِ وَمَخْزَنِ الْحُبُوبِ الْأَحْمَرِ. وَحَالَمَا عَثَرْنَا عَلَى زَوْجِكَ فِي الْمَكْبَةِ، انْقَطَعَتْ جَمِيعُ سُبُلِ الْحَدِيثِ بَيْنَنَا. وَكُنْتُ قَدْ فَكَّرْتُ فِي أَنَّهُ يُمْكِنُنَا نَحْنُ الثَّلَاثَةُ الْإِتِّهَاءَ إِلَى تَنَاوُلِ الْقَهْوَةِ مَعًا، وَذَاكَ لَمْ يُقَدَّرْ لَهُ الْخُدُوثُ.

كَانَتْ قَدْ مَضَتْ سَنَةٌ عَلَى رَحِيلِكَ عَنِّي قَبْلَ أَنْ يَصِلَنِي خَبَرٌ مِنْكَ. طَلَبْتِ مِنِّي أَنْ أَحْزِمَ أَغْرَاضَكَ وَأُرْسِلَهَا إِلَى "بِيرْغَن". لَمْ تَكُنْ مَهْمَةً سَهْلَةً، كَمَا أَلْمَعْتَ فِي رِسَالَتِكَ الْأَخِيرَةِ، لِأَنَّ مُعْظَمَ مَا اقْتَنَيْتَاهُ، اشْتَرَيْنَاهُ مَعًا. عَشْنَا فِي الثَّقَةِ نَفْسَهَا مِنْذُ أَنْ كُنَّا فِي الثَّاسِعَةِ عَشْرَةَ، لِذَا صَعُبَ عَلَيَّ أَنْ أَرْسِمَ بَعْدَ خَمْسِ سِنَوَاتٍ خَطًّا فَاصِلًا بَيْنَ مَا هُوَ لَكَ وَمَا هُوَ لِي. وَأَظُنُّ أَنَّنِي بَسَطْتُ يَدِي بِمَا يَكْفِي بَحِثٍ لَمْ تَخْرُجِي خَالِيَةَ الْوَفَاضِ. كَانَتْ الْقِيَمَةُ الْعَاطِفِيَّةُ نَحْتُلُ مَرْكَزَ الصَّدَارَةِ، وَكُنْتُ أَعْرِفُ الْأَشْيَاءَ الَّتِي تَعَزِّيْنَاهَا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا، مَعَ أَنَّهُ

ليس هناك أي قاعدة تنصّ على أن ما يُقدّره المرءُ أكثر من غيره هو بالضرورة أقلّ أهمية للشخص الآخر، والأمْرُ هو غالبًا على النقيض من هذا. تذكرين بلا ريب ذلك الجرس الزُّجاجي الذي اشتريناه من "سمولاند" بعد أن قصّدا "سكين". على الرغم من أنني أنا أيضًا كنتُ متعلّقًا به، حرصتُ على لفّه بعناية بمناديل ورقية وأرسلته لك. عساه وصلك سليمًا، وعساه ما زال قطعة واحدة.

سمعتُ مرّةً حكايةً عن زوجين أرادا الانفصال. أجمعا على أن الانفصال هو أفضل خطوة يُقدّمان عليها، وبروح تعاونية أخذًا يقتسمان كلّ ما لديهما من كُتب. وسرعان ما تبَيَّن أن أي كتاب يريد أحدهما الاحتفاظ به، هو الكتاب الذي يرغب الآخر بشدّة في الحصول عليه. تكرّرت هذه الحالة مع المزيد من الكُتب التي حاولا اقتسامها، ثم إذا بهما ينغمسان في مناقشة بعض الأعمال الواردة في تلك الكُتب، واكتشفا أنّهما أكثر تناعُمًا من أن يفترقا. ما زالا إلى اليوم معًا، وهما ينظران إلى ما وقّف وراء تخطيطهما للفراق أنه مرحلة ثانوية لا قيمة لها أبدًا.

في حالتنا قامت الكُتب بدور كبير ولكن بتأثير معاكس. ما يدور في خلدي الآن مكتبتك الخاصة، وعلى وجه التحديد كتاب مُعيّن فيها. وأنت تعرفين أي كتاب أعني. أحيانًا يتضمّن كتاب واحد قوّة مُدمّرة أكثر من أي "مرحلة ثانوية".

ما كذتُ أحزم أغراضك وأرسلها لك، إلا وشعرتُ بأن فراقنا قد وُسم بحتم المصادقة. لم نحتاج إلى وثائق عندما عشنا معًا، ولم نحتاج إلى أي منها في فراقنا.

من بعد ما ذهبتُ إلى مكتب البريد وشحنتُ لك الصناديق الثلاثة في ذلك الصباح لم أعُد إلى البيت. ركبْتُ الفولكسفاغن وقُدْتُها على الطريق السريع حول المدينة ثم انحدرتُ إلى "دراميسفين" كما قد أفعلُ أنا وأنت في أي وقت، لأنني لم أكن على يَبَنَة من وجهتي إلا بعد أن خلّفتُ "سانديكا"

ورائي في طريقي إلى "سوليهورغا" و "هونيفوس".

بعد خمس ساعات تجاوزتُ "هاوغاست أوول". ثم أوغلتُ في التقدُّم جنوباً، وصعدتُ إلى هضبة "هاردانيرفيدا"، حيث أوقفتُ السيارة وتلمستُ طريقي إلى غيِّمنا إياه. تسكَّفتُ في تلك الأنحاء، ثم جلستُ لفترة ليست بالقصيرة، قبل أن أعودَ إلى السيارة وأنطلقَ مبيتعداً.

بدا المكان كما لو أننا لم نغادره إلا في اليوم السابق. زحفتُ إلى قلب 'كهفنا' ووجدت فيه أريكتنا إلى جانب إِرءاء الحَمَل الذي تركناه على طبيعته. ففي تلك الأيام رأيتُ أن المزارعَ قد يعتَبره تعويضاً في حال عثر شخصٌ ما عليه وهو يجمع قِطيع الخراف. أردتُ دائماً أن تُفني ديونك. إلا أن ذلك الإِرءاء بقي في مكانه من غير أن يمسه أحد.

لا أستطيعُ القولُ إن الدُّخان كان ما زال يتصاعدُ من موقد النار، لكنني وقعتُ على بقايا أغصان العرعر وأفنان البتولا المتفحمة مُتناثرة حيث تركناها بين أكوامِ الحجارة. عثرتُ على آثار أخرى كثيرة لنا هناك. ووجدتني أنخرطُ على نحوٍ شبه منتهجي في مُهمّة أقرب إلى تَعَقُّبِ آثار مُتلفٍ. اكتشفتُ أنكِ خَلَفْتِ ورائكِ فردةً من قَفَّازكِ الأخضر، وقطعة نقدية من فئة خمسة "كرونر"، وكذلك دُبُوس شَعْر من المغَدَن الخفيف. إنما ألا يَخْرُقُ دُبُوس الشَّعْر قوانين العصر الحجري؟ لا أتذكّرُ أنكِ استخدمتِهِ، وأرجّحُ أنه سقطَ من جيبيكِ ليس إلا. فشعرنا أصبحَ بعد فترة أشعثَ ومُتَفِشاً. اعتبرنا مُستَحضرَّاتِ التنظيف والشامبو من المنوعات، واستَعْضنا عن الصابون بأوراق البتولا القَرَمَة والأشنة والطحالب. عثرتُ أيضاً على بعض خُطَافَاتِ الصَّيْد التي صنعناها، ووَحَزَتِي شيء من الخِزْي من كثرة الحَسَكِ المتَّبَعِثِ خارج كهفنا، إلا أنني واثقٌ من أنهم فعلوا الشيء عينه في الكهف "الكرومانيوني" المشهور. بل أظنُّ أن هذا ما قاله أحدنا للآخر. يحقُّ لنا أن نتصرّفَ بشيء من الفوضى، قلنا. كان مُهمّاً لنا أن نعيش تجربة أصيلة قَدَر الإمكان. نظرنا إلى أنفسنا على أننا مجردَ بَشَر، بَشَر فقط. وأنا

ما تَحْطِئُنَا عَتَبَةَ الْحَيَوَانِيَةِ إِلَّا تَوًّا، مَا عَنَى أَنَّهُ يَنْبَغِي عَلَيْنَا عَدَمُ التَّحَلِّي بِكَثِيرٍ
مِنَ اللَّبَاقَةِ، بَلْ عَلَيْنَا أَنْ نَكُونَ فَظَّيْنِ وَمُتَحَفِّزِينَ نَوْعًا مَا.

ثُمَّ، مِنْ غَيْرِ أَيِّ تَهْمِيدٍ - لِأَنَّ ذَلِكَ طَرَأَ فَجَاءَةً - شَعَرْتُ أَنَّ زَمَانَ نَفْسِي قَدْ
أَقْلَتَ مِنِّي، وَأَنِّي ذُبْتُ فِي الطَّبِيعَةِ الْمُحِيطَةِ بِي. حَدُوثُ هَذَا هُنَاكَ فِي ذَلِكَ
الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ بَدَأَ وَلَيْدَ الصُّدْفَةِ، لِأَنِّي لَمْ أَفْعَلْ شَيْئًا يَسْتَدْعِيهِ. كُنْتُ
بِبَسَاطَةِ مَغْمُورًا بِفِكْرَةٍ أَنْ مَا دَرَجْتُ عَلَى اعْتِبَارِهِ 'أَنَا' أَوْ 'لِي' مَا عَادَ
سَارِي الْمَفْعُولِ؛ وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا وَهْمًا.

سَلَّمْتُ نَفْسِي، وَهَذَا لَمْ يُولَدْ فِيَّ أَيِّ شُعُورٍ بِالْخَسَارَةِ، بَلْ مَنَحَنِي شُعُورًا
بِالْعِنَقِ وَالْخُصُوبَةِ، لِأَنَّهُ تَزَامَنَ مَعَ امْتِلَئِي بِفِكْرَةٍ أَنِّي أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَنَا
الْبَائِسَةِ الَّتِي مَا يَرَحْتُ أَقْلَقُ عَلَيْهَا مِنْ قَبْلِ. لَمْ أَكُنْ أَنَا فَقَطْ لَا غَيْرَ. نَعَمْ هَذَا
مَا أَدْرَكْتُهُ بِكُلِّ بَسَاطَةٍ. كُنْتُ أَنَا، وَكُنْتُ أَيْضًا الْهَضْبَةُ الَّتِي مِنْ حَوْلِي
بِأَسْرَهَا، الْبِلَادُ بِأَكْمِلِهَا، لَا بَلْ كُلِّ مَا هُوَ مَوْجُودٌ، مِنْ أَدَقِّ يَرْقَةٍ صَغِيرَةٍ إِلَى
الْمَحَرَّاتِ فِي الْأَعْلَى. كَانَ كُلُّ ذَلِكَ أَنَا، وَكُنْتُ أَنَا كُلِّ ذَلِكَ.

تِلْكَ الْحَالَةُ مِنَ الْوَعْيِ الَّتِي وَجَدْتُ نَفْسِي فِيهَا يَتَعَذَّرُ وَصْفُهَا. شَعَرْتُ
وَأَدْرَكْتُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ أَنِّي الصَّخْرَةُ الَّتِي أَقْتَعِدُ - وَتِلْكَ الَّتِي هُنَاكَ، وَتِلْكَ
وَتِلْكَ، وَكَذَلِكَ كُنْتُ نَبَاتُ الْخَلْنَجِ، وَثِمَارُ "الْكُرُوبِيرِي" وَالبَتُولَا الْقَرْمَةِ
الَّتِي تُجَلِّبُنِي. ثُمَّ تَنَاهَى إِلَيَّ تَغْرِيدُ الرَّقْزَاقِ الذَّهَبِيِّ الْخَزِينِ، وَذَلِكَ كَانَ أَنَا
أَيْضًا: أَنَا مَنْ غَرَّدْتُ، وَأَنَا مَنْ اسْتَرْعَيْتُ انْتِبَاهِي إِلَى ذَلِكَ التَّغْرِيدِ.

ابْتَسَمْتُ. إِذْ لَطَالَمَا كَانَتْ لَدَيَّ تَحْتَ سَطْحٍ مُكَدَّرٍ مِنَ الانْطِبَاعَاتِ
الْحِسِّيَّةِ، وَمِنَ الْإِرَادَةِ وَالرَّغْبَةِ، هَوِيَّةٌ أَعَمَقُ شَيْءٍ سَاكِنٍ وَهَادئٍ مُرْتَبِطٌ
بِكُلِّ مَا فِي الْوُجُودِ، وَالْآنَ، أَصْبَحَ ظَاهِرًا لِي فِي اللَّحْظَةِ الْمَعْبُوشَةِ، وَغَدًا
سَطْحِي الْهَائِجِ رَاقِعًا. أَدْرَكْتُ أَنِّي كُنْتُ ضَحِيَّةَ أَكْبَرِ خُدْعَةٍ فِي الْعَالَمِ،
خُدْعَةٍ افْتَرَضَ أَنْي شَيْءٌ مُنْفَصِلٌ انْفِصَالًا تَامًا عَنْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ. لَمْ أَكُنْ
بِالتَّأَكِيدِ اخْتَبَرْتُ أَيِّ شَيْءٍ يُمْتُ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ بِصِلَةٍ. بَلْ عَلَى النَّقِیضِ،
كَانَتْ صِلَتُهُ بِهَذَا الْعَالَمِ جَذَرِيَّةً.

سيطرَ عليَّ شعورٌ بغياب الزَّمن. لا يَسَعُنِي القولُ إنني شعرتُ كما لو أنني انفصلتُ عن الزَّمن، بل شعرتُ تقريباً أنني نُسِحتُ فيه، ولم أُنسَجْ فقط في اللحظة الراهنة العابرة التي عِشتُ، إنما في الزَّمنِ كُلِّهِ. لم أَكُنْ أَعِيشُ حياتي وحدي فقط. لم أَكُنْ فقط الـ هُنَاكَ والـ آنَذاكَ، كنتُ الـ قَبْلُ والآنَ والـ بَعْدَ. كنتُ أُنَمُّ في جميع الاتجاهات، وهذا ما سأواصلُ فِعْلَهُ دائماً، لأن الكلَّ واحدٌ، والواحد والكلُّ أنا.

ثم بدأتُ الأشياءُ كُلِّها تتلاشى، التجربةُ التي أَصِفُ كانت تجربةَ عَرَضِيَّة. أُتِيحُ لي في أنائها أن أَلْقِيَ نظرةً سريعةً قَريبةً على الخلود، على ما وَجَدَ من قبلي وما سيُوجَدُ من بعدي، مع أن الحالةَ نفسها لم تستغرقِ إلا ثواني فقط. إلا أن تجربةَ خروجي من الجسدِ هذه أَكسَبَتَنِي بصيرةً جَدِيدَةً كُلَّ الجَدَةِ، بَعْدَما عَرَفْتُ أنني سأَحْمِلُهُ معي طَوَالَ حياتي.

أُظَنِّني أَفْضَتُ كفايةً في الحديثِ عن تجربةٍ أو حالةٍ الوَعْيِ تلك. وعلى الرغمِ من أن ما حاولتُ استرجاعَهُ كان أَصِلاً تامَّاً، أَعْتَقِدُ الآنَ باستيعابِ متأخِّرٍ أَنَّهُ من الممكنِ أيضاً إلى درجةٍ مُعَيَّنَةٍ بلوغُ هذا الإدراكِ من خلالِ الفِكرِ النَّقْيِ.

نقولُ غالباً إننا من العالَمِ، في الكَوْنِ أو على الكَوكب. جيّد. إنَّما، ألا تَرَيْنَ أَنها قد تكونُ لعبةً مُغَرِّيةً، عدا عن كَوْنِها تدريجاً على التَّحَرُّرِ، أن نُسَقِّطَ حروفَ الجُرِّ المزعجةِ هذه؟ أنا العالَمِ. أنا الكَوْنِ.

وصلتُ إلى حالةٍ وَعْيٍ يَتَعَدَّرُ التعبيرُ عنها وأنا هناك عند الهضبة. أما ما اختبرته فهو حَقِيقِي. نعم، هذه حَقِيقَةٌ - أنا العالَمِ - هي الحَقِيقَةُ فعلاً.

ما رأيك الآن؟ أَتَسْتَشْفِينِ أي أملٍ لتسويةٍ ما بيننا من خِلافٍ على طول الخطوط التي رسمتها هنا؟ هل أنتُ قادِرةٌ على الاستمتاعِ بفِكرةٍ أَنَّهُ سيكونُ هناكُ أَرانِبٌ بَرِّيَّةٌ وطيورٌ طَيْهُوجٌ وَغِزْلانٌ رَثَّةٌ تَدْفَعُ مُفْعَمَةً بالحَيَويَّةِ في أَرْجاءِ هضبةِ "هاردانيفيدا" على امتدادِ مِئةِ سنةٍ أو أَلْفِ سنةٍ أو مِليونِ

سنة؟ وهل يمكنكِ إلى جانب ذلك أن تشعرِي بطريقة ما بأنكِ أنتِ تلك الوفرة التي ستفيضُ من بعدكِ؟ هل يمنحكِ وعي كهذا ولو ذرةً هدوءَ بال، بقدر ما يمنحكِ إياه تصوُّركِ الأثيري لـ 'أناكِ' الصغيرة وهي تُعمرُ بعد وجودها الدُّثوي لتصبح 'روحاً' في جنة الروح؟

تَحْيَلِي معي المعضلة التالية؛ على الطاولة أمامكِ زَرَّان تستطيعين الضغطَ عليهما. إذا ضغطتِ أحدهما، ستموتين فوراً، ولن يكون هناك حياة فردية لكِ بعدَ هذه الحياة، إلا أنكِ في الوقت نفسه ستضمنين استمرار كل من البشرية وجميع أشكال الحياة على كوكبنا في أزمنة قادمة. وعلى امتداد أجيال تفوق العدِّ والحَصْر ستجري الفتيات الصغيرات على شاطئ البحر الصخري كما فعلتِ تماماً في أواخر الخمسينات. إنني قادر على رؤيتهن الآن بعين خيالي، وأكاد أسمعُ حشود الناس المتجمهرة عند مُنعطف الحياة التالي ذاك. بيد أن هناك زراً آخر على الطاولة أمامكِ، وإذا ضغطته بدلاً من الأول، ستعيشين بصحةً وعافية إلى أن تتجاوزي المئة. إلا أن البشرية جمعاء وكل الحياة على الأرض، وهنا تكمنُ المعضلة، ستموت معكِ حالما يأتي أجلكِ.

فأي الزَّرين تختارين؟

بالنسبة لي أعتقدُ أنني لن أتردَّد في اختيار الأول. لا أحاول هنا ادِّعاء الورع أو الإيثارة، لكنني أدركُ أنني لستُ مجرد أنا، ولستُ أعيش حياتي وحدي فحسب. وإذا تمعنْتُ في العمق أكثر، فأنا الجنس البشري أيضاً، الجنس البشري الذي يحدوني الأمل في أن يستمرَّ في الازدهار بعد رحلي؛ لا بل أرى أنه ينبغي عليه الاستمرار بدافع من رغبة أنانية، لأن مَراسي الكثير مما اعتبره يُمثِّلني مُلقاةً في مكان خارج جسدي. ونحن شبه مُتفقان على هذه النقطة. أنا لستُ هذا الجسد الذي لي فقط، وليست كل الأشياء مرهونة به إن انطلقَ أو وَقَعَ.

لا ننفكُ في وقتنا الحاضر نفع في حبائل خُدعة أن الأنا هي وحدها مَرَكز الكون. ألا ترين أن هذا التهج الحياتي مُرهق جدًا؟ أعني إذا أخذنا بعين الاعتبار حقيقة أن فُرَصَ دَوامِ مِخوَرِ الكون هذا لا تتعدى بضع سنوات أو عقود.

اختبرتُ تحريرًا للروح هناك عند الهضبة. شعرتُ كما لو أن سَراحي أُطلق من عبودية الأنانية. كان ذلك أشبه بتقطع بعض القيود التي ما برحت تُضيق علي الحناق، قيود الأنا أو الذات.

لَدَي بَعْدُ ما أقوله، فهذا ليس كل شيء.

على الرغم من أن الوقت كان في حدودِ الرابعة عندما عدتُ إلى السيارة، رأيتُ أنه يجدر بي التوغّل غربًا قليلًا بدلًا من العودة مباشرةً إلى البيت في "أوسلو". وما لبثتُ أن تجاوزتُ "هاردانيفيدا"، وبدأ لي أن لا مانع من متابعة الطريق إلى "مابودال" أيضًا، ثم ركبْتُ عبَّارةً لأقطع الخليج من "شينسارفيك"، وبعدها قُدْتُ السيارة إلى "نوردهايمسوند" ثم الدرب كُلِّها إلى "آرنا" عبر "كفامسكوغن". حينما أصبحتُ هناك فكَّرتُ في الرجوع، لأن الوقت أشرفَ على المساء، ومسافة العودة إلى "كرينغشو" أكثر من ٤٠٠ كم.

لم أستطع العودة وقد غدوتُ قريبًا جدًا منك، فتابعْتُ التقدُّمَ إلى وَسَطِ "بيرغن" وأوقفتُ الفولكسفاغن الحمراء في "نوردنيس". مضيتُ بعدئذٍ أجولُ في الشوارع. بدا تَصَرُّفي مُناقِيا للمنطق، أدركتُ هذا حتى وأنا أقطعُ خليج "هاردانجر": إنه لَتَصَرُّفٌ أحمق، فقد كان في وسعي أن آتيكِ بأغراضكِ بدلًا من إرسالها بالبريد، ولو أنها معي لوجدتُ غُذْرًا مقبولًا للبحثِ عنكِ.

كنتُ متأكدًا من أنني لن ألبثَ إلا وألتقيكِ في الشارع بعد أن قدتُ السيارة كُلَّ تلك المسافة. انعطفتُ عند إحدى الزوايا، وعندما لم أجدكِ هناك أقنعتُ نفسي بأنني سأصطدمُ بكِ عند الزاوية التالية. أخيرًا، شققتُ

طريقي صعودًا إلى "سكانسن" وطفقتُ أذرعُ ذلك المكان جيئةً وذهابًا لفترة. ومع أنه سبق لي أن زرتُ شقَّةَ والديكِ في "سوندره بليكفين" مرتين تقريبًا، لم تُرَقِّنِي فكرة الوقوف في الخارج أمام البيت، فهذا يمكن أن يبدو مُغرَقًا في إثارة الأشجان. ولم أُحِذِ أيضًا فكرة قرع الجرس. خشيتُ أن أُقْجِمَ والديكِ بيننا وأسبَّبَ لهما البلبلة.

ثم فكرتُ، أنتَ حتمًا ستقومين بزهةٍ مسائية، أنتِ التي لطالما تَمَيَّزَتْ بضبطكِ لإيقاع تحرّكاتكِ وعرفتِ دائمًا أين أنا ومتى سأتي. تيقنتُ من أنكِ ستستخدمين حاستكِ السادسة وتخرجين للقاءني. لكنكِ لم تملكِ حاسةً سادسة يا سولرن، أو لم تملكِها في ذلك المساء على الأقل. لم تملكِها في حال كنتِ في البيت آنذاك، إذ بقدر ما أستطيع التكهّن ربما كنتِ في روما أو باريس. بدأ المطر ينهمر. فمشيتُ عائداً إلى "نوردنيس"، لأنني لم أجد مالا يكفيني للمبيت في فندق، مشيتُ يلزمني الشعور بأنني سألتقيكِ قبل أن أصلَ إلى السيارة. وفي النهاية اضطررتُ إلى ركوب الفولكسفاغن الحمراء وحدي، مُجعدًا الملابس والماء يقطرُ مني. واضطررتُ إلى تشغيل المُحرِّك والانطلاق. أُنيتُ مع ذلك الاعتراف بخسارة المعركة، وتابعتُ البحث عنكِ بينما يَتمتُ خارج المدينة متسائلًا ما إذا كنتِ في طريقكِ إلى البيت بعد زيارة أحد الأصدقاء. بل حتى وأنا في "نوردهايمسوند" لحقتُ قوامًا فيه شبه عابرٍ منك. لم يكنُ أنتِ. نجحتُ في عبور الخليج في الوقت المناسب، وعُدتُ إلى البيت في "كرينغشو" في الصباح التالي. انطويتُ على نفسي وبكيتُ. عاقرتُ المشروب ونمتُ.

لقد يُتَرَّ واجِدنا عن الآخر بعملية جراحية، ولم يتوافر هناك أي مُخدَّر.

حسنًا يا ستالين...

بعد أن كتبتُ تلك الرسالة إليكِ داعبَني أملٌ ضئيلٌ ولكن متلَهِّفٌ في أن تضعَ أغراضِي في السيارة وتعبّرَ بها الجبال، بدلاً من أن تشحنها لي. كانت

فرصتنا الوحيدة والأخيرة. طبعاً فكرتُ فيكَ كثيراً في الأيام التي تلت، وفي ذات مساء خطرَ لي أنك تجوبُ شوارع "بيرغن" حزيناً. تصوّرتُ لكُ جَلَبَتَ لي أغراضي في الفولكسفاغن الحمراء ولا تملكُ الجِراءَ لتأتي وتسلّمها لي شخصياً. لذلك خرجتُ. وفي تلك اللحظة بدأت السماء تمطر، فهرعتُ إلى البيت لأحضرَ مظلةً وفيّ يعتبل شعورٌ ملّح بأنه لا بدّ لي من العثور عليكُ في أسرع وقت. نزلتُ إلى سوق السمك وصعدتُ إلى "تورغالمينغن"، ثم إلى "إنغن"، وعرجتُ على "توستيت" و "تورنيس" أيضاً. ولم أجدك في أي مكان. بعد ذلك ساورني الشكُ في أنك قد جئتُ إلى "بيرغن" أصلاً، إلا أنني في أدنى الأحوال شعرتُ شعوراً أكيداً بأنك في ذلك المساء كنت تُفكرُ فيّ بعمق. وأدركتُ أن كلاً مِنّا ما زال مُولعاً بالآخر.

ثم توالى مرور السنين. ووفق ما أتذكّر أظنُ أنني أرسلتُ لكُ من أجل الشكليات بضعة سطور لأخبركُ بأنني انتقلتُ لأعيش مع نيلز بيتر، ولاجئاً بعد فترة، سمعتُ إشاعات من "أوسلو" تقول إنك التقيتُ بيريت. والغريب في الأمر هو أنني لم أَسرَ بما سمعتُ، لا بل ثارتُ بي الغيرة...

ما أدهشني أكثر من أي شيء آخر قولكُ إنك ذهبتَ إلى كهفنا مرةً أخرى. أنا واثقة من أنني لم أستعمل أي دبّوس شعرٍ آنذاك؛ لا ريب في أنه سقط من جيّبي معطفي الواقى من المطر، وأغلب ظنّي أن قطعة الخمسة "كرونر" تعود لكُ.

ولكن، أتراك عثرتَ على أعقاب سجاثر هناك؟ ألا تتذكّر؟ لم يكن من المفترض بالتأكيد أن نحملَ معنا السجاثر إلى العصر الحجري. ولذلك تحتمُ علينا أن نتوقّف عن التدخين، أو في أدنى الأحوال أن نحاولَ مقاومة الإغراء ونحن هناك في الأعلى. وفي يومٍ، عُدتُ من مُهمّة صيدٍ، وشممتُ بوضوح رائحة السجاثر تفوحُ منك، لأنك لم تستطع التهرّب من تقبيلي. اعترفتُ حالاً بفعلتك خجلاً أشدَّ الخجل مما أقدمتُ عليه. انزعجتُ كثيراً يا ستاين. وسارعتُ إلى مناولتي الطّلبة التي أصبحت طعاماً لنار مُحيمنا في ذلك المساء.

إنما ما انطباعك عن التجربة التي اختبرتها عند الهضبة؟

نعم، أظنني أفهم ما وصفته يا ستاين، وربما ليس هناك كثير من التناقض بين ما اختبرته وبين ما أؤمن به أنا شخصيًا. بمقتضى معايير المادية، الكل واحد بلا جدال - مع جذور متأصلة في انفجارك العظيم طبعًا. لكن السنا أولاً وقبل كل شيء أفرادًا منقطعي النظر؟ السنا بشرًا فريدين من نوعنا؟ هذا ما ذأبنا على قوله يا ستاين. واليوم أود أن أضيف عليه أننا كائنات روحية.

من الطريف بلا شك التفكير في أن الذرات والجزيئات التي يخلفها جسدي من بعدي يمكن أن تصبح في المستقبل جزءًا من أرنب بري أو ثعلب جبلي. بالنسبة لي هي فكرة مُسلية، فكرة مُسلية فقط، ولا شيء أكثر. لأنني في تلك الحالة ساكون مَيِّتة يا ستاين! ألا ترى ما أعني؟ هذا ما عجزتُ عن تقبل التفكير فيه في الأيام الخوالي؛ أنني لن أكون أنا إلا لفترة قصيرة قادمة. أردتُ أن أدم! واليوم لدي أمل أكثر روعة مما لديك، إيمان أكثر روعة.

لن أحاول التقليل من أهمية التجربة الجميلة التي اختبرتها عند الهضبة في السنة التالية على رحيلي. فقط أشكك في مدى انسجامك فعلاً مع المنظور الطولي أو الوجودي الذي رسمت خطوطه، وكذلك لست متأكدة تمامًا من درجة نزاهتك في وصفك المتعلق بالاختيار بين الزرَّين. فأنت في النهاية فعلت نقبضه في حلمك. ضحيت بمستقبل البشرية جمعاء ليتسنى لك أن تعيش بضع ثواني بائسة أكثر. وفوق كل شيء أثبت أنك تمتلك الفترة على قتل رفيقي رحلتك للحصول على مؤونتهما من الأوكسجين، حتى يقيض لك فقط أن تجلس في مركبتك الفضائية وتتفرج على نفسك في مرآة وعيك لفترة وجيزة.

ذاك لم يكن إلا مجرد حُلْم. ألم تفعلني في الأحلام أي شيء لن تُقدِّمي على فعله في عالم الواقع؟

صحيح طبعًا، وأعرف أنك شخص يُراعي حقوق الآخرين. كانت طريقتك المتأنية في توضيب أغراضي وإرسالها إلي مؤثرة للغاية. لم تتصرف بلوم قط، وكنت كريمًا. آنذاك واسيت نفسي بقولي إنك على الأقل احتفظت بالفولكسفاغن. وهي في جميع الأحوال لم تقف حجر عثرة بيننا، لأنني لم أكن في تلك الأيام أمتلك رخصة قيادة. ولنت من نفع ثمن تبديل الزجاج الأمامي وتركيب مصابيح أمامية جديدة.

لما الجرس الزجاجي فما هو على حافة النافذة أمامي، وما أنا أحمله اللحظة وأقرعه. هل بلغك وقع رنينه؟

نعم سمعته! وما زالت "سمولاند" حية في ذاكرتي. كانت هناك بجمعتان من سلالة البجع الصامت تسبحان متجاورتين في البحيرة الصغيرة كثيرة القصب تلك. أشرت إليهما وقلت إنهما أنا وأنت، إنهما روحانا نراهما على سطح الماء الساكن كالبلور. هل تتذكرين؟ عندئذ، طوقتك بذراعي وطرحت رؤية أخرى، رؤية تعادل فكرتك في حماسها واتقادها. قلت، هما روح العالم. إنهما لا تعرفان هذه الحقيقة، ومع ذلك هما روح العالم تسبح هناك.

لطالما كنت رومانسيًا في ما يتعلق بالطبيعة. وأنت أيضًا لم تختلفي عني في ذلك. إلا أنك شعرت إلى جانب ذلك أنها تُشكل لك تحديدًا. بيريت نائمة. هل في نيتك كتابة المزيد الليلة؟

أتذكرُ البجعتين. ولتذكرُ أننا لم نتوصل إلى اتفاق بخصوص ما ترمزان إليه.

سأكمل الكتابة وأبعثُ برسالةَ الليلة، ولا داعي لأن تُكابر وتبقى مستيقظًا. فمَ
ونم يا ستاين، وفي وسعكَ أن تقرأ خواطري في الصباح.

حتمًا لا. لا شيء يحولُ دون أن تُبحرَ في لُحَّةِ هذه الليلة معًا.

ماذا قلت؟ لعلَّكَ لستَ جالسًا هناك تحتسي المشروب؟!!

على رسلك يا سولرن، لا أظنُّ أنني قلتُ شيئًا وِقَحًا؟ تابعي الكتابة فقط.
أنا متأكد من أنني ساكون صاحبًا.

لا بأس. ساحاولُ الاختصار قَدْر المُستطاع، لأنكَ تعرف الكثير ممَّا أنوي
قوله.

منذ زمن طويل، وأنا بعدُ في العاشرة أو الحادية عشرة من عمري،
حدث أن قضيتُ إجازتي الصيفية عند جدتي في "إيتر سولا". في أحد تلك
الأيام اصطدم طائر سنونو بناقذة غرفة جلوس جدتي. ورأت جدتي أن علينا
التريث قبل أن نفعلَ أي شيء بالطائر، لأنه في بعض الأحيان، كما قالت،
عندما تصطدم الطيورُ بالأواح النوافذ على ذلك النحو تُصنع فقط، ومن
المُحتمل أن تفيقَ بعد ربع أو نصف ساعة وتعودَ إلى الانطلاق. قالت إن
بعض الطيور تُكتب لها حياة جديدة، حياة بعد الموت، لأننا نعتقد أن الطائرَ
ميت حقًا، ثم فجأة نراه ينتفض ويندفع مُحلِّقًا في الهواء من جديد. مضى
النهارُ ومضت الليلة ولم يَمُ السنونو؛ في الصباح التالي وجدناه مطروحًا

حيث هو مثل فضلات منسّية، وكان عليّ أن أنفقه. كان عليّ أن أفعل ذلك وحدي، فوالداي في "بيرغن"، وجدتي التي خطرَ لي أنها تستطيع مدّ يد المساعدة لي، قالت إن دفن الطيور من مهامّ الأطفال؛ تحدثتُ أنا وأنتُ عن هذه التجربة مرّات كثيرة ونحن نناقش ارتباطها بنوباتي الانفعالية.

منذ ذلك الحين، من الزّمن الذي كنتُ لا أتجاوزُ فيه العاشرة أو الحادية عشرة، كَبُرْتُ وكَبُرَ معي شعور مرير بأنني لستُ إلا طائرًا مُعَفَّرًا بالوحل، بأنني أنا الطبيعة. فارقتُ من حينها عهدَ الطفولة. خَلَفْتُ من حينها عُمُر البراءة الهنيء ورائي.

نعم يا ستاين، إنه من المُدهش التفكيرُ في أن الأطفال الذين يأتون إلى هذه الدنيا، يبقون، إلى فترة طويلة نوعًا ما، قادرين على أن يعيشوا من أجل اللحظة فقط، بلا خَوف من الموت، بلا أَسَى ولا أحزان. بالنسبة لي، انتهى فصلٌ من حياتي وأنا ما زلتُ في العاشرة أو الحادية عشرة من العمر؛ ولا شكّ في أن هذه الحياة أخذت بعد ذلك منحىً جديدًا مختلفًا. كنتُ، حتى قبل أن أنضجَ جنسيًا بوقتٍ طويل، مذعورةٌ دائمًا، وكنتُ بمعنى ما شَيْءَ مُفَصَّلة عن هذا العالم - غالبًا ما وجدتُ نفسي أرتحلُ بعيدًا عنه مهما اختلفت الأحوال.

ثم جئتُ إلى "أوسلو" وقابلتك. لم تكن فترة ما بين طفولتي ولقائكَ مهمّة. ولا يكاد ذهني يسترجع منها إلا ذِورات لا نهائية من دروس البيانو والتّمس والفروض المنزلية، وفي مرحلتها النهائية تجارب سطحية في الغزل والنّمْل. إلا أننا اجتمعنا في صميم ألمي نفسه، فقد كان فيكَ شيء مجروح، أو ربما هو جانب أقرب إلى الاتّسام بالجدية. أُرَكَتْ مثلي أنه لا أملَ لأمثالنا، بصرف النّظر عن العالم القاتم من حولنا. كنّا في مُنتهى العُري، واحدا مُستسلم بلا مقاومة للآخر ولكل الأشياء الطبيعية والباعثة على النشوة التي نستطيع تحفيز بعضها بعضًا بها - على الرغم من أن هذه، على الأقل لبعض الوقت، كَبَحَتْ فينا جِماحَ تلك الأفكار عن النّهاية الأخيرة التي كنّا نتّجه إليها.

إلا أن نظرتي إلى الوجود كانت ثنائية دائماً، نظرة لازمتني منذ ذلك الصَّيف مع جدتي. رأيتُ أننا أرواحٌ في المقام الأول، وأن الرُّغبات الجسدية التي تدفقتُ فينا باستمرار، كانت مع سهولة إشباعها شيئاً مختلفاً جداً، شيئاً عَرَضِيّاً في ذُكُورتنا أو أنوثتنا. ومع أنها شيء لطالما أبهجنا في لحظات الفُوران الجنسي، اعتبرناها في أغوار أعماقنا سطحية ومُتَقَلِّبة. ألم تنظر إليها هكذا أيضاً؟

كنتُ أستمعُ بنشوةٍ أعمق من أعمق محيط عندما تأتي أحياناً من وراء ظهري، تضع يدك على جبيني وتتفَسَّسُ في رقبتي، ثم تُنَحِّي شَعْرِي برفق وتهمس في أذني، مرحباً يا روح! تلك مناسبات سَعِيَتْ فيها وراء شيء آخر غير الجنس، ولم تكن مناسبات نادرة. آنذاك، كنتُ من غير ريب تخاطبُ روحي الأصيل. تفتح باباً على خَانةٍ مُختلفة كل الاختلاف، على خَانة الروح، وكانت روحي هي التي تجيب. غالباً ما قلتُ، أنت... وهذا كان كافياً. وأي شيء آخر غيره يصلحُ في مثل ذلك المقام؟ يصلحُ لأن نقوله رُوحٌ لروح؟ ما كان اقتربلي منك ليلُغ أكثر من ذاك.

ثم بدأتُ تُخالِجني تلك الرؤى المُسْبِقة عنك يا ستاين. من المهم جداً أن أنكرَكَ بها في هذه المرحلة. كنتُ في معظم الأحيان تعودُ إلى شَفَتَا في "كرينغشو" قبل نصف ساعة من عودتك الفعلية. عندما سمعتُكَ في بعض المَرَّات الأولى تُقِيل، بلغ بي تيقني من قدومك حدَّ الجري نحو الباب لَاسْتِقْبَالِكَ، وأحياناً لأغويكَ أيضاً، حتَّى تُلحَقَنِي فوراً إلى غرفة النوم. وفي مَرَّاتٍ أخرى أكون قد خطَّطتُ من قَبْلِ لِكُلِّ شيء. بيد أنني عرفتُ طَوَالَ الوقت أن ذلك ليس إلا شعوراً مُسَبِّقاً، وأَنَّكَ في طريقكَ إلى البيت فَحَسْب. وهكذا عملتُ على الاستفادة من تلك المشاعر المُلهِمة. توافر لي الوقت دائماً لأحضِرَ الطاولة وأعدُّ وَجِبَةً طعام شهية، أو لأُجَمِّلَ قَبْلَ محاولة القيام بإغرائِكَ - تكلَّلتُ تلك المساعي بالنجاح في أي مرة بذلتُ جهوداً جادة. أنا متأكدة من أَنَّكَ تتذكَّرُ عودتكُ إلى البيت على أضواء الشموع وغرفة نوم

دافئة في أمسيات شتوية معينة. ولطالما عرفت ما ينتظرك: أسمىته حمام الحب البخاري، ولطالما انبريت تضحك ضحكة ترقب. إنني لا أكتب عن هذا يا ستاين إلا لأذكرك بما تميزت به من 'قابلية' لما تدعوه الآن المسائل الباطنية. كان ذلك واقعاً حياً بالنسبة لي طوال الفترة التي قضيناها معاً على الأقل.

وهذا ليس كل شيء. ففي صباح يوم من أيار سنة ١٩٧٦، قبل فترة قصيرة من ذهابنا إلى الجبال لنتنزه في أرجاء جبل الجليد 'يوستدالسبرين'، التفت نحوك بعد استيقاظنا، مذهولة من حلم أبصرته. وإذ رأيته أحتق فيك بتركيز عميق توجست شراً في الحال.

أكانت نوبة انفعال جديدة في طريقها إلى الظهور؟

'ما الحكاية؟' سألتني.

'حلمت أن 'بيورنبو' ميت،' أجبت.

'هراء،' قلت. فأنت رأيت دائماً أن هذه الهواجس هراء.

'لا، أنا أعرف أن 'ينس بيورنبو' ميت،' كررت. 'فهو ما عاد يستطيع

الاحتمال أكثر يا ستاين.'

ثم انفجرت بالبكاء. كنا قد قرأنا للتو كتاب "الحلم والدولاب" عن الكاتب رانفيلد بولسن. كنا في الواقع قد قرأنا تقريباً جميع الروايات التي ألفها 'ينس بيورنبو'. غضيت. مضيت إلى المطبخ وشغلت المذياع، وبعد برهة يسيرة بثت نشرة الأخبار. كان الخبر الأول عن موت 'ينس بيورنبو'. عدت إلى السرير ومعالج القلق بادية عليك، واستلقيت ثانية بقربي.

'ماذا تفعلين يا سولرن. توقفي عن هذا! أنت تخيفيني.' قلت.

نعم، كنت أختبر تلك الرؤى المسبقة، وبتكرار أكثر من الآن. ومع إحساسي بروحك أو طيفك في البيت قبل نصف ساعة من قدومك، ومع أحلامي التحذيرية التي كنا نلصق برهانها الواضح في اليوم التالي، انتهى بي المطاف شيئاً فشيئاً إلى قبول فكرة أننا نحن البشر نمتلك روحاً حرة بالفعل، أعني

روحاً مُسْتَقَلَّةً عن الجسد الذي تسكنه في اللحظة الراهنة.

هذا وحده لم يَكْفِ ليُوفِّقَ بيني وبين قَدْرِي بِوصْفِي 'ضَيْفَةً فِي عَالَمِ الْوَاقِعِ'. كُنْتُ أَبْكِي، وَكُنْتُ شَجَاعًا، وَتَحَمَّلْتُ يَا سَتَاينَ. فِي أَحَدِ أَيَّامِ أَيْلُولِ جَاعَتِي إِحْدَى هَذِهِ النَّوْبَاتِ. لَعَلَّكَ تَتَذَكَّرُ أَنَّهُ كَانَ يُفْتَرَضُ بِي أَنْ أَقَابِلَكَ خَارِجَ قَاعَةِ الْعَالَمِ اللَّغَوِيِّ "سُوفُوسِ بُوغِي"، بَعْدَ مُحَاضَرَةِ "إِدْوَارْدِ بَاير" عَنِ "فِيرْغلَانْد". هَذَا كُنْتُ يَوْمَهَا بِقَدْرِ مَا اسْتَطَعْتُ، ثُمَّ قُلْتُ، 'سُتَكُونِينَ فِي هَذَا الْمَسَاءِ حَسَنَاءَ الْمَسْرَحِ الْمَفْتُوحِ'.

كَانَ ذَلِكَ الْمَسْرَحُ الْمَفْتُوحُ مَكَانًا بَاهِظَ التَّكَالِيفِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْنَا، إِلَّا أَنَّنَا كُنَّا قَدْ حَصَلْنَا عَلَى الْقَرَضِ الطَّلَابِيِّ مِنْذُ فِتْرَةٍ وَجِيزَةٍ، وَسَرْعَانِ مَا جَعَلْنَا مِنْهُ أَمْسِيَةً خَاصَّةً بِنَا. تَنَاوَلْتُ نَوْعَيْنِ مِنَ الْحُلَى! عَامِلَتُنِي دَائِمًا بِمُنْتَهَى اللَّطْفِ يَا سَتَاينَ، لَوْلَا أَنَّكَ مَعَ مَرُورِ الْوَقْتِ غَدَوْتَ أَكْثَرَ فَاكْثَرَ نَزْوَعًا إِلَى الشُّكُوكِيَّةِ. شَعَرْتُ بِكَ تَفْقِدُ انْتِقَادَكَ الْعَاطِفِي. لَمْ تَعَامِلْنِي بِفُظَاظَةٍ يَوْمًا، إِلَّا أَنَّكَ تَحَوَّلْتَ إِلَى شَخْصٍ مَتَهَكِّمٍ - أَعْنِي مِنْ نَاحِيَةِ الْحِسِّ الْمَعْرِفِي. سَلَكْتَ مَرَارَتَكَ تِلْكَ الدَّرَبِ، أَمَّا مَرَارَتِي فَاتَّبَعْتَ، كَمَا نَعْلَمُ، دَرْبًا أُخْرَى؛ دَرْبَ الْأَمَلِ.

تَوَارَدَ الْخَوَاطِرُ وَالْإِدْرَاكُ الْمَتَجَاوِزُ لِلْحِسِّ وَالِاسْتِصْصَارُ كَانَتْ ظَوَاهِرَ أَصِيلَةٍ بِالنِّسْبَةِ لِي مِنْذُ أَنْ أَرَهَفْتُ السَّمْعَ لِأَوَّلِ شُعُورِ مُسْتَبَقٍ يَتَعَلَّقُ بِكَ. أَسْمَعُكَ تَأْتِي، وَلَا تَأْتِي فِي الْوَاقِعِ، ثُمَّ تَأْتِي لِأَحَقًّا!

وَعِنْدَمَا عَثَرْنَا عَلَى ذَلِكَ الْكِتَابِ، كَانَتْ الْأُسُسُ قَدْ وُطِّدَتْ قَبْلَهُ. وَلِذَلِكَ لَمْ أَجِدْ نَفْسِي غَيْرَ مُهَيَّأَةً تَمَامًا لَمَّا وَاجَهْنَا مَرَاةَ الْعَنَبِيَّةِ بَعْدَ بَضْعِ سَاعَاتٍ فَقَطْ مِنْ عَثُورِنَا عَلَيْهِ. كُنْتُ فِي نَهَايَةِ الرَّحْلَةِ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ وَجُودِ جَوَابٍ فِي مَكَانٍ مَا، لَا بَدَّ مِنْ وَجُودِ مَفْتَحٍ فَرَجٍ...

مَا الْإِنْسَانُ يَا سَتَاينَ؟ كَمْ مَرَّةً تَحَاوَلْتُ التَّفَكُّرَ فِي أَنَّهُ تَحْتَ الطَّبَقَةِ النَّسِيجِيَّةِ الرَّقِيقَةِ مِنْ بَشَرَةٍ فَخْذُكَ الْحَسَّاسَةِ أَوْ سَاعِدُكَ هِيَ لَحْمٌ وَبِمْ؟ هَلْ حَاوَلْتَ مَرَّةً أَنْ تَتَخَيَّلَ كَيْفَ تَبْدُو لِمَعَاوُكَ وَأَجْهَازِكَ لِلدَّخْلِيَّةِ؟ أَعْنِي مِنَ الدَّخْلِ! وَهَلْ ذَلِكَ

كنت؟ أين يمكنك العثور على مركز ذاتك؟ ذلك الشيء الذي يعبر عن الأنا ويفكر بوساطتها ويحلم عن طريقها؟ في مرارتك أو في طيالك؟ في قلبك أو في أعصابك؟ أو ربما في أمعائك الدقيقة؟ أم هل يجدر بنا أن نبحث عن ذلك الجوهر في النفس وفي الروح، في ما هو كائن، لأن البقية كلها ليست إلا دقائق ساعة وخيبات رمل في ساعة رملية. تلك البقية هي لا شيء إلا الكثير جداً من القشور، إذا سألتني رأيي.

سأقزُ الآن عائدة إلى مساننا قبل الأخير في الفندق القديم، المساء السابق على الصباح الذي طلبت فيه منّا ابنة أصحاب الفندق الاعتناء ببناتها الصغيرات لنصف ساعة بينما تقصد المصروف.

كنا قد انتهينا من احتساء "براندي التفاح" وقررنا الصعود إلى غرفتنا لننام. عرجنا في طريقنا على صالة البليارد ولعبنا دورة. يدهشني التفكير الآن في أن تلك الكرات العاجية الثلاث ما زالت في مكانها هناك على الجوخ الأخضر. ولتساءل عن عدد المرات التي وقعت فيها تلك الكرات.

كانت صالة البليارد تضم مكتبة الفندق وحائته، وبعد أن أحرزت عشر نقاط في اللعب في حين لم تحرز أنت إلا ثمانين، قصصنا رفوف الكتب كما نفعل عادة عصرًا أو مساءً. كانت الرفوف تحتوي على مجموعة ضيقة النطاق ومحدودة من الكتب، كلها قديمة جدًا، ومعظمها عن الجغرافيا وعلم طبقات الأرض وعلم طبقات الجليد. ثم - كما لو أنه لحن غير ذنبوي في وسط تلك المجموعة - وقعت يدي فجأة على كتاب الأرواح، المنشور في "كريستيانيا" سنة ١٨٩٣، أي بعد سنتين فقط من تشييد ذلك الفندق العريق. كان الكتاب منقولاً عن الفرنسية، طبع في باريس سنة ١٨٥٧ وعنوانه الأصلي: "Le Livre des Esprits".

حدث هذا في المساء السابق على لقائنا بمرأة العنبيّة. وحتى قبل أن نغادر صالة البليارد بدأنا نقلب صفحاته - ولا أستبعد أن أكون قد قرأت لك بعض

الجمل منه قبل أن نأخذه إلى غرفتنا. هناك، تسلينا في البداية بتبادل القراءة جهزاً. وعلى الرغم من أن الكتاب قد حرره شخص حي، كان في الواقع بياناً متتابعاً عن تجليات من عالم الأرواح. وتضمن مجموعة تصريحات من أرواح موتى، تواصلوا مع الأحياء في لثناء جلسات تحضير الأرواح. في نهاية تلك الليلة أتذكر كيف وضعت الكتاب على طاولة السرير الجانبية وقلت لي، 'أفضل أحياء امرأة واحدة حية بين ذراعي على عشرة أرواح في الغابة.' وراقني الإطراء. أعترف بهذا صراحة، فقد كنا في الليل.

من تلك اللحظة، بذر شيء ما في داخلي. وفي غضون أسابيع قليلة تحولت إلى إنسانة روحانية، أو روحانية مُدَيَّنَة. غداً ذلك مُعْتَقِدِي، وغداً عزائي، وغداً سلواي.

في عصر اليوم التالي التقينا امرأة العنينة. خطرت لي الآن فكرة، وهي فكرة غريبة نوعاً ما، ولكن ألا ترى أنك حالما تبدأ في فتح ذهنك لشيء، يبدأ ذلك الشيء في فتح نفسه لك؟

على أي حال، لا طائر يمكنه الدخول إلى بيت مغلق النوافذ. هو فقط سيصطدمم بالزجاج.

ما إن تختبر أموراً مثل الشعور المُسَبِّق وتوارد الخواطر والاستبصار أو الأحلام التنبؤية، يتضح لك أننا من وراء الأجساد التي نسكنها مؤقتاً، أرواح أيضاً، أرواح تنتمي إلى نظام مختلف كل الاختلاف عن النظام المادي. وبقدْر ما يتعلق الأمر بي، كانت الدرب من هناك إلى الإيمان بخلود الروح قصيرة جداً.

والآن، ماذا عنك، كيف هي الأحوال في "أوسلو"؟ هل نمت يا ستاين؟

لا، أنا أقرأ. إنها تُقارب الثانية بعد منتصف الليل، أما زلت أمام حاسوبك؟

نعم.

إن هذا لا يكادُ يُصدِّقُ يا سولرن. لقد وجدتِ حقاً خلاصاً. وجدتِ مَنْقَذَ حُرِّيَّةٍ لروحكِ المذعورة... وما تقولينه يجعلني تقريباً أُعْطِلُكِ، لأنني أفتُ وحدي في العراء أرتعشُ برُداً خارجَ إيمانكِ الجديد هذا.

لم ألبسَ بَعْدَ نهائياً من جَلْبَكِ إلى الداخل. سأعطيكِ دليلاً يا ستاين. أعيدكِ بهذا. سأفعلكِ في يومٍ ما.

ولن أمنعكِ من المحاولة. لعلي لستُ على فِئَةٍ تامةٍ من وَحْدَةٍ وجودي. أما الآن فربما يجدرُ بنا الذَّهابُ إلى النوم...

نعم، يُستَحَسَنُ أن نأويَ إلى الفراش الآن. تَخَيَّلِ أَنَّكِ لِمَرَّةٍ واحدةٍ سَبَقْتِني إلى قَوْلِ هذا.

تُصبحين على خَيْرٍ يا سولرن!

تصبح على خَيْرٍ!
آه، شيءٌ أخير. خَصَّصْتُ الغَدَ بأكمله لأحلول أن أعيدَ سَرْدَ ما جرى بالضبط في تلك الحادثة قبل ما يزيد عن ثلاثين سنة. سأنالُ قِسْطاً من النوم

أولاً، ثم سأسْتَقِرُّ وأنْفِرَغْ لهذه المَهْمة في أبْكر وقت ممكن من صباح الغد. سأحاول أن أرسلَ ما أكتبه أولاً بأول على مدار اليوم. إذا كان في وسعك أن تتجولَ في جميع آفاق تاريخ الكون في رأسك، فغيرك أيضاً قادر على تذكُّر كلِّ ما مررنا به في تلك الآونة. هل يناسبك هذا؟ هل نحن مُستعدَّان أخيراً لنُترجمَ تلك الأحداث إلى كلمات؟

سُغَامِر. تعاهدنا مرَّةً على ألا نتطرَّقَ إلى ذلك ثانية، وربما نستطيع الآن أن نتحرَّرَ من عبء الترامِنا الصَّمت. حمّني ما كنتُ أحتسِي طوال المساء؟

"كالْفادوس"! أشمُّ الرائحةَ من هنا. تَفَاح مَقَطَّرٌ...

أُفَحِمَتِي! أرى أنكِ تملكين بالفعل نوعاً من الحاسة السادسة على الرغم من كلِّ شيء. أتمنّى لكِ نومًا هنيئًا، وسنلتقي مُجدِّدًا في الصباح.

نومًا هنيئًا يا ستاين!

عصر يوم قُرابة أواخر شهر أيار سنة ١٩٧٦ صدف أن كنتُ أقفُ أمام نافذة غرفة نومنا في "كرينغشو". كانت النافذة مُشرعة والجوُّ في الخارج معتدلاً وأنا هناك ألتشّقُ شذاً الربيع. لم أعرف أهو عطر السنة الجديدة ما عيّنته، أم هي الرائحة النفاذة لتربة السنة الماضية. استبعدتُ أن يكون مصدرها البراعم الغضّة على الأشجار، ورجّحتُ أنها تفوح من الأرض الرطبة - نرى السنة الماضية الخصب الذي غذى الفسائل الجديدة. رأيتُ عمقاً مُحتاجاً بين شجيرات وهرة تحاول تخويفه. أعاد العمقُ ذاكرتي إلى الطائر الذي اضطررتُ إلى دفنه في "سولند"، ومن جديد هيمن عليّ ذلك الشعور الحادُّ بسرعة الزوال - كانت تُعاودني، كنتُ أتعرضُ إلى واحدة من نوباتي. في البدء، ترقّقت عيناها بالدموع، وصنّع رأسي ألمً فظيع، ثم بكيتُ - أظنُ أن بكائي استهلُّ بأنّة جَزَع. تنبّهتُ إلى ما كان يجري لأنني سمعتُك تدخل الغرفة. تجاوزتُ لوحة القلعة في البيرينيّه، وقبل أن تصل إلي وتلمسني استدرتُ بسرعة ووقفتُ أحملُك فيك. 'سنصبح في عداو الموتى يوماً!' نشجتُ، أو بالأحرى عويتُ. ثم عدتُ إلى البكاء مستسلمةً لك لتهدئ من روعتي. ويبدو أن أفكارك تدافعت محمومةً، وربما فطّنتُ إلى أن اقتراح القيام بدورة تافهة أو دورتين في بحيرة 'سوغسفا' لن يفي بالغرض في هذه المرأة. ويتهاى لي أنني أتذكّرُ كلماتك عيناها التي قلّتها بعد لحظة من تطويقي بذراعيك - درجتُ على لفّ شعري بيدٍ، وضغطُ أسفل ظهري باليد الأخرى. هناك أساليب متعدّدة لاحتضان المرأة، وكانت لديك أساليبك.

'هيا، جفّفي دموعك،' قلتُ. 'منذهب لنتزلّج على جليد 'يوسدالسبرين'."

بعد نصف ساعة كُنّا في السيارة؛ زلّاجتانا على سطحها وحقيّة ظهر كلّ مَنّا في صندوقها. كانت آخر مرّة قُمنا فيها بعمل جنوني هي مشروع ساكني الكهوف على هضبة "هاردانبيرفدا" في الصيف الماضي. وكانت عودة الشمس إلى التّربّع على عرش السماء من جديد إيذاناً لنا بحلول موسم مُجازفات آخر. كم أحببتُها يا ستاين! كم أحببتُ مُجازفاتنا!

كان لا بُدّ من أن يتغيّر مزاجي. وما كدنا نُخلّف "لوسلو" وراعنا حتى انبسطت أساريري، وأساريرك أيضاً. كُنّا في غاية السعادة يا ستاين! قلتُ لا اثنان في هذا العالم بأسره يعرفان بعضهما بعضاً كما يعرف أحدهما الآخر. فقد عشنا معاً منذ أن كُنّا في التاسعة عشرة، وسنواتنا الخمس تلك بدت أقرب إلى أبدية، وعلى الرغم من إهابنا الغضّ كُنّا قد تسارَرنا من قبل عن شعورنا بالتقدّم في السنّ. يُحزِنني التفكير في هذا الآن، ففي تلك الأونة، قبل واحد وثلاثين سنة، كُنّا في مُقْتَبَل الشّباب بَعْد، وحياتنا كلّها مُمتدّة أمامنا.

مَضِينا قَدَمًا بالفولكسفاغن الحمراء، وفيما نحن ننحدر صوب "سوننفولن" قُلنا عابثين إنّنا لسنا رجلاً ولمرأة فَحَسْب، بل أيضاً سنونوتين ترفرفان فوق رؤوس الأشجار الصنوبرية وترقبان الخنفساء الحمراء بعيون الطيور. هل تتذكّر؟ وهكذا تخيلنا أنّنا مَضِينا نلتقِطُ دربنا في وسط الطبيعة وزلّاجتانا على سطح السيارة قبل أيام فقط من مَطْلَع شهر حزيران. وعرفنا أنه في تلك اللحظة عينا لن يُعْتَر على أنقى تناغم في العالم إلا في داخل الفولكسفاغن الحمراء؛ السيارة التي اشتغلنا لِصَيْفَيْن حتى ندفع ثمنها.

ارتوى تلهُفنا إلى الكلام على طول بحيرة "كروديرين" وطريق "هالينغدال" - تحدثنا عن كلّ شيء! - وبعد أن تخطينا "بروما" أمكنّا أن نبقى دقيقة أو حتى دقيقتين من غير أن نقول شيئاً. كُنّا في الحقيقة ننظر إلى الأشياء نفسها، ولذا لم نجد داعياً إلى التعليق على كلّ ما رأيناه. وفي فترة ما جلسنا هناك من غير أن ينبس أي مَنّا بكلمة لأربع أو خمس دقائق كاملة، ثم انفجر أحدهما ضاحكاً، وسرعان ما تبعه الآخر، وهذا أعادنا إلى الدردشة ثانية.

ومع أننا انطلقنا وانطلقنا، بقيت "هيمسيدال" وغرب النرويج على مسافات
أمامنا. وعند قمة "هيمسيدال" شاهدنا، إلى جانب الطريق الأيمن في فُسحة

مُخصَّصة للوقوف المؤقت، قاطرة ضخمة تحملُ لوحةً أجنبية. وقد أتينا على
نُكرها عدة مرّات في الأسبوع التالي. ثم بعد بضعة كيلومترات إلى الأمام
لاحظنا امرأة تسير على مقربة من الطريق في الاتجاه المؤدي إلى الجبال،
سالكة لتجاهنا نفسها. انظري! هتفت ثم أردفت، أترينها؟

كنا في فترة متأخرة من المساء، ولستهجنّا رؤية امرأة تمشي وحدها في
الخلاء في ذلك الوقت من اليوم. السبب الوحيد الذي منعنا من دعوتها إلى
الركوب معنا أنها لم تسلك الطريق السريع نفسه، بل مضت على طول سبيل
يحاذيه إلى اليمين، علاوة على أنها مشّت ميمّة الجبال عبر الأرض السبخة
بخطوات جدّ عازمة. كانت تلبس ثياباً رمادية وعلى كتفها شالٌ وردي.
وجودها هناك جعل المشهد خلّاباً، وصورة تلك المرأة بشالها الوردي في
ليلة الصيف الزرقاء وهي تمشي بخطوات سريعة حازمة نحو الجبال في
مهمة ما، رسخت في ذهني كأنها لقطة فيديو - لا لم تكن تسعى إلى الجبال
يا ستاين، بل أرادت عبورها قاصدة الغرب مثلاً. خففت إذ ذاك من سرعة
السيارة، وفي لحظة مرورنا بها، التفتنا معاً للنظر. في الأيام التي تلت
توافقت روايتنا في وصف ما بدت عليه المرأة. امرأة كهلة، قلنا. امرأة في
منتصف العمر وعلى كتفها شالٌ وردي. أو قلنا، امرأة في الخمسين من
عمرها...

ستاين، هل أنت صاحٍ؟ هل نهضت باكراً مثلي؟ خلال هذه الساعات وأنا في
غرفتي الصّغرى أكتبُ لك اليوم، ينبغي أن تبقى قريباً مني. قبل جيلٍ بحاله
تعاهدنا علي ألا نعود أبداً إلى الإشارة إلى ما حدث في الجبال. والآن نحن
معاً في حلٍ من ذلك العهد.

أنا هنا يا سولرن. ما زلنا في أوّل الفجر، إلا أنني جالسٌ في المطبخ وأمامي كوب "إسبريسو" مضاعف الكمية، وأنا أقرأ خواطرك بمجرد إرسالكِ لها.

وسأفعل هذا على مدى اليوم؛ سأبقى مُتصلاً بالإنترنت طوال الوقت. في غضون لحظات سأنابط حاسوبي المحمول وأغادرُ إلى المكتب. لا أعتقد أنني عَمَدْتُ في يومٍ إلى مغادرة البيت في مثل هذه الساعة من الصباح إلا اليوم - الآن فقط بدأ الضياءُ يتسلّجُ. ما زالت بيريت نائمة، وقد كتبتُ لها ملاحظة أعلمتها فيها أنني استيقظتُ باكراً ولم أستطع العودة إلى النوم، وذكرتُ فيها أيضاً أن لدي أشغالات كثيرة.

ما عليكِ إلا أن تتابعي سردكِ. إنني أنتظر على أحرّ من الجمر. أنتِ تذكرين الوقائع أفضل مني.

كان مزاجكِ قد تعرّك قبل بلوغنا قمة "هيمسيدال" لأن فرصة حصولنا على سرير نبيت فيه ليلتنا بدت ضئيلة، وفجأة، بعد أن تعدّينا المرأة ذات الشال، بدا لكِ أنكِ تستهينين. أخذ الأمر في البداية منحى الدُعابة، أو يمكن أن أقول مجرد كلام عابر، لولا أنكِ أمسيتَ شيئاً فشيئاً أكثر صفاقة وإحاحاً وأقلّ عَفوية، وهذا جعلني أعود إلى الاستغراق في الضحك، لولا أنكِ في تلك الأثناء وجدتَ مخرجاً فرعياً في الطريق وانحدرتَ بالسيارة بضعة أمتار نحو دربٍ حرجيةٍ مُحاذيةٍ للنهر. كان الجوُّ جافاً، وخيلَ إليّ أنكِ ستستكرجني إلى الخلدج بين الأشجار. لكن منعك البردُ، وكانت هناك أيضاً تلك التَصَوّرات المُلحّة حول 'لقطف أجود ما هو موجود' التي بدأت تستحوذُ عليكِ. ولسببٍ غير معروف، علقتَ لسوء حظِّكِ في برائن نزوة خيالية لممارسة حركات بهلوانية في داخل الخنفساء الحمراء، زاعماً كما قلتِ إنكِ لستَ قادراً على تحرير نفسك من هذه الصُّور الحادة الواضحة في ذهنكِ. أنا لستُ إلا بشراً، قلتُ. وإذ نظرتُ إليك مُقَطَّبة، نورّت عينيكَ وأكنت، نعم أنا لستُ إلا بشراً.

عُذْنَا بعد نصف ساعة إلى الطريق العام، حيث زِدْتُ من سرعة السيارة. وجعلنا الارتواء وقد أَشْبَعْنَا ظَمًا رَغْبَاتَنَا نشعر كما لو أننا قَذِيفَةٌ تَخْتَرِقُ الهواء. إلى التلال، إلى التلال! التَقَطْتُ أعيننا لاقِئَةً أَعْلَمْتَنَا أننا نسلُكُ الطريق السريع ٥٢، واعتبرنا هذا غريبًا جدًا، لأننا معًا وَلِدْنَا في تلك السنة. إنها طريقُ النُشوء، قلت، أو ربما أنا من قلت ذلك.

بما أنني لم أملك رُخْصَةً سِوَاقَةٍ في تلك الأيام، فلا جِدَال في أنك أنتَ مَنْ جِلس وراءَ المِقْوَد طَوَالَ الوقت. وربما كان الليلُ في منتصفهِ آنذاك، لكن، حتى لو صَحُّ هذا، فإنه عادةً لا يُخَيِّم دَامِسًا في تلك الفترة من السنة. أما الجوّ الذي تَمَيَّز بالحرارة في النهار، فغدا باردًا وضبابيًا. أضِف إلى كلِّ ذلك أننا كُنَّا في أعالي الجبال. ولو أنها كانت ليلةً خريفيةً لَبَانَتْ المعالمُ من حولنا على نحوٍ أَفْضَل، ولتَسَنَّى لنا على ضوء مصابيح السيارة الأمامية أن نرى طريقنا بمزيد من الوضوح. أما في وَضْعِنَا ذاك فتراغت لنا الأشياء كلها زُرْقَةً نَشْوَى وسُهَاذًا مُتَبَلِّذًا. والاستثناء الوحيد هو ذلك الوميضُ اللامع الذي لمُحَنَاه في الأفق البعيد. أَظَنَنْتِي عُلَّقْتُ عليه - وهو شيء أَبْدَيْنَا بالتأكيد ملاحظات عنه في الأيام التي تَلَتْ.

قُرْبَ بحيرة "إِلْدِرْفَانْتِن" عند مَسْقَطِ الماء وحدود المقاطعة بَغَتْنَا في الغُلس شيء أحمر وخافق. أحسنا بالسيارة تصدم جسمًا وبأحزمة الأمان تُحَكِّم حولنا. لَبَطَلَتْ، أو لِنَقُلْ خَفَّتْ سُرْعَتُنَا، ثم بعد لحظات قلائل زِدْتُ من سرعة السيارة ثانية. مرَّت علينا فترة فاصلة بحدود أربع أو خمس دقائق قبل أن ينطق أي منّا كلمة. وهذه الفترة هي حتمًا اللَغْز الأكبر، إذ في أي شيء فَكَّرْتُ حينها يا ستاين، وفي أي شيء فَكَّرْتُ أنا؟ مع أننا ربما ساعتهما لم نعمل فكرنا في أي شيء، بل كُنَّا واقعين تحت تأثير الصَّكْمَةِ فقط.

ما كدنا نَقْطَعُ مسافة البحيرة الطويلة حتى طالعتنا عربةٌ بيضاء قادمة من الاتجاه المعاكس، تَعْبُرُ الجبال ميمَةً الشرق، وعندئذٍ قلت بصوتٍ مُتَحَشِّرَجٍ، 'أَعْتَقْدُ أننا دَهَسْنَا شخصًا!'

بدا ذلك كما لو أننا فَكَّرْنَا بدماع واحد، لأن الخاطِرة نفسها رلودتني في تلك اللحظة عينها. التفتَ نحوي فجأة مُسْتَطَلَعًا، فبادرتُ إلى هزِّ رأسي بقوة.

‘أعرف،’ أجبتك. ‘دهسنا المرأة ذات الشال الوردي.’

كنّا قد تخطينا نزل جبل ‘برايستولن’ وبلغنا أول منعطفات المنحدر الحادة، وهناك عند المنعطف كبحت الفرامل بقوة واستكرت بالسيارة. ومع ذلك لم تقل شيئاً، قرأت أفكارك من تبيس كتفيك وتشنج وجهك: ربما هي في حاجة إلى المساعدة. ربما أصيبت بجراح خطيرة. ربما تسببتنا في مقتل إنسان...

رجعنا بعد دقائق قليلة إلى حيث اصطنمت السيارة بشيء في غبش الليل الباهت. لوَقَفْتَهَا، وقفزنا معاً خارجها. كان الجو بارداً وثمة ريح طرية، إلا أننا لم نبصر أحداً. اكتشفت أن مصباح الجانب الأيسر الأمامي قد تحطم، والتقطت بعض شظايا الزجاج من الدرب والقناة. تَلَفَّتْنَا ننظر حولنا، وفجأة أشرت إلى شال وردي مطروح بخفة على الخلع عند الأرض المنحدرة نحو البحيرة، ولا يبعد إلا مترين تقريباً عن السيارة والدرب. بدا الشال نظيفاً وأملس، كما لو أنه رفع للتو من على كتفي امرأة، وكان يرفرف ههههههههه مع الريح كأن الحياة تسري فيه. لم يجرؤ أي منا على لمسه، فقط وقفنا نمنع النظر في شتى الاتجاهات. وعلى الرغم من أنها كانت ليلة صيفية لم نلمح أثراً لمخلوق واحد في أي ناحية. ولم نملك دليلاً ننتبّه إلا الشال الوردي. عثرت على شظيتين أخريين من بقايا المصباح الأمامي، ثم انطلقنا مبتعدين، بسرعة.

مرة أخرى وجدنا أنفسنا مذهولين من الصدمة. كنّت ترتعد وأنت تضغط دواسة البنزين وتمسك المقود، ولا أتصور أن أحداً قال أي شيء، إلا أن ما بلغته روحانا من تمازج جعل كل منا قادراً على قراءة أفكار الآخر ومشاعره.

في الساعات والأيام التي تعاقبت حللنا كل ذلك بدقة، بل حتى ونحن ما زلنا بعد في الخنفساء الحمراء، لم يسألونا الشك في أننا دهسنا المرأة الغامضة التي لمحناها في الأرض السبخة قبل انغماسنا في لحظة لهونا

للقصيرة عند النهر. أذى بنا توقُّفنا هناك إلى منحها قَصَبَ السَّبْقِ الْمُعَيَّت. كان الشالُ الوردي هو الأثر الوحيد المتخلف عنها. ولذا جَنَحَ بنا للتفكير إلى أن العربة البيضاء هي التي قامت حتمًا بانتشال المرأة المُصابة أو الميتة من على قارعة الطريق ومضت بها. رأينا أن هذا هو التفسير للوحيد المرجح الذي يبرّر سبب اختفائها. أخذت هذه الحادثة مجراها قبل سنوات من ظهور الهاتف الجوال، وفي تلك الآونة ضجُّ رأسانا بصورٍ عن سائق العربة البيضاء وهو يتوقَّف ليطلُب النجدة عند أوّل مزرعة في "هيمسيدال"، وليتصل بكلٍّ من الشرطة والإسعاف طبعًا، أو وهو يختار حَسَم القضية بنقل ضحية ثقتنا المفرطة بأنفسنا إلى المستشفى في "غول". وفي الوقت نفسه عبرت في رأسينا فكرة أنه ربما لا جدوى من مسابقتنا الرّيح. فثمة احتمال في أن يكون سائق العربة البيضاء قد مضى عاقد العزم والنية إلى مركز الشرطة في "هيمسيدال" ليسلمَ جُثمان امرأة وجدّه على الطريق السريع ٥٢. وهناك قد لا يتوانى أيضًا عن الإشارة إلى الغولكسفاغن التي رآها مقبلة في الاتجاه المعاكس.

انحدر بنا الطريق غربًا، وعندما تجاوزنا "برايسٽولن" للمرة الثانية ووصلنا إلى المنعطف الحادّ حيث استدرنا، توقفت على نحو مفاجئ عند شفا الوادي وأمرتني بالخروج من السيارة. اخرجي! كان كل ما صحت به. اخرجي!

كنت شديد الهياج. قلتُ لنفسِي لعلَّ الشرُّ استحكم بك، وتريد الآن إلحاق الضرر بي. ومهما يكن من أمر خشيتُ معارضتك، ففككتُ حزام الأمان وترجلتُ من السيارة. وقفت في الطريق أبكي، ستاين يا ستاين. ماذا تتوي أن تفعل؟ أتتوي تركي هنا؟ وذهب بي هُلعي إلى التفكير، هل يقتلني؟ ليتخلصَ من الشاهد الوحيد؟ وما يُدريني ربما قتلٌ من قبل... ثم، إذا بكَ تزيد من سرعة دوران المُحرك وتندفع بالسيارة صوب الهاوية. هل أردتَ وضع حدٍّ للمسألة كُلّها بالانحراف خارج الطريق؟ عدتُ إلى النواح: ستاين! يا ستاين! في تلك اللحظة صدمت مقدمة السيارة بركام حجري عند حافة

المنحدر، ثم خرجت منها بحزم وتقدّمت المصباح الأمامي اليميني لتتأكّد من أنه تهشم هو الآخر. هذه الصدمة بعجت الرقراق، لا بل طوّته إلى الداخل. 'لماذا فعلت هذا؟' سألتك.

لم تكلف نفسك عناء النظر إلي.

بيد أنك ما لبثت أن قلت، 'هنا تعرّضنا لحادثة طفيفة بالسيارة.'

جلّبت قطع الزجاج المتكسّرة التي أحضرناها معنا من الجبل ووضعتها أمام الركام الحجري إلى جانب الشظايا الجديدة. بدا ذلك كما لو أنك تضع اللمسّات الأخيرة على أخيرة صور مقطّعة.

كان الليل في منتصفه والجو بارداً. خطر لي أن السيارة قد لا تستجيب، إلا أنها لحسن حظنا لبّتنا على الرغم من رجرجتها. كنّا متعبين ومُشوَّشين، إلى جانب أننا تعرّضنا إلى الاصطدام بالركام الحجري الضخم الذي لا بدّ أنه وُضع عند المنعطف ليؤدي دور حاجز يحول دون التدهور في الجرف.

انحدرنا صوب 'بورغند'، وفرّقنا لما انبثقت أمامنا كنيسة القضيّان فجأة من خلال بصيص الفجر الضبابي كأنها ديكور منصّعة جنائزية. كانت الكنيسة مطوّقة بشواهد أضرحة قديمة، وأمام إحداها تحترق شمعة - شمعة وريدية اللون في ليلة الصيف البكماء.

تابعنا التقدّم بإزاء النهر فيما بدأت معالم الصبح تلوح، وعلى النقيض ممّا درّجنا عليه لم ننفك في ذلك اليوم نزداد هلعاً كلما أمعن الفجر في الانبلاج. عندما وصلنا إلى 'ليردال' كان النهار قد بدأ تقريباً، إلا أننا أجمعنا على أن الوقت مبكّر جداً ومتأخّر جداً للحصول على سرير؛ وهذا قد يثير الشكّ أيضاً، علاوة على أننا لم نملك أي رغبة في استعراض السيارة المتضرّرة، وهكذا قطعنا الكيلومترات العشرة الأخيرة إلى ميناء العبّارات في 'ريفسنيس'. هناك، أوقفنا السيارة عند الرصيف - السيارة الوحيدة في المنطقة - لأنه كان أمامنا عدّة ساعات من الانتظار إلى حين وصول العبّارة الأولى، وقرّرنا أن نرجع مسنّدي مقعدينا إلى الخلف أملاً بإغفاءة قصيرة. لكننا في الواقع كنّا مُستسلمين لمصيرنا. قلنا إن الشرطة ستقبض علينا حتماً

قبل أن نقطع الخليج. فنحن ليس لدينا أي مكان آخر نقصده إلى أن تأتي العبارة، وحتى لو ماتت المرأة، حتى لو لم يعد في مقدورها الإفضاء بأي شيء، فإن سائق العربة البيضاء رأى في طريقه فولكسفاغن حمراء على سطحها زلاجات قبل دقائق فقط من عثوره على المرأة المصابة أو الميتة في مهبط الدرب. كنا متأكدين من أن الشرطة قد تصل في أي لحظة.

ما دَعَاها يا ترى إلى المشي في أعالي الجبال وفي مُنتصف الليل؟ لا أبنية هناك ولا حتى كوخ صيد واحد أو مقصورة قنص. لم تكن متأنقة في ملبسها على نحو استثنائي، وثيابها لا تشبه في شيء ما يلبسه هواة السفر على الأقدام.

مَنْ كانت تلك المرأة؟ وهل لدينا ما يؤكد أنها كانت وحدها هناك في الأعلى؟ أو أنها في صحبة آخرين؟ يُحتمل أنها مُخَرَّطة في أمرٍ ما؟ فنحن في جميع الأحوال لاحظنا وجود القاطرة للضخمة عند قمة "هيمسيدال". مَنْ يدري، لعل شيئاً ما كان يجري في الخفاء...

كنا أشد استغفاراً من أن يداعِبَ النوم أجفاننا. وضوء النهار أفرَعَنَا. اتكأنا هناك بعيونٍ مُغمضة نتهامس كأطفالٍ يستضيفهم بيت آخر. أشرتُ إلى أننا لم نتحرك إلا درجتين أو ثلاثاً في كوكب صغير يدور حول شمسٍ من الشموس. فاضتت بسرعة قاتلاً إن الشمس ليست إلا واحدة من مئة ألف مليون نجم آخر في درب التبانة. ومن هذه النقطة أفلَعْنَا. قلنا إن ما تعرضنا له ليس إلا مُويجة في محيط عظيم. اضطررنا إلى تكبير المنظور وتضخيمه. اضطررنا إلى إبعاد بؤرة التركيز عنا. وأنداك لم أجد الدموع تترقق في عيني، ولم أقل بلا تبصُر أننا في يوم ما لن نبقي هنا. هذا ما عاد ملائماً: ما عاد المناخ المناسب للحزن؛ حلَّ الشعور بالذنب محلَّ الحزن، ربما لأننا الآن تسببنا في موت إنسان آخر. استقبلتُ الفكرة إلى درجة أنني لم أتكاسر على الإفصاح عنها. أما هاجسها فلازمني طوال

الوقت. هاجس إنهاء حياة مخلوق! أنا التي عجزت دوماً عن تقبل فكرة غيابي غير الواعي في يوم ما عن سطح كوكبنا، وبالتالي عن سائر الكون الجسيم، بل عن كل شيء. عنك أنت أيضاً يا ستاين، نعم، عنك أنت أيضاً.

بعد ذلك الصباح الهشّ عند ميناء العبارات، أعتقد أننا قلّما أتينا في أي مناسبة خلال الأيام القليلة اللاحقة على ذكر المرأة التي دهسنا، أو أشرنا صراحةً بأي طريقة إلى ما حدث. اكتفينا بأن نقول ذلك، إذا اضطررنا إلى التلميح إلى الموضوع، أو ما جرى. إلا أنك في الحقيقة كنت تقود السيارة بالسرعة القصوى هناك على ذلك الصعيد الجبلي؛ كُنّا قد أشرفنا للتوّ على منخفض مُعتدل، فوضعت قدمك على أرض السيارة وتركت الخنفساء الحمراء تفعل كل ما هي مؤهلة له، وربما صدمنا في تلك الأثناء امرأة وقضينا عليها عند هضبة "هيمسيدالفيلي". بيد أننا لم نستطع التحدث عما جرى فعلاً بعد ذلك. فمِنذ لحظة عودتنا إلى البيت في "أوسلو" دُفِنَ هذا الفصل من القصة وكُتِبَ. كيف كان لنا إذاً أن نستمر في الحياة معاً؟ إن الحياة مع الآخر تعني في ما تعنيه تبادل الحديث معه، تعني أن يفكر الشريكان معاً بصوت عالٍ. تعني أن يتشاطرا اللهو والضحك، وأيضاً أن يناما معاً ويلتصق أحدهما بالآخر.

من ناحية أخرى، يجدر بي أن أبادر إلى القول إننا تحدّثنا عن مرأة العنّبة بانفتاح كبير. واليوم، بعد عديدٍ وعديدٍ من السنوات، هي وحدها التي تجعلني قادرة على أن أقول ثانية بلا أي شعور بالخزي إننا أقدمنا على صرع مخلوق وقتله في الجبال. سأعود إلى الحديث عن مرأة العنّبة المدهشة فلا تقلق. أنا فقط أريد التنبّئ في هذه المرة من أنني أروي كل شيء وفق تسلسله الزمني.

وأنت؟ هل وصلت أخيراً إلى مكتبك؟

نعم وصلتُ بالفعل. وبعدَ أن سَجَلْتُ دخولي إلى "آوت لوك" جاءني خلال دقائق إشعارُ أوّل بريدٍ إلكتروني لليوم، وهو منكِ طبعًا. وقد انتهيتُ الآن من قراءته وحذفته.

التفاصيل التي تذكرينها أكثر مما أتذكره. أتساءلُ فقط ما إذا كنتِ تُبالغين في تشديدكِ على أننا حتى في ذلك الأوان خالَجنا تصوّرَ حتمي بأن المرأة التي ارتطمنا بها لم تعرّض للإصابة فقط، بل ماتت من جرّاء الاصطدام. في الواقع هناك احتمال في أن تكون قد تعرّضت إلى ضربة قوية أدّت إلى كَسْر ذراعها ليس إلا، وربما، في هذه الحالة، حصلت على نقلٍ طريق إلى "هيمسيدال" في العربة البيضاء. على أي حال، لا أنكر، وقد جلستُ الساعة في مكثي واستعدتُ الحدثَ كلّهُ، أنه كان دراميًا بما يكفي. أما 'مرأة العيّبة' فأوافقكِ على ضرورة التريث قبل التطرّق في روايتكِ إليها. وستكون لديّ بالتأكيد بعض الآراء المخالفة، وأنتِ عموماً تعرفين هذا.

آراءُ مخالفة! إنني أكاد أشمُّ رائحة المعهد العلمي الذي يحيط بكِ. وبالمناسبة، كيف يبدو؟ أعني مكتبكِ...

أنا في جُحرٍ جداري من تلك الجُحور الجامعية النمّوجية، مكتبٌ مستطيل في مبنى قسم الرياضيات، ويُعرف أيضًا باسم مبنى "نيلز هينريك إيل"، الرُفوف والمنضدة والأرض مُزدحمة بأكوام التقارير العلمية والملخصات الوافية والمجلات الدورية المتخصّصة. واليوم، آخر ما أفكر فيه هو إعارة هذه البيئة الدُنيوية المحيطة بي أي انتباه. ففي أثناء قراءتي على الشاشة لما كتبتِ، شعرتُ كما لو أنني معكِ في الغرفة نفسها أستمعُ إليكِ تروين الحكاية، أو حتى معكِ في السيارة نفسها. لذا تابعي حديثكِ. أوقفنا

السيارة أمام ميناء العبّارات ذاك عند شاطئ "سونيفيورد" الجنوبي.

في حدود الساعة الرابعة صباحًا كان الضياء قد شاع، ولم تمض فترة إلا وارتفعت الشمس، ومع ذلك أبقينا عيوننا مُطبقة بقوة وتابعنا التّهامس. ذكرنا بعضنا بعضًا بما في حياة العصر الحجري من أمان، سواء قبل آلاف السنين أو قبل سنةٍ على هضبة "هاردانبييرفيدا". وحتى هذه الأخيرة بدت لنا عند ذلك موعلةً جدًّا في البُعد عن ليلتنا وما عانيناه فيها. فمهدنا بالحلم طريقًا عاد بنا إلى أمسياتها الطويلة حينما كان في وسعنا الاستلقاء خارج الكهف وإمعان النظر في أفلق الليل الكوني. خِلنا آنذاك أننا قادران على أن نخترق بأبصارنا المسافات الشاسعة، وأننا حدّقنا مباشرة في صميم مُعجزة السماء. بل كدنا نألَم من تَماسُّنا الفُجائي المُباشِرِ ذاك مع وَخزِ للألءِ أنوارٍ تفصلنا عنها سنوات ضوئية بعيدة. تلك الأنوار؛ تلك الأضواء العجيبة، جارِتنا المرئيات اللاتي على الرغم من كل شيء تدافعن في الفضاء لآلاف السنين قبل أن يَحططن رِحالهن في عقولنا حيث استقبلن وأُخمدن. تلك الأشعة الطالعة من الأجسام السَّماوية النَّاتِية التي ما فُتتت تسافرُ وتسافرُ بلا توقّف قبل أن تلامس شبّكيات أعيننا - مواصلة رحلتها إلى بُعْدٍ جديد وحكاية خرافية أخرى عبّر نقابِ الجهاز الحسّي ومنه إلى أعماق الرّوح مباشرة. ثم، في إحدى الليالي بزغ القمر هلالًا، مثل منجل حادّ في البداية، منجل ما لبث أن راح ينمو شيئًا فشيئًا مع كلّ ليلةٍ جديدةٍ إلى أن غمرَ ببريقه الفضّي هضبة "هاردانبييرفيدا" وقُبة السماء. جاعنا فرجًا، ليس فقط لأنّه أتيح لنا التطلّع في عيون كلِّ منّا ليلًا، بل أيضًا لأنّه أمدّ مقلتنا وروحنا بمُهلةٍ أراحتنا من التفرُّس في تلك الأغوار الكونية كما دَلّنا أن نفعلَ حتى ذلك الحين.

بينما قَبَعنا في الخنفساء الحمراء نغمغمُ عن العصر الحجري والكون وماضينا البعيد، أبقينا عيوننا مُغمضة وبقي الليل بالنسبة إلينا مُخيّمًا - اتفقنا على أن نواصل تخيلها ليلةً مَبِيَّتٍ أطفالٍ في الخارج لأطول مُدة ممكنة،

بِغَضِّ النظر عَمَّن يوقظنا في ختامها؛ سواء طاقم العبارة أو الشرطة - ثم، لما تنأى إلينا تردأُ أزيز العبارة البعيد في الخليج عرفنا أن ليلتنا على وشك أن تنتهي، وأن على أحدا أن يستعيد بسرعة ذكرى رشاش الشهب الغزير مساءً نحَرْنَا ذاك الحَمَل. كان مشهداً مذهلاً لَجَم السَنتا. عَدَدنا ثلاثة وثلاثين شهاباً سقطت في بحر دقيقتين أو ثلاث، بيد أن ما اعتَرانا من لنهار عطلَ فينا الحُضور الذَّهني لنفكر في الأمنيات التسع والتسعين التي من حَقِّنا أن نتمناها. كُنَّا في جميع الأحوال قد نَعِمْنَا بوجبة جيدة. فقد أَكَلْنَا لحم حَمَل مشوي، ووضعنا المزيدَ منه جانباً للأيام القادمة. والأمنيات؟ حسناً، لدينا بعضنا بعضاً.

قَطَعْنَا الخليج. تفحصَ أفرادُ طاقم العبارة مُقدِّمةَ السيارة ومَحْصوها، ثم نظروا إلينا بتعاطف. فالوضعُ مع أضرارِ الحوادث لا يختلف عنه مع الإصابات الجسدية: يمكن المرء تخمين حَدَثةَ عهدها. شُهود، فِكرنا، وأظُنُّ أننا تهامسنا عن شيء مُشابه. كُنَّا نعرف طبعاً أن مؤسسة الإذاعة النرويجية درجتَ حتى في تلك الأيام على تقديم بثٍ ليلي تُورِد فيه مُوجزًا للأخبار على رأس كلِّ ساعة. أما ما لم نعرفه فما كانوا يستمعون إليه حينذاك في عُرفة القيادة.

لكنهم لَوَحُوا لنا مُودِّعين لما وصلنا إلى اليابسة في "كاوبانغر"، وتابعنا رحلتنا غرباً نحو "هيل". ومن هناك كان يتعيَّن علينا أن نستقلَّ مركباً إلى "فيارلاند"؛ نقطة بداية رحلتنا إلى جبل الجليد. جرى هذا قبل الإنترنت بزمان بعيد، إلا أننا كُنَّا قد أحضرنا معنا دليلَ الجبلِ الزُّمنيِّ النرويجي، ومنه عرفنا أن ما لدينا من وقت يتسع فقط لإدراكِ أوَّلِ عبارة إلى "فيارلاند"، وإذا لم نصِل في الوقت المناسب سنضطر إلى قضاء نصف النهار في "هيل" بانتظار العبارة الثانية. بيد أن لعبة الكرِّ والفرِّ تصاعدت: أوقفتنا نورية شرطة في الطريق بين "هيرمانسفيرك" و "لايكَنغر". لقد أدركونا أخيراً.

كانت هناك سيارتان للشرطة تعترضان الطريق؛ والمصابيح الزرقاء

تومض من إحداهما. قلتُ لنفسي غيابَ مَنْ إذ تَخِيلنا أننا نستطيع الإفلات بسهولة من فعلتنا؛ مُقَدِّمة سيارتنا وحدها حملت دليلاً كافياً على ما تورطنا فيه. ولا بُدَّ، وقد أصبحنا في وَضْع النهار، من أن الشرطة أبلغت منذ ساعات عن الحادثة، حتى بلا وجود هواتف جوالَة. ومع أنك أنتَ مَنْ حَرَص على تَلْفِيق حُجَّة غِيَاب مُضَلَّلَة عند المنحدر، أنتَ بنفسك قلتَ وهم يلوَحون لنا لنَقْفَ جانباً، سنستسلم، لن ننكرَ أي شيء.

هزرتُ رأسي وهزنتُه موافقةً. ومع ذلك تابعت: دُعِرنَا، أترين، هذا كل شيء. فهزرتُ رأسي من جديد. كنتُ في غَايَة الإعياء والبؤس. كل شيء يخصني لحقه الدمار. كل ما أَحْبَبْتُهُ وآمَنْتُ به داسَتْه الأرجل. وبعد ما حدث في الجبل ما عادت لي إرادة إلا إرادتك.

ثم تَبَيَّن لنا أنه تَقَدَّر روتيني ليس إلا. لم نُضطر حتى إلى الترحل من السيارة، وذاك من حُسْن حظنا لأنني كنتُ أوهن من أن أستطيع التحامل والوقوف ثابتة. كنّا في مطلع صباح يوم الاثنين، ومع ذلك لم نتعرّض ولا حتى لاختبار قياس الكحول في أنفاسنا. إلا أننا نلنا مُخالفة. طُلبَ مِنّا أن نستبدل المصابيح الأمامية في غضون عشرة أيام، وفي ذلك الوقت سنكون، كما قالت الشرطة، قد عُدنا إلى "أوسلو". تصرّفوا بدمائة وتفهم، وعلى الرغم من حلول ليالي الصيف الوضاء، تضمّنت المُخالفة بنداً يشترطُ الامتناع عن القيادة ليلاً قبل تغيير المصابيح.

تنبيه بالامتناع عن قيادة السيارة ليلاً يا ستاين. ذاك كل ما نلناه. وهو قرار لا يمكن قطعاً مُجادلته...

بَلَّغْنَا "هيلّا" في الوقت المناسب قبل قدوم العبارة ورحيلها. ومثل "ريفسنيس" كانت "هيلّا" مثالاً نموذجياً على لا مكان: مجرد منطقة توقّف للعبّارات، وليس فيها ولا حتى كشك بيع واحد. عاونني في تلك الأثناء استهائي القسري للشوكولاتة، وبدأتُ أعاني. لذلك لم نجد ما ننتهي بالحديث عنه خلال نصف الساعة قبل قدوم المركب من "فاناستيس" إلا زَلاَجَتينا. قررنا

أن نترك الفولكسفاغن هناك - لم نختلف على هذا. إذ لا فائدة من نقلها إلى قرية تقع على ضفة زقاق بحري وتكاد تخلو من الدروب، ثم إن التباهي بعرضها على الملائس فيه أي طرفة. إنما، ماذا عن الزلاجاتين؟ لا ريب في أنك تتذكر هذه التفاصيل كلها بقدر ما أتذكرها. ومع ذلك أرى أنه ينبغي ولو لمرة واحدة أن تروى القصة بأسلوب متساق.

ثم لنبرينا نناقش الأمور بطريقة عقلانية ومدروسة. هل علينا أن نستدير ونعود أراجنا؟ وهناك، ونحن عند رأس البحر الصخري، أجمعنا بلا تردد على أن واحدنا يدين للآخر بالوصول إلى جبل الجليد. إلى هناك كانت وجهتنا. هذا ما وعدنا أنفسنا به، ومهما جرى بعد ذلك ما زال لزاما علينا أن نجد مكانا يؤوينا - احتجنا إلى لحاف نتوقع تحته معاً. أما هل هي مسألة يوم أو يومين أو ثلاثة قبل أن يأتوا للقبض علينا، فهذا ما لم يكن لنا به علم. الشيء الوحيد الذي بدونا متأكدين منه أنها مسألة وقت فقط؛ مسألة أيام في أفضل الأحوال. فقد رأينا كيف تفحص طاقم العبارة علامات الاصطدام الحديثة على السيارة، وكذلك أوقفنا شرطة الدوريات وتفقدنا وسجلت ملاحظاتها عنا. والبقية، قلنا، ما هي إلا مسألة تنسيق وتحقيق، بمعنى آخر هي رهن الوقت. ما تجلّى واضحاً لنا خلال نصف الساعة التي قضيناها في "هالا" أنه ليس أمامنا أي مغامرة تزلج. لم تكن على تلك الدرجة من برود الأعصاب لنلهو في ربوع جبل جليدي بعد ما حدث. وعلينا قبل كل شيء أن نطالع الصحف ونستمع إلى المذيع، كنّا متيقّظين. تحتم علينا هذا. عرفنا أن ثمة فندقاً أسطورياً نستطيع الإقامة فيه. ورأينا أنه في هذه الحالة لا بأس من ترك زلاجاتنا في "هالا". لا، قلنا متراجعين، فالأوصاف تتضمن فولكسفاغن حمراء على سطحها زلاجان. ومتى؟ في أواخر شهر أيار! أدر كنا أن في ذلك مجازفة كبيرة. إنما كيف نبرّر ارتيادنا تلك البقعة؟ كانت الفكرة المنطقية الوحيدة أن نزعم أننا من هواة التجوال على الجليد.

ردّد شيء في أعماقنا أن علاقتنا، بغض النظر عما قد تؤول إليه الأمور - أعني بالنسبة إلى الشرطة والتحقيق - تعرضت إلى ضربة قاصمة.

فنحن، بمعزلٍ عن نوبات الذعر التي تصيبني، ونزوعك إلى مُعاقرة كاسٍ أو كأسين أكثر من اللازم، كنّا حتى تلك اللحظة التي صَدَمنا فيها المرأة ذلت الشال الوردي عند بحيرة "إلترفاتنت" نعيش معاً على أتمّ وِثامٍ تقريباً، ثمّ، وللمرّة الأولى على امتدادِ علاقتنا وجدنا أنفسنا نتخبّطُ في لُجّة كارثة. إلا أن أيّاً منا لم يكن مستعدّاً بعد للتلخّي عن الآخر، قد يحدثُ ذلك لاحقاً، في الغدٍ ربما، أو بعد يومٍ يليه، إنما ليس بعد.

كان علينا أن نتروّدَ ببضع ساعاتٍ وبضعة أيامٍ أخرى وأخيرة معاً، قبل أن نصِلَ علاقتنا إلى النهاية الحاسمة.

وهكذا، بمزاجٍ يغلبُ عليه المرحُ قُمنَا برحلتنا عبر لسان الخليج الضيق. أبحرَ المركب نحو خطِّ الشمال ميمّاً جبل الجليد الهائل. ولُثار المشهدُ من حولنا انطباعاً قوياً بأن شيئاً ما حدث بيننا: كان أشبه بالانفلات من الأسر، أو مثل انفجار سدٍّ مفاجئ. لهونا وعاونَا الضحكُ من جديد. هل تتذكّر؟ أدّينا بلتقان دور شخصين طليقين ومُطمئني البال. برّعنا في تمثيل أدوارنا. ما ساعدنا بالتأكيد أننا لم نكن قد نَقَنا النوم، إلا أن الأهمّ من كلّ شيء هو حقيقة أن علاقتنا بقيت حميمة كالسابق - مثلما يمكن أن تكون لاثنتي عشرة ساعة أخرى أو أربع وعشرين ساعة أو ربما ثمان وأربعين ساعة. أصبحنا فجأة نُسخةً عن العاشقين المُجرمين "بوني" و "كلايد". لطالما نَحَوْنَا في السابق إلى التفرد، وهو ما دَعَوَاهُ في أغلب الأحيان موقعاً أمامياً. وما قد غَدَوْنَا أخيراً خارجين عن القانون أيضاً. واجهنا التحدي - إنه شيء نستطيع الإقرار به بعد ما يزيد عن ثلاثين سنة - بدأنا ننقِصُ أدوار التّهكميين.

قلْنَا في الفندق إن في نِيتِنَا المكوث بضعة أيام فقط، ولا نعرف المدة بالتحديد. وبما أنهم رأوا زِلْجَتِنَا أضفْنَا أننا نريد الصعود إلى جبل الجليد، وكذبْنَا بشأن خضوعنا إلى دورات مَخَصَّصة في المشي على الجليد وقيامنا ببعض التدريبات. ونكرتُ في مَعْرِضِ الحديث شيئاً عن جبل جليد "سفارتيسن"...

كلّ ما أردناه بضعة أيام معاً، أنا وأنت. خطر لنا أنها قد تكون مُجازفتنا الأخيرة. ألم نزعّم لهم أننا عروسان؟ كان ذلك بعد أربع سنوات فقط من نقض القانون المُسمّى 'قانون التّسرّي'؛ بل حتى في سنّتنا الأولى معاً لم نأمن ألا يُرَفّع تقرير للشرطة عن علاقتنا الخارجة عن إطار الزّواج، على أساس أنها 'مشبوهة ومُهينة'.

لم نتوان على أي حال عن طلب أفضل غرفة. زعمنا أننا نحتفل بمناسبة خاصة بنا - أعتقد أننا حبكنا نسيج حكاية عن النجاح في الامتحانات. وهذا لا يُجانب الحقيقة كثيراً، لأنني كنتُ قد أنهيتُ للتو دورة فرعية في تاريخ الدين، وأحرزتُ أنت بعض الامتيازات في الفيزياء.

لم نواجه مشكلة في حجز أفضل غرف الفندق، لأن موسم السياحة لم يكن قد حلّ بعد. أعطونا غرفة البرج، وإنني أشعرُ بالترنّد في إدراج هذا في سردي يا ستاين، لكن، هذه الغرفة هي نفسها التي مكثتُ فيها أنا ونيلز بيتر عندما جئنا مؤخراً في تلك الليلة الصيفية. استغربتُ عودتي إلى هناك - بصحبته. ولا ألري إلى أي حدّ لعبت الصدفة دورها حتى انتهي بي المطاف معه إليها، ومع أنني لا أتكلّم هنا على أي شيء ما ورائي، أؤكد لك أنه هو من تولّى مهمّة الحجز، وأنا متزوجة من رجل مغطاء جداً ومُراعٍ لمشاعر الآخرين. لم ينزعج إلا لأنك استخلصتُ لنفسك معظم الوقت الذي خصّصناه لزيارة بلدة الكتب. كنّا متلهّقين على التّجوال في المكتبات لنقتصر كلّ الكتب التي لم نتّح لنا قراءتها ونحن في ربّعان الشباب، أظنني أخبرتك أنه استعداد حُبوره في طريق عودتنا إلى البيت.

فيما نحن واقفان أمام مكتب الاستقبال نسجّل دخولنا في ذلك الصباح، سألناهم أيضاً ربما بشيء من الوقاحة عن شيء آخر. فنحن في الواقع لم نملك خياراً غيره. استعلمنا عما إذا كان هناك مذياع في الغرفة، ولما أجابونا بالنفي استفسرنا ما إذا يمكننا أن نستعير جهاز ترانزستور. ربما كان في تصرفنا هذا مخاطرة، إلا أننا شعرنا بحاجة ماسّة إلى التزوّد بالمعلومات.

قُلْنَا إِنَّكَ تَدْرُسُ الْقَانُونَ وَإِنَّكَ حَرِصٌ عَلَى مِتَابَعَةِ بَعْضِ بَرَامِجِ الشُّؤُونِ الْحَالِيَةِ. وَأَوْضَحْتَ لَهُمْ أَنَّهُ شَيْءٌ بِخُصُوصِ أَلْمَانِيَا الْغَرْبِيَّةِ وَمُنْظَمَةِ الْجَيْشِ الْأَحْمَرِ "بَادِر - مَائِنْهَوف".

كَانَ قَدْ عَثَرَ عَلَى "أُولَرِيكِه مَائِنْهَوف" مَيِّتَةً فِي السَّجْنِ قَبْلَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ فَقَطَّ. وَلَا أَتَرَى مَا حَدَّثَانِي إِلَى قَوْلِ مَا قُلْتُ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ عَائِدٌ إِلَيَّ أَنَّنِي شَعَرْتُ فَجَاءَةً بِأَنِّ فِيَّ أَنَا وَأَنْتَ شَيْئًا مِنْ "أَنْدْرِياس بَادِر" وَ "أُولَرِيكِه مَائِنْهَوف". عَاجَلْتُكَ عِنْدُنْزِي بِنَظَرَةٍ حَافِقَةٍ.

مَا يَهْمُ عَلَى أَيِّ حَالٍ هُوَ أَتُنَّا حَصَلْنَا عَلَى الْغُرْفَةِ وَعَلَى الْمِذْيَاعِ. وَحَصَلْنَا أَيْضًا عَلَى شُرْفَتِنَا الْخَاصَّةِ شَبَهَ دَائِرِيَّةٍ الَّتِي تُشْرِفُ عَلَى مَنْظَرٍ رَائِعٍ لَجِبِلِ الْجَلِيدِ وَالْخَلِيجِ وَالْحَانُوتَيْنِ فِي الْأَسْفَلِ عِنْدَ مِينَاءِ الْبُؤَاخِرِ الْقَدِيمِ. وَلَمَّا أَوَيْنَا إِلَى السَّرِيرِ فِي ذَلِكَ الصَّبَاحِ، لَمْ نَفْعَلْ شَيْئًا سِوَى الْاسْتِقْلَافِ وَالْاسْتِمَاعِ إِلَى الْمِذْيَاعِ. وَلَمْ نَكْتَرِثْ حَتَّى بِتَحَرِّيِ الْوَقْتِ لِأَنَّنَا كُنَّا شَبَهَ مَتَيْقِنَيْنِ مِنْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَبْنِيهِ ذَلِكَ الْجِهَازُ الصَّغِيرُ يَتَعَلَّقُ بِنَا. وَقَبْلَ أَنْ يُخَضِّعَنَا النَّوْمَ لِسُلْطَانِهِ نَجَحْنَا فِي الْعُثُورِ عَلَى نَشْرَةٍ مُنْتَظَمَةٍ، تَتَضَمَّنُ أَخْبَارًا مَحَلِّيَّةً وَخَارِجِيَّةً. دَعَمَ الْبَرْلَمَانُ مَشْرُوعَ قَانُونِ تَخْفِيزِ سَنَةِ الْخِدْمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ مِنْ عَشْرِينَ إِلَى تِسْعَةِ عَشَرَ، وَتُوفِيَ الْفِيلَسُوفُ الْأَلْمَانِي "مَارْتِن هِيدِغَر"، أَمَّا الْجِبَالُ فَلَمْ تَرُدَّ أَيَّ أَخْبَارٍ عَنْهَا.

كَانَ تَوَثُّرُنَا بِسَبَبِ غِيَابِ الْمَعْلُومَاتِ قَدْ اسْتَقْحَلَ. وَكَانَتْ شَخْصِيَّةُ "رَاسْكَوْلْنِيكُوف" بَطْلَ رَوَايَةِ "الْجَرِيمَةُ وَالْعِقَابُ" لـ "دُوسْتُويفسْكي" مَا زَالَتْ حَيَّةً فِي ذِهْنِنَا مِنْ جَلَسَاتِ الشَّمْبَانِيَا فِي سَرِيرِنَا الْمُزْدَوِجِ فِي الْبَيْتِ، وَمِثْلُهُ بَدَأَ يَعْتَمِلُ فِينَا هَاجِسَ الرِّغْبَةِ الْمُلْحَةِ فِي أَنْ يُعَثَّرَ عَلَيْنَا أَوْ عَلَى الْأَكْلِ أَنْ نُوَبِّخَ بِحِكْمَةٍ أَوْ نُخَضِّعَ لِلْإِسْتِجْوَابِ. بَيِّدَ أَتُنَّا سُرْعَانِ مَا غَفَوْنَا. رُبَّمَا حَتَّى مِنْ غَيْرِ أَنْ نَطْفِئَ الْمِذْيَاعَ، وَلَمْ نَنْهَضْ إِلَّا فِي وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ عَصْرًا.

اسْتَيْقَظْتُ عَلَى نَشِيْجٍ بِكَائِكَ. أَنْتَ مِنْ كَانَ يَبْكِي الْآنَ. عَكَفْتُ عَلَيْكَ أَخْفَفُ عَنْكَ. أَحْطَطْتُ صَدْرَكَ بِذِرَاعِي، قَبَّلْتُ عُنُقَكَ، وَحَاطَلْتُ هَذَهْنَتَكَ.

بعد فترة قصيرة قعدنا في السرير ثانيةً وعدنا نستمعُ إلى الأخبار. ترَبُّصنا بكل كلمة ورنّت في النشرة التي بُنّت كل نصف ساعة. ولم نسمع شيئاً عنا. كانت الساعة تشيرُ إلى السابعة، وقد مضى أكثر من نصف يوم على حادثة الجبل التي لا تكادُ تختلف في شيء عن جريمة صَدم وحشي بالسيارة وفرار؛ جريمة غادرَ المعتدي القاسي القلب مسرحها - وخلف وراءه الضحية المصابة أو الميتة - غير مُبالٍ باستدعاء سيارة إسعاف أو إعلام الشرطة. ومع ذلك لم نسمع شيئاً مثل تُشِيرَت اليوم تعزيزات أمنية كبيرة... لا، لا شيء من هذا. على الرغم من أننا عرفنا حق المعرفة، نحن المتواريان في غرفة فندق في أبعد طرفٍ من لسان "سونيفيورد"، أننا لُذْنَا بالفرار بعيداً عن المرأة ذات الشال الوردي وتركناها لمصيرها. أننا أردناها أرضاً فيما نحن مُنتشيان حتى الثمالة بسعادتنا ثم تابعنا طريقنا لا نلوي على شيء. عثورنا على شالها يؤكد ذلك. وهذا يعني أن سائق العربة البيضاء هو من لملم البقايا من بعدنا. أفلم يَقم بالاتصال بالشرطة؟

عَلَامَ انطوى كل ذلك؟ لماذا لم يذيعوا شيئاً عما حدث؟ ما السبب وراء السكوت عنه؟ هناك سببٌ ما بلا ريب، فماذا يمكن أن يكون تفسيره؟ لماذا لم تُصرَح السلطات بما تعلم؟ ماذا كانت تفعل تلك المرأة الغامضة ذات الثياب الرمادية والشال الوردي في الجبال في منتصف الليل؟ ما سبب وجودها هناك؟ أَيْحْتَمَلُ أن للأمر علاقةً بالجيش أو بالجهاز الأمني؟ أترانا نَوْرُطُنا عن غير قصدٍ في شيء كبير، شيء يمسُ الأمن القومي؟

أنا كنتُ صاحبة الخيال الأوسع. هل من شيء يؤكد لنا أن المرأة التي صدمنا هي مخلوق عادي مثلاً؟ تساءلتُ. فلا شيء في المذيع عن شخص مَفْقُود. ولم تُناشِد الشرطة الشهود للمثول أمامها. لعلها من المخلوقات الغريبة، زائرة من الفضاء الخارجي ربما؟ لأنه كان هناك نور غريب يشعُ من الجبال في تلك الليلة. تحيلتُ، طمعاً في استدراجكِ لِتَعْلُقَ بشيء. قلتُ، لَمَحْنَا نوراً برّاقاً في السماء.

وجَدْنَا الأمرَ كله مُحَيَّرًا جداً. من كانت تلك الضحية حقاً؟ إذا لم تكن من

النُخْلَاءُ أو من الأشباح، فلا ريب في أن أحداً في مكانٍ ما يستعلم الآن عن الجاني. حاولنا أن نرسم خطوطاً عامة: سيبحثون عن رجل، لا شك في هذا - فأي امرأة لن تلوذ بالفرار من فعلةٍ كذلك. ولعل الشرطة أو رجال الأمن يريدون لسبب ما أن يسعوا إلى القبض على المُعتدي أولاً قبل الظهور علانية ونشر الخبر.

وفكرنا، بما أن السيارة متوقفة في "هילה"، فهل ما علينا إلا أن نبْلغ عن أنفسنا؟ في وسعنا الاتصال بالشرطة تحت اسم مجهول لنزودها بمعلومات عن السيارة المتضررة المركونة عند ميناء العبّارات، وبهذا نضع حداً نهائياً لسلوكنا الذي لا يُطاق. ثم إن أوصاف السيارة سبق أن سُجّلت في ملفات الشرطة باعتبارها وسيلة نقل مُشتَبها بها.

ثم، ما لبث أن ولّدَ مطمحٌ جديدٌ مُغرقٌ في الأنانية من رَحمِ فوضى الأسئلة والأجوبة المتعترّة. ولنا مَنْ بادرَ إلى قولتِهِ. قلتُ، يا ستاين العزيز عشنا معاً خمس سنوات، وفجأةً اعترضنا طالع سيئ، جعلنا للمرة الأولى والوحيدة نُقِم على تصرفٍ أخرق حقاً، لأن فرارنا بعد ذلك الاصطدام لا يمت إلى العقلانية بصيلة. ومهما حدثَ للمرأة المسكينة التي دهسناها، ما عُدنا نستطيع بأي حال مساعدتها الآن. أفلا يجنر بنا أن نحاولَ قنرَ المستطاع جعلَ هذه الأيام الأخيرة رائعة؟

كوكب الشعزى يا ستاين، رُحْتُ أنضرعُ، ومَجَرَّةُ المرأةِ المُسكِلَة (اندروميذا)! وعلى الفور استوعبتُ تداعي المعاني، أعني الصلة بين ما أقوله وبين ما كنّا نتحدّثُ عنه في "ريفستيس".

تضرّعتُ من أجلنا، ولم تكن صُغْبَ المراس. وهكذا بدأت أيامنا البديعة الأخيرة تلك التي قضيناها معاً. أخذنا حَمَامًا، وبعد نصف ساعة كنّا نجلس في الرُدْهة الشبيهة بالمتحف نتناول المُقَبَّلَات. لم نجد عندهم مشروب "غولدن باور"، لكن توافر لديهم "سميرنوف" و "لايم".

بعد العشاء عُدنا إلى الرُدْهة وجلسنا أمام المدفأة وقهوتنا معنا، إلا أننا

منذ ذلك الحين ولِبَقِيَّةِ الأسبوع حَرَصْنَا على إبقاء جدول مواعيد المِذياع في أذهاننا، وكان لا بدُّ لنا من الصعود إلى غرفتنا لنسمع نشرة الأخبار في الساعة العاشرة، ومع ذلك لم يَرِدْ أي شيء عَنَّا.

لا احتَاجُ إلى الدخول في تفاصيلِ الأسبوع الذي أمضيناه هناك معاً لأنك تتذكَّرُها كلها، وقد تطرَّقنا إلى هذا قليلاً في آخر لقاءٍ لنا. ما يمكن أن أذكره هنا نزهاتنا الطويلة اليومية على الأقدام. في اليوم الأول خُضْنَا طريقنا صعوداً نحو "سوبلهيدال" وأوغلنا إلى لسان الجبل الجليدي. أتذكَّرُ كل شيء عن ذلك اليوم يا ستاين؟ أبحضركَ ما وجنناه بين الطحالب عند النهر، بعد أن أكلنا الشوكولاتة واشترينا قُفَّازات مَحبوكة يدوياً من حانوت تذكَّرات "هيوردس"؟ ذلك الحانوت القائم إزاء جبل "سونهيليبرين" الجليدي؟ ربما علينا إبقاء هذا سرّاً نقيناً. في اليوم التالي استعرنا الدراجتين ومنذ ذلك الحين فصاعداً مَضِينَا نستكشف "هوربيدال" و "بويادال". وفي هذه الأخيرة أمضيْنَا ساعات عند الرُّكام المتخلف من العصر الجليدي الأصغر نتأمل التشعُّب الجليدي.

لَازِمًا جهاز الترانزستور في جميع نزهاتنا. ومرةً ونحن نمرُّ بمكتب الاستقبال أشارت امرأة اسمها ليلي إليه وسألتنا بنبرة فيها تلميحٌ ساخر، "بادر" و "ماينهوف"؟

تظاهَرْنَا بأننا لم نسمعها، وفي الوقت نفسه بقي غياب المعلومات مُستمرّاً. لا أحد، على ما بدا، اِكْتَرَثَ بما أَقَمَ "بوني" و"كلايد" على فعله في جولاتهما الجامحة عبر البلاد. وراقنا ذلك لأنه مَنَحًا يوماً آخر. لم نَحْظَ قطَّ بزمان أروع. احتفينا بكل ساعة وَهَيْتَ لنا.

تَنَاقَشْنَا وَتَكَهَّنَا. هل كانت هناك نِيَّةٌ مُبَيَّنَةٌ في أن تَذْهَبَ تلك المرأة وتُقتل؟ فَرَضِيَّةٌ كهذه ستخفُّ قليلاً من وطأة شعورنا بالذنب إذا صَحَّت، إلا أن الفكرة جعلتنا نشعر أننا قد استَغَلَّلْنَا. ربما دَفَعْنَا شخصاً ما نحو الطريق في لحظة مرورنا، لأننا قبل أن نَفْجأَ بِذَلِكَ الشيء الأحمر أمام غطاء مُحَرَّك

السيارة لم نلمح شيئاً مع أن الليلة لم تكن مُعتمّة. ولاحقاً، لما رجعنا إلى مسرح الجريمة لم نحاول تَحْرِي وجود أحد بين الشجيرات. أو، هل تراها كانت ميتة حتى قبل أن تصدمها السيارة؟ لِمَ لا؟ نعم، لِمَ لا؟ ما رأيناه اقتصر فقط على شيء أحمر أمام غطاء مُحَرَّك السيارة، عبارة أدرجناها في كلامنا عدّة مرات، أما المرأة بحدّ ذاتها فلم ننتيّن لها أثراً، وقد يعني هذا أننا لم نَر إلا شالها، يرفرف مع الهواء، مع الريح الطرية. نعم، قتلها شخص ما هناك، واحتاج فقط إلى تَلْفِيق حادثةٍ مصيرية ليطمس معالم جريمة أخرى. ربما كانت مُرْتَمية على قارعة الطريق حينذاك، ولم يتسنّ لنا أن نلمحها لأن الشال الوردي ليس على كنفها. هذا مع أن الاصطدام بها كان كافياً لتحطيم مصباح السيارة الأمامي...

هي أجنبية! أقتنّا أنفسنا بهذا بعد فترة. وهذا هو السبب في أن أحداً لم يُبلِّغ عن اختفائها. ثم إننا رأينا في الطريق قاطرة ضخمة أجنبية - واقفنا بلا تردّد على أنها كانت ألمانية - تحت قمّة "هيمسيدال" بقليل، ومباشرة قبل... حسناً، مباشرة قبل رغبتك في التوجّه إلى الدرب الحرجية يا ستاين. ربما أقلّها سائق القاطرة معه. قلّنا، أو ربما هناك صلة ما بين القاطرة والعربة البيضاء. حدث كلّ ذلك في منتصف الليل. وثمة لقاءات مُعيّنة لا تجري إلا في منتصف الليل.

شرّعنا نهذي بكلامٍ عن قاطرة ألمانية عبرت البلاد، وامرأة في الخمسين من العمر - ربما اضطلعت بدور المرسال - كانت تقطع الجبال لتقابل عربة بيضاء في الطرف الآخر. ولكن حتى مع إعمال أقوى قُدراتنا التخمينية لم نحزّر أي تقدّم...

ما زلتَ معي يا ستاين؟

نعم أنا معك يا سولرن، وأعتقد أنك استغرقتَ وقتاً في الكتابة. لم أفعل

شيئاً يُذكر اليوم ما عدا انتظار رسائلِك الإلكترونية. كنتُ أذرُعُ المكان هنا جيئةً وذهاباً مثل حيوان برّي في قفصٍ بانتظار تسلمي لشيءٍ منك. وهذا المكتبُ ضيقٌ. ثم ما لبثتُ أن هدأتُ شيئاً فشيئاً، واندبجتُ في نشاطٍ عملي. ربّبتُ كومةً بحالِها من الأوراق والبحوث؛ هذا الصنفُ من المهام الرتيبة التي يقوم بها المرء كل خمس سنوات. بدأتُ أيضاً أشعر بتقلُّلٍ غريبٍ يتنازعني. تابعي روايتكِ على كلِّ حال، ولا تفسحي المجال لنفاد صبري ليضغطَ عليكِ بحيث يجعلكِ تسردين الأحداث باختصارٍ شديد أو سرعةٍ كبيرة.

بَدَتِ تلكَ 'الأيام الأخيرة' قبل أن تتعبَ الشرطة أثرنا لا نهائية، وكان ذلك الأسبوع استثنائياً في رومانسيته لأننا عشنا على تلك الحالة من الذبذبة، حالة جهلنا إلى متى قد تستمرُّ سعادتنا. غير أنه بطريقةٍ ما كان من المستحيل أيضاً أن نتأقلم مع حالة عدم اليقين. وهكذا، من مُنطلق امتناننا لـ 'أسبوع النعيم'، كما سمّاه أحدنا في يومنا الأخير، انبرينا نستيق الأمور في التطرُّق إلى ردود فعل "النرويج" الغربية تجاه قضية "بوني" و "كلايد". تخيلنا الروايات في الصحف؛ تكلمنا على العناوين البارزة. أما فكرة أننا قد ننجو من العقاب، وأن جريمتنا قد لا تطاربننا فلم يخطر لنا قط أنها ممكنة. لا أدري حقاً يا ستاين، إذ ربما لو أدركنا آنذاك أن ما حدث قد يبقى لغزاً خفياً علينا مدى حياتنا، لما فاجأني أن نذعرَ من هذه الفكرة. لأن جهلنا الحقيقة طوال الوقت هو ما عجزنا عن تحمّله. ومع أن أسبوعاً قد مرَّ تقريباً، لم نسمع كلمةً واحدة في الأخبار عن امرأة ذهبت في الطريق وتركّت بقسوةٍ وجُبْنٍ في تلك الليلة عند مسرح الجريمة في "هيمسيدا فيلي".

مَنْ كانت تلك المرأة يا ستاين!!!

واجهتُنا مشكلةٌ صغيرة في تحرير بعض الأمور لمُضيفينا في ذلك الفندق

المُمتنع. لماذا لم نصعد إلى جبل الجليل كما قلنا إننا سنفعل؟ قلت لهم نيابةً عني إنني لست على ما يُرام، واكتفيتُ بهزّ رأسي موافقةً فيما لَفَقْتَ قصّةً صُداعي المُزمن. غداً الكذبُ سهلاً علينا بعد فرارنا من حادثة السيارة، وربما من امرأةٍ إما ماتت أو أُصيبَت بجراحٍ بالغة. نحن ننتظر قليلاً، أوضحنا، وشبه زعمنا أنني في فترة الحيض. وذلك غير صحيح. لعلك تظنُّ الساعةَ أن استرجاعي لهذه الأشياء ليس في محلّه من السياق. لولا أنني في الحقيقة اعتبرتُ إلقاءك المَلامة على عاتقي في ذلك اليوم بغيضاً، فنحن لم نمرَ بيومٍ واحدٍ دون المستوى، ولم أعانِ قطّ في حياتي من أي صُداغ مُزمن، وكلّ ما فعلناه، فعلناه معاً على قَدَم المساواة.

في أحد الأيام سألتنا مُضيفتنا اللطيفة في الفندق مُداعيةً أو نصفَ مُداعيةٍ ما إذا كنّا هاربين أو مختبئين من شيء ما. هل تتذكّر جوابنا؟ لجأنا معاً إلى السخريّة، قلنا نحن هاربان من أي شيء فيه مسنحةٌ مسؤولية، نحن مُختبئان من جميع ضروب الضُحيج والصخب. عاينتنا بنظرةٍ مُرتابةٍ سابرةٍ أغوارنا. هذا بلبلنا قليلاً، واستقرّك نوعاً ما. إذ سارعتُ نقول، حسناً، أليست هذه الوجهة مخصّصة للاستجمام؟

جرى هذا الحوارُ ونحن في طريقنا إلى تناول الفطور. وفي أثناء وجبتنا رأينا أن الوقت قد حانَ لنفادر. وليس بسبب تلك الأسئلة فحسب. فالدافعُ الأكبر وراء مغادرتنا رغبتنا في العودة إلى المكان الذي وقعت فيه الحادثة. يقولون إن المجرمَ يعود إلى مسرح جريمة، وكان لدينا سببٌ وجيه. أردنا البحث عن أدلة غفلنا عنها، والتأكد على وجه الخصوص من أن الشال الوردي ما زال حيث تركناه.

وكان هناك سبب آخر أيضاً. ففي ذلك الصباح كنتُ قد استيقظتُ قبلك، ثم عندما نهضتُ من السرير وجدّتي مُسترخيةً على تلك الأريكة الطويلة العتيقة مستغرقة كل الاستغراق في الكتاب الذي عثرتُ عليه ونحن في صالة البليارد، والذي قرأنا منه بعض المقاطع في المساء الفائت. وأنا أشيرُ هنا

إلى كتاب الأرواح الذي وصفته بأنه 'كتاب تجليات روحانية'. احتتمت فوراً، واستبدت بك تقريباً غضباً شديداً، من غير أن أدري لماذا، وإن استبتهت بأنك ما قررت الرحيل في ذلك الصباح إلا لتباعد بيني وبين قراءة تلك المادة الجديدة علي. ومع أنه كان من المفترض أن يُعاد الكتاب إلى مكانه قبل رحيلنا، دسسته في حقيبتي خلسة، ولم أخرجه منها ثانية إلا بعد رجوعنا إلى "أوسلو".

ثم، وبينما نحن نمرُّ بالرَّدهة في طريقنا إلى الشرفة، لتأمل الخليج والزَّان النحاسي في ذلك الصباح الأخير، سألتنا ابنة مالكي الفندق، أي المرأة التي تديره اليوم، ما إذا لا نُماتع الاعتناء بصغيراتها الثلاث حتى يُتاح لها الذهاب إلى المَصْرَف، ما إذا يمكننا الاستغناء عن نصف ساعة في ذلك الصباح. تخيل أنه من بين جميع الاحتمالات صَدَف وجود فرع مَصْرَفِي لدى ذلك المجتمع الخليجي الصغير. وافقنا في الحال، فقد كانت البنات الصغيرات لطيفات - سبق لنا أن ألفناهن - ولا تتجاوز أصغرهن السنتين، إلى جانب أنني خلال الشهرين السابقين كثيراً ما طرحتُ بجدية فكرة التوقف عن تعاطي حبوب منع الحمل. شعرنا بالامتنان لأننا اعتبرنا موضع ثقة، إذ من قد يسمح لـ "بوني" و "كلايد" أن يتوليا حضانة الأطفال؟ وبعد ذلك انتهى بنا الأمر إلى الاعتناء بالصغيرات الثلاث طوال فترة الصباح، وما عدتُ أتذكر الآن السبب. أتذكر فقط قولنا إن هذا أقل ما يمكن أن نفعله لقاء إعارتنا جهاز الترانزيستور والدراجتين. هذا مع أننا لم نحتج في الحقيقة إلى قول أي شيء من ذلك نظراً إلى أننا أنفقنا ثروة لا بأس بها في الفندق. كنا من النزلاء الجيدين ولم نُقترَ لا بالنبيذ مع وجباتنا، ولا بأي شيء آخر مع قهوتنا بعد الأكل. ولم تُخنك ذاكرتك يا ستاين، فقد كان لديهم "كالفادوس". "الكالفادوس" الذي وقَعنا في غرامه بعد رحلتنا بالسيارة إلى "تورماندي". كان في تلك الأيام من المشروبات النادرة، أو في أدنى الأحوال نادراً في الفنادق الصغيرة خارج المُدن الكبيرة. ولا يخضرني الآن ولا حتى ما إذا كان في منتصف السبعينيات يُخزَّن لدى محلات بيع الخمور التي تحمل ترخيصاً من

الدولة، إلا أن ثمنه في جميع الأحوال كان فوق طاقتنا في ظل ظروفنا المعيشية العادية. أما هناك، بين الأخاديد العميقة لعدة عصور جليدية، فدرَجنا على أن نجلس ونحتسي "الكالفادوس" في كل مساء بعد الأكل.

وهكذا قضينا يوماً آخر في الفندق. وعند الظهر تقريباً، لما انتهت مهمتنا مع البنات الثلاث، وجدنا أنفسنا أمام فترة عصر أخيرة خالصة لنا. كنا قد استكشفنا تقريباً جميع زوايا مستوطنة الخليج الصغيرة؛ بل حتى تسلقنا زوجاً من القيم المجاورة - شهد على ذلك ما ألمَّ برُكبتنا في الصباح التالي - أما كوخ الراعي في أعلى الوادي خلف الفندق مباشرة فمن الغريب جداً أننا لم نعرَج عليه. كنا، في حال ما زالت سيارتنا مركونة في "هילה" ولم تسحبها الشرطة لتتحرق أمرها، عازمين على الرحيل والعودة إلى البيت في الصباح التالي، أو على الأقل للتوغل شرقاً بقدر ما تسمح لنا الظروف. لم نعتبر أي شيء من المسلمات. إلا أننا أدركنا أنه تَبَقَّتْ لنا في جميع الأحوال نزهة واحدة أخيرة، وقرَّرنا أن نُخصَّصها في يومنا الأخير ذاك لكوخ الراعي. كان الجوّ بديعاً، وخلال إقامتنا هناك لم تمطر الدنيا إلا لِمَأمًا.

سرعان ما شققنا طريقنا صاعدين إلى "مُندالسال" حاملين رزمة غدائنا وترمس شاي، الطريق الذي سلكته لنا وأنت مرةً أخرى قبل أسابيع قليلة. وأنا واثقة من أنك تتذكَّر تفاصيل هاتين المناسبتين. مع ذلك سأدون الآن ما أتذكَّره بنفسي، وهذا سيضطررك إلى مُعاودة التفكير ملياً في وقائع ما حدث.

تَخَطَّينا الخطيرة الحمراء لآخر مزرعة من جهة اليسار، وميدان الرماية الذي يقابلها من جهة اليمين، وبقيت الدربُ بعدهما ممتدة لمسافة لا بأس بها على الضفة اليمنى لنهر "موندالس إلفين" البهيج، وانتهت أخيراً إلى مزرعة "هايمستولن" الصيفية. اضطررنا في بعض المواضع إلى القفز من بين روث الخراف والبقر على المسار الحصوي. ففي ذلك الوقت كانت الماشية قد أُطْلِقَتْ للرعي الصيفي.

كنا نمتع أنفسنا، فقد مضى أسبوع وما زلنا نجهل ما ينتظرنا. لم يغِب عنا أنه حتى لو انتهى الأمر إلى انفلاتنا مما حدث هناك في "هيمسيدافيلي"،

فإن الندوب ستبقى فينا مدى الحياة. أما ما لم نعرفه فهو كيف نتابع حياتنا معاً بعد ذلك ونذكرى ما مررنا به تلازمنا. إلا أننا لم نتوقف عن اللهو والضحك، بقينا كما كنا، مُدركين شيء من الكآبة يعتصمنا أنه يومنا الأخير في الجنة، في 'المَعزَل الشَّهْوانِي' كما دعونا. على الرغم من أن ذلك المَعزَل الراكِد لم يكن هو الشَّهْوانِي بقدرنا نحن للذين قَصَصْنَا ومَرَحْنَا فيه طَوَالَ الأسبوع الماضي.

وبينما مشينا في طريقنا، سعيتُ إلى مُداعبتي طَوَالَ الوقت. وفي لحظةٍ ما طالبتُ بالمزيد، وعنيتُ ذلك فعلاً، لا مجرد كلام. الوادي بأكمله لنا، قلتُ متحايلاً، الجوُّ دافئٌ وليس هناك ما هو أسهل من التَّواري بين الشُّجيرات. عبتُ في وجهكِ وقلتُ علينا الوصول إلى كوخ الراعي أولاً. وحالما نصِل إلى هناك، أريدتُ باستخفاف، سنرى أي رجلٍ أنت. أتذكَّر هذه العبارة جيداً لأنها أزعجتكِ كثيراً. ثم ما لبث أن حدثَ شيء هناك جرُّدكِ من رجولتكِ تجريداً كاملاً في الأيام التالية، لا بل في الأسابيع التالية. في الحقيقة نحن لم نتقارب من بعضنا مُجدِّداً بعد ذلك. لم نمارس الجنس قطُّ مذ ذاك اليوم.

على بُعد بضعة مئات من الأمتار من "هايمستولن"، عند طَرَف الدرب الأيسر، طالعتنا مجموعات كثيفة من أزهار كَفِّ الثعلب نامية في المَجْرى الصخري؛ نعم، مجموعات فارعة ووردية اللون من الأزهار التي تعود إلى النوع المعروف باسم "الديجيتال الأرجواني". لم يخفَ عليَّ أن أكلها قد يسبب الموت، ولا أن أوراقها يمكن أن تنقذَ الناس من الموت. كان في تلك الأزهار الشبيهة بالأجراس شيء خلاب. انفلتُ منك وركضتُ نحوها لألمسها. تعال! ناديتكِ.

لبثنا نمعنُ النظر في أزهار كَفِّ الثعلب لمدة قصيرة، ثم حوَّلَ شيء ما انتباهنا إلى اليمين تجاه صفٍّ مُتراصٍّ من أشجار البتولا المنحدرة برفق نحو الدرب. كانت هناك فُسحة صغيرة بين الجذوع للبيضاء والسوداء؛ رقعة أشنة نَضرة الخُضرة، وعند تلك الرقعة ظَهَرَت بغتةً امرأةٌ تلبس ثياباً رمادية

وحول كنفها شال وردي؛ ولون الشال يُماثل بالضبط لون أزهار كَفّ الثعلب تلك. وهذا شيء ما بَرِحْتُ أَفَكِّرُ فيه كثيرًا خلال السنوات التي تعاقبت. وقفت تنظرُ إلينا ببُتابة وهي تبتسم. كانت المرأة نفسها التي صدمناها في "هيمسيدالفييلي" يا ستاين. بدا الأمر كما لو أن كائنًا أسمى وضعها هناك فجأة كَرَمَى لنا. واليوم، أعتقد أنني بتُّ أعرف المزيد عن حقيقة تلك المرأة ومن أين جاءت، إلا أنني لن أستبق الأمور!

في ما بعد، كنّا على اتفاق كامل حول ما شهدناه. أقررنا بأنها المرأة التي لمحناها تمشي على بعد بضعة أمتار من الطريق السريع عند قَمَّة "هيمسيدال" قبل ما لا يزيد عن أسبوع. وأنها كانت تضعُ الشال نفسه؛ الشال الذي ما زال هناك قرب البحيرة الجبلية، وأنها الشخص نفسه. أي توحدت أقوالنا بشأن ما رأيناه. أما ما يدعو إلى العجب فهو اختلافنا حول ما قائلته. كان هذا غريبًا حقًا، وبدا أنذاك شيئًا غير معقول. على الرغم من أن لدي في الوقت الحاضر تفسيرًا منطقيًا حتى لهذا.

حسنًا، ماذا قالت؟ أتذكر بمنتهى الوضوح أنها التفتت إليّ وقالت، 'أنتِ مَنْ كُنْتِها، وأنا مَنْ سَتَكُونِينها.' أما أنتِ فأصررتِ على أنها قالت شيئًا مختلفًا كلَّ الاختلاف. ألا تعتقِد أن هذا غريب جدًا بعد أن أجمعنا وأجمعنا على تطابق ما رَأَيْنَاهُ؟ عانَدتِ متشبِّهًا بقولك إنها نظرتِ إليك وقالت، 'كان ينبغي أن تُعرِّمَ مُخالفةً لتجاوزِ السرعةِ يا فتاي.'

لا تطابق في هاتين الإجابتين في أي حالٍ من الأحوال، ولا ثمة تشابه في المعنيين. 'أنتِ مَنْ كُنْتِها، وأنا مَنْ سَتَكُونِينها،' ثم، 'كان ينبغي أن تُعرِّمَ مُخالفةً لتجاوزِ السرعةِ يا فتاي.' التقطتِ أنذاك كلمات مُعيَّنة، والتقطتِ أنناي كلمات أخرى مختلفة تمامًا. إنما، ما الداعي الذي دفعها إلى تبليغنا رسالة مزدوجة؟ وكيف تدبَّرت أمر هذه الخُدعة؟ هذا كان اللغز الأعظم آنذاك. ولكن.. مهلاً..

اليوم، أنا على يقينٍ من أن 'المرأة للكهنة ذات الشال الوردي' هي المرأة نفسها التي صدمناها وأودينا بحياتها، والتي عادت إلينا لاحقاً من الطرف الآخر. عادت لتخفّف عنا! ابتسمت، ومع أنني لن أتمادى إلى حدّ القول إنها كانت ابتسامة دافئة، لأن كلمات مثل 'دافئ' و'بارد' تتضمن على نحوٍ ما دلالات بشرية، إلا أنها لم تكن بالتأكيد ابتسامة مُنفّرة، بل مُحايِلة ولعوباً ومأكرة. لا بل مُغوية يا ستاين. تعالا، تعالا، تعالا! قالت تلك الابتسامة. لا موت هناك. هيا تعالا، تعالا، تعالا! ثم، تلاشت واختفت عن الأنظار.

جئوت أرضاً يا ستاين، حجبّت وجهك بيديك واستسلمت للبكاء. امتنعت عن النظر إليّ وفي عيني. ومع ذلك انحنيت عليك ورحتُ أهدهدك مرّة أخرى.

'لقد رحلت الآن يا ستاين،' قلتُ لك.

بيد أنك واصلت النحيب. كنتُ مذعورة مثلك لأنني أنا أيضاً في تلك الأيام لم أؤمن بأي شيء، ما ساعدني على التماسك قليلاً اضطراري إلى الاعتناء برجلي.

فجأة وثبت واقفاً واندفعتْ تَعُدو نحو الغور. عدوت كما لو أنها مسألة حياة أو موت. حاولتُ مُجاراةكَ. لم أستطع تركك تتأى عني. وما لبثنا أن عُدنا نمشي جنباً إلى جنب، وبعد مرور بعض الوقت بدأنا نتحدّث عما جرى معنا. كنّا معاً مضطربين بالقدر نفسه.

لم نكن قد شرعنا بعد في اتّخاذ مواقف مُتعارضة. وانبرى كلّ منا يستجوب الآخر، تناقشنا، قلّبنا الرأي في الإيجابيات والسلبيات. وفي جميع تلك الحالات أجمّعنا على أن مرأة أشجار البتولا هي نفسها التي لمناها في مُرتفعات 'هيمسيدالفييلي'، والتي صدمناها بالسيارة لاحقاً، ووفق ما بدا لي، قتلناها - كان هذا قاطعاً بالنسبة لي آنذاك، ولم يُداخله منقذ شكّ واحد - حتى على الرغم من أنك لاحقاً جادلّتي بمزيد من الاحتداد قائلاً إنها لم تتجّ من الاصطدام فحسب، بل أيضاً تبين بوضوح أنها أجادت التكيف مع الوضع.

كيف استطاعت اللحاق بنا؟ تساءلت مُرتاعاً. وخشيت أن تكون ما زالت تسعى وراءنا. خطر لك أنها ربما حَجَزَتْ غرفةً في الفندق، وأفلتت احتمال الاجتماع بها ثانيةً على العشاء. نَحَتْ مخاوفك أكثر فأكثر نحو أرضٍ مائبة صلبة. أما أنا فبدأتُ أمَحِّصُ بِرؤيةٍ وجهةَ نظرٍ جدَّ مختلفة. شككتُ في أنها حَجَزَتْ غرفةً في الفندق أو في أننا قد نراها على العشاء. ماتت يا ستاين، قلتُ لك. وإذ وقفتُ تعاليني بنظرةٍ متسائلةٍ أردفتُ، ربما لم تأتِ تلاحقنا. ربما أنتِ من لجلنا. أنتِ من الجانب الآخر يا ستاين. حدثتُ بي، غير أن نظرتك خلت من أي سلطان. لم يكن فيها إلا العجز.

صحيح يا سولرن، كان عَجْزاً. أدركتُ أن كلَّ متا سينحرف بعيداً عن الآخر. لم أستطع أن أصدِّق حينها - ولا حتى الآن - أن الموتى قادرون على زيارتنا، أو أنه يمكن تحت أي ظرفٍ التقاؤهم في أي مكان. أما أنتِ فاستطعتِ. واليوم، أجدُ لديَّ القُدرةَ على احترام وجهات نظرك. لذا، على الرغم من كلِّ شيء، ثمة تغيير قد طرأ عليَّ على مرِّ السنين. وأنتِ على حق: ففي ذلك الزمان عجزتُ عن فعل هذا. تابعي رجاءً. أعتقدُ أنكِ تروين حكايتنا بإخلاص.

لقد أصبحتُ أكثر فأكثر عَصَبِيَّةً وثَقَلْتُ بعد أن ذَرَعْتُ مكثي الضيقَ جيئةً وذهاباً معظم فترة الصباح. أشعر أن عليَّ القيام بخطوةٍ ما، ما زال النهار في منتصفه، وقد اتَّخذتُ قراراً.

اكتبي الفصولَ الختاميةَ الآن، أكادُ أجزمُ بأنني أعرفُ كيف ستكشفُ، لأننا تكلمنا على الأمر بإسهاب قبل أن تقطعي فجأةً جميعَ الروابط وترحلي إلى بيت والديك في "بيرغن". وأعدك بأن أجيئك قبل انتهاءِ يومنا هذا.

عندما كنّا عند كوخ الراعي اتفقنا على ألا نفكر في أي تأويلٍ لأطول فترةٍ ممكنة. ففي اليوم التالي لدينا رحلة عودة طويلة إلى الدّيار، وبطبيعة الحال سنعبّر للجبال عند حدود تلك المقاطعة مرةً أخرى. أفلا ينبغي في الوقت الراهن أن نتوصّل إلى إجماعٍ على وقائع ما اخترنا بالفعل هناك بينما كان ما زال ملتبساً في ذهننا؟

أجمعتنا آنذاك على أنني جلستُ الفَرْقُصاء ولمستُ الأزهار الوردية اللون. ثم جئتُ من ورائي، ورُحْتُ في البداية تُداعِب شعري فقط، إلا أنك ما لبثتُ أن جثوتُ إلى جانبي ولمستُ مثلي أزهار كَفّ الثُّعلب. لم أستطع أن أتذكر على وجه الدقة ما إذا كان ما دَعَانَا إلى الالتفات في تلك المرحلة شيء سمعناه من الجانب الآخر للطريق، إنما لا ريب في أن شيئاً ما جعلنا نلتفت فجأة. وفي اللحظة عينها تجسّدت لنا هيئة امرأة بين جنوع أشجار البتولا تقف عند فسحة الأشنة وشالها الوردي حول كتفيها. مثلَ مرأة العنّبة في الحكاية الخرافية. هكذا عبّرتُ عنها، وهذه كانت كلماتي. أنا من مهّدتُ لهذا اللقب الذي ساعدنا كثيراً في الإفصاح عما اختلج فينا - أصبح دَعامةً لفظيةً استطاعت رُوحان مُعْذِمَتان التّشبُّثَ بها. ولعديده من الأيام لم نجد حرجاً في التكلّم على مرأة العنّبة، ويبدو أننا ما زلنا قادرين على ذلك بعد أكثر من ثلاثين سنة. لم نُفلح آنذاك في التحدّث بطلاقة عن مواجهتنا لشبح أو طيف، أو عن روح ظهرت لنا. ولا ينبغي أن يغيب عنا أن هذا جرى في منتصف السبعينيات؛ بعد أيامٍ قليلةٍ من العثور على "أولريكه ماينهوف" ميتةً في سجن "ستامهايم"، وفي سنة نشرِ روايات مُعيّنة في النرويج، تحمل عناوين مثل "جيني تُفصّل من الخدمة" و "استمروا"، و "في زمانك" و "الصليب الحديدي" و "الحملة" و "الزخرفات". بالطبع كانت هناك بعض الأصوات المنفردة التي أعلنت أننا داخلون إلى حقبة جديدة كلّ الجدة، وأنها نمرَ بمرحلة تحوّل، وأنها نفقُ على عتبة "عصر الدّلّو".

أدّت بك نقطة استشرافك المادية - في مقابل شمس توجّهي الروحي البازِغة - إلى الخروج بنظرية مُسلّية في أثناء سَعْيِكَ المَحْضوم للاستيعاب.

أَجْمَعْنَا عَلَى أَنْ أَوْصَافَ مَرَأَةَ الْعَنِيَّةِ تُطَابِقُ أَوْصَافَ الْمَرَأَةِ الَّتِي رَأَيْنَاهَا عِنْدَ "هَيْمَسِيدِ الْفِيلِي". وَإِذَا بَكَ نَقُولُ فَجَاءَ، حَاولِي رُؤْيَا مَا حَدَثَ كَأَنَّهُ فِيلِمٌ، أَوْ قِرَاعَتُهُ كَمَا لَوْ أَنَّهُ جَرِيْمَةٌ مُثِيرَةٌ! قَوْلُكَ هَذَا جَعَلَ اهْتِمَامِي يَنْصَبُ عَلَى مَا سَيَتَّبَعُهُ. فَمَا كَانَ مِنْكَ إِلَّا أَنْ قُلْتَ، لَعَلَّ الْمَرَأَةَ الَّتِي رَأَيْنَاهَا بَيْنَ أَشْجَارِ الْبَتُولَا تَوَامَ الْمَرَأَةِ الْآخَرَى...

نَعَمْ، وَلَعَلَّ الْمَسِيحَ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمْشِيَ عَلَى الْمَاءِ لِأَنَّهُ بُحِيرَةٌ طَبْرِيَا كَانَتْ مُغْلَقَةً بِالْجَلِيدِ!

عِنْدَمَا مَرَرْنَا بِتِلْكَ الْبُقْعَةِ ثَانِيَةً وَنَحْنُ فِي طَرِيقِنَا إِلَى الْفُنْدُقِ، مَشِينَا يَدًا بِيَدٍ، وَمَشِينَا بِسُرْعَةٍ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسُهُ اتَّفَقْنَا عَلَى أَلَّا نَهْلَعَ. كَلَانَا شَعْرٌ بِالْقَدْرِ نَفْسُهُ مِنَ الْخَوْفِ. كَانَتْ شَجَاعَةٌ مِنْكَ أَلَّا تَشْرَعَ فِي الْجَرِيِّ، لَوْلَا أَنَّنِي دَفَعْتُ الثَّمَنَ، لِأَنَّكَ اهْتَصَرْتَ سَلَامِيَّاتِ أَصَابِعِي بِشِدَّةٍ بِالْغَةِ بِحَيْثُ بَقِيَتْ يَدِي تَوْلُمْنِي لِأَيَّامٍ. أَتَذَكَّرُ النَّبِيذَ الَّذِي احْتَسَيْنَاهُ مَعَ الْعِشَاءِ. كُنَّا فِي أَمْسٍ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ وَأَتَيْنَا عَلَى قَنِينَةٍ كَامِلَةٍ، لَا بَلَّ الْحَقْنَاهَا بِنِصْفِ قَنِينَةٍ. وَأَتَذَكَّرُ أَيْضًا مَعَانَاتِي فِي رَفْعِ كَاسِي بَعْدَمَا هَرَسْتَ يَدِي وَأَوْهَنْتَ قُوَّتَهَا.

وَأَتَذَكَّرُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ الْآخِرَةَ يَا سَتَائِنَ. اللَّيْلَةُ الَّتِي سَعَيْتُ فِيهَا أَنَا إِلَى إِغْوَانِكَ. كُنْتُ عَدِيمَةُ الْكِياسَةِ. دَارَ فِي خَلْدِي أَنْ لَيْسَ أَمَامِي إِلَّا هَذِهِ الْفُرْصَةُ الْوَحِيدَةُ. وَإِذَا فَشَلْتُ فِيهَا، فَلَنْ يَتِمَّ أَحَدُنَا مِنَ الْعَثُورِ عَلَى الْآخِرِ بَعْدَ ذَلِكَ أَبَدًا. حَاولْتُ اسْتِدْرَاجَكَ بِكُلِّ حِيلَةٍ أَعْرِفُهَا. وَبَاعَتْ جَمِيعُ مُحَاولَاتِي بِالْفَشْلِ. وَلَوْ أَنِّي أَقْدَمْتُ عَلَى ذَلِكَ قَبْلَ بَضْعِ سَاعَاتٍ فَقَطْ، لَرُبَّمَا جَعَلْتُكَ تَذَهَلُ، وَجَعَلْتُ الرُّغْبَةَ تَغْلِي فِي عُرْوَقِكَ. وَلَئِنْ هَذَا كَذْرُكَ بِقَدْرِ مَا كَذَرْنِي، إِذْ لَا رَيْبَ فِي أَنَّكَ مِثْلِي اسْتَبَقْتَ التَّفَكِيرَ فِي مَا يَنْتَظِرُنَا، ثُمَلْتَ حَتَّى طَرَحْتَ السُّكَّرَ. ثُمَلْتَ مِنْ زَجَاجَةِ النَّبِيذِ الْأَبْيَضِ الَّتِي أَخَذْنَاهَا إِلَى غُرْفَتِنَا بَعْدَ الْعِشَاءِ وَ "الْكَالْفَادُوسِ". أَمَّا أَنَا فَامْتَنَعْتُ عَنِ الشُّرْبِ. هَلْ تَتَذَكَّرُ كَيْفَ انْتَهَيْتَ لَيْلَتِنَا؟ انْتَهَيْتَ بِنَوْمِكَ وَرَأْسُكَ عِنْدَ نَهَايَةِ السَّرِيرِ بِالْقُرْبِ مِنْ قَدَمِي. وَلَمَّا حَاولْتُ فِي لَحْظَةٍ مَا مُدَاعِبَةٌ ذَقْنَكَ بِأَصَابِعِ قَدَمِي، اكْتَفَيْتَ بِدَفْعِهَا جَانِبًا، لَا بِقَسْوَةٍ أَوْ جَفَاءٍ

ولكن بحزم. لم نتم في البداية، اضطلعنا فقط، وكل منا يعرف أن الآخر ما زال صاحباً مثله، كل منا يتظاهر بالنوم، إلى أن غفونا فعلاً في النهاية. أو أنت على الأقل غفوت، لأنك لم تستطع المقاومة أكثر مع تلك الكمية من الكحول التي شربتها.

ندمتُ بمرارة حارقة لأنني لم أستسلم لك هناك في الأعلى عند الحرج قبل أن تظهر لنا امرأة العنبيّة. عرفتُ أننا قد نعمنُ في التثائي، وبدأتُ من تلك اللحظة أفنّذك.

حنينُ المرء إلى الشخص الذي يشاطره السرير يمكن أحياناً أن يكون أشدّ وأقوى من الحنين بين شخصين تفصلهما قارّات.

وصلت المغامرة إلى نهايتها أخيراً. في المركب ونحن نقطع الخليج تجاذبنا أطراف الحديث بمودة، شربنا القهوة وأكلنا فطائر غرب النرويج. نزلنا من العبارة "نيسوي" في "هيل" حاملين حقائبنا وزلاّجتيّنا، ووجدنا السيارة حيث تركناها. بدت تلك الخنفساء الحمراء كما لو أنها تعاني من الهجران وتلهّف على لقينا. يا للمصائب الأمامية البائسة والرفراف المسكين، قلتُ لنفسِي، ولعلّي قلتُ ذلك بصوتٍ مسموع، لأن تعليقك فاحٍ برائحة الدُعاية السوداء: إنها تبدو مثلنا، غمغمتُ. وما لبثنا أن مضينا.

ماذا سنجدُ هناك في الجبل؟ أي شيء غفلنا عن تبيينه عندما طرّقنا تلك البقعة في آخر مرة؟ هل تحرّينا بدقّة أي آثار للدماء أو الجلد أو الشعر؟

لم يقتصر حوارنا على هذا فقط. فرحة عودتنا بالسيارة إلى البيت كانت، بالنظر إلى الظروف، لطيفة. ربما لأننا تيقّنا من أنها رحلتنا الأخيرة معاً. شرّعنا نتعاملُ بذلك النوع من الاحترام الذي تفرضه المُعاشرة. وعينا جيداً أن أي انجرافٍ عفوي مُلهبٍ للعروق نحو عشٍّ حُبٍّ آخر باتٍ بالنسبة إلينا مستحيلًا. مع ذلك بقينا نتعاملُ بمحبة. تصرفنا بتهديبٍ وتفهمٍ.

تعيّن علينا أولاً أن نعبّر الخليج، ثم كان أمامنا تجاوز "ليردال" والنهر وكنيسة القصبان. اعترّقتني لحظة ضعفٍ ونحن نمرُ بمنعطف المنحدر، حيث

تهياً لي قبل أسبوع أنك تنوي قتلي أو قتل نفسك. رفعت يدك اليمينى عن الموقود ووضعت ذراعك حولي، وما فعلته واساني. ولم يمض وقت إلا وأصبحنا لمرءٍ أخرى عند قمم الجبال.

وأنا الآن أسافرُ في الاتجاه المعاكس يا سولرن. إنني في "غول" حالياً، وقد تسللتُ إلى منطقةٍ تُؤمنُ الاتصال اللاسلكي بالإنترنت في فندق "بير". أُميتُ للتو قراءة رسائلِك الإلكترونية الأخيرة، وما أنا أرسلُ لك ردّي من هناك.

يتهياً لي أن الناسَ من حولي يراقبونني بحذرٍ لأنني لستُ من نُزلاء الفندق، بل مجرد عابر سبيل. وفي بعض اللحظات يُخيّل إليّ أنهم يهتمون باستجوابي. في الأيام الغابرة كان المرء يتسلّل إلى الفنادق لاستخدام المرحاض. وفي أيامنا هذه أصبحتُ أستخدم أيضاً للدخول إلى الإنترنت. كان عليّ أن أعبرَ الجبل ثانية مهما كلف الأمر. إلا أنني الآن مضطّرٌ إلى إنهاء رسالتي. أمامك أربع أو خمس ساعات قبل أن يُتاح لي دخول الإنترنت مرّةً أخرى. سيكون تواصلني معك من الفندق هناك؛ فهو المكان الذي أنوي التوجّه إليه. أعلمتهم بحضوري، وما أننا في نهاية الموسم تقريباً، قالوا لي إنني قد أكون الليلة ضيفهم الوحيد.

أنتَ ذاهبٌ إلى "قيارلاند" يا ستاين؟ في هذه الحالة سيستسنى لنا أن نتبادل التلويح بأيدينا من "هيمسيدال". سيَرى أحدنا الآخر بينما نحن نمرُّ في مكانٍ ما هناك، وعندئذٍ، لن يفصلَ بيننا شيء سوى متر واحد وجبل...

طالعنا بحيرة "إلدرفاتنت" بسطحها البارد والمتلاكي، ولاحظتُ عندئذٍ أن يديكَ عادتَا إلى الارتعاش وهما تمسكان الموقود، وأن قدمكَ ما عادت ثابتةً

على الدّواسة. وأخيراً وصلنا. أوقفت الخنفساء الحمراء عند جانب الدرب وخرجنا منها؛ ومع أن كلّ منّا بقي حريصاً على رعاية الآخر، بقرّ ما خلفه ذلك الحدث فينا من حزنٍ وندمٍ ومرارةٍ التعاطفِ الحسّي بيننا. ولذلك لكتبتُ بالاستسلام للبكاء عندما تصرّفتُ بخشونةٍ بالغة، متلفظاً بكلمات نابيةٍ لم أعهدك تستخدمها.

اكتشفنا أن الشال الوردي قد اختفى. وسّعنا مساحة البحث عنه، وحتى على الرغم من أن تبيّنه لم يكن ليتطلب مجهوداً، لم نستطع لمحه في أي موضع. هل عثرَ عليه أحدٌ وأخذه؟ لم هل طيّرتَه الريح؟

لا تُسعني ذاكرتي لأقول ما إذا شعرنا بالارتياح أو بخيبة الأمل عندما وجدنا مزبداً من شظايا زجاج المصباح الأمامي. هذا عنى أننا لم نتخيل الحادثة، عنى أننا صدمنا أحدًا هناك بالفعل، صدمناه بسرعةٍ عالية. لم نجد أثاراً أخرى تدلّ على الحادثة. لم نرِ آثار دماء، ولا رأينا صخرة كبيرة أو كتلة ترابية يُحتمل أن تكون السيارة قد دحرتها.

عُدنا إلى الفولكسفاغن وانطلقنا مبتعدين. لبديت ملاحظة عن رَبوّة غريبة تشبه قالب السكر عند نهاية البحيرة، كما لو أن لهذا أي علاقة بقضيتنا الغامضة.

لم نتكلّم على أي شيء بينما مَضينا نقطع طريق "هيمسيدال" إلا على ما حدثَ عندما كنّا مندفعين في هذا الطريق من قبل. وفي رأيي أنت الذي ابتدأت ذلك، لحظةٍ سعيّت إلى التّحايل عليّ، مثل مُغرّرٍ مُنحل، تماماً في أثناء مرورنا بالدرب الحرجية التي وطلدت العزم على المُضي فيها. كان من المُحال قطعاً أن يحاول أي منّا التلميح إلى ذلك العمل الطائش ثانيةً.

ثم عَقَدنا اتفاقاً. اتفقنا على أن في وسعنا مناقشة الحادثة المصيرية على امتداد طريقنا إلى البيت، أما بعد الوصول إلى "كرينغشو" فلن نشير أبداً إلى ما واجهناه في ذلك الطريق الجبلي، لا سراً بيننا وبين أنفسنا ولا علانية مع أي شخص آخر. وهذا ما التزمناه منذ أن أصبحنا في "أوسلو". منذ ذلك

الحين قلما أتينا على نكر ما وقع عند بحيرة "إذرفانتنت" باستثناء قولنا ذلك. وعلى الرغم من أن رسائلي الإلكترونية هذه تخرقُ اتفاقنا القديم، لا أعتقد أنها ستجلبُ علينا المزيد من الوَبال، بل العكس تمامًا كما أمل، وهذا في الواقع ما يدفعني إلى تدوين تلك الأحداث.

اختفى الشالُ الوردي من الجبل - لم يكن من المرجح طبعًا أن يبقى هناك بعد مرور تلك الفترة الزمنية، كل ما في الأمر أننا تنبأنا من ذلك بأنمُ أعيننا. شعرتُ في أعماقي بشيء من خيبة الأمل، لأننا لو وجدناه ثانية، حتى وإن كان ممزقًا، لأمكن على الأقل أن نرى فيه مؤشرًا على أن المرأة التي ظهرت لنا بين أشجار البتولا ليست مخلوقًا من لحم ودم. بل هي روح كشفت نفسها لنا. وعندئذٍ، سنجد أننا نتعامل مع شالين؛ شال يعود إلى ضحية حادثة الاصطدام وآخر ما زال على كتفي مرأة العنّبية.

وبما أن الأخبار لم تُورد شيئًا قط عن حادثة سيارة، وصلنا إلى ما يشبه الإجماع على أن سائقَ العربة البيضاء تولى حتمًا أمر الاهتمام بالمرأة ذات الشال، ما لم نتفق عليه هو الحالة التي كانت عليها آنذاك. بالنسبة إليكِ، لقأونا بها عند أشجار البتولا دَلًّا على أن إصابتها من جراء الاصطدام طفيفة. أما أنا فرأيتُ في ذلك للقاء الدليل القاطع المُناقض، للدليل على أنها ماتت من قُداحة إصابتها - وأنه يوجد شيء ما في الطرف الآخر يا ستاين! تصوراتك انتهت إلى أنها على الأرجح نهضت بعد الحادثة مباشرة، وأنها بكل سهولة طلبت من سائق العربة البيضاء أن ينقلها بسيارته. أقنعت نفسك بأنها كانت عائدة إلى "هيمسيدال"، وأنها بطريقة ما على صلة بالقاطرة الأجنبية. وارتأيت أن مثل هذا الحل للغز الذي حيرنا فيه تفسيرٌ كافٍ لعم سماعنا في الأخبار شيئًا عن حادثة سيارة في الليل. وهذا خالف ما ارتأيتُه أنا، فالمرأة ذات الشال كانت، في نظري، مُصابة حتمًا إصابةً بليغة أو ميتة عندما حُمِلت إلى العربة للبيضاء. المفارقة الغريبة هنا، هي اتحاذ أقوالنا بخصوص شيء واحد: بَنَت المرأة ذلت الشال بخير بعد ما لا يزيد عن

أسبوع من دهننا إياها. لولا أنك عانيت في هذا العالم، بينما عانيت أنا في أي مكان انتهت إليه.

تناولنا بالبحث تفاصيل الوقت والساعة من ذلك اليوم. ثم قلت مستتجاً، في حال أننا خبطناها فقط، أليس من التسرع عقد صلة بينها وبين العربية البيضاء التي مرّت بعد دقائق؟ ربما نهضت وتابعت المشي، فلماذا يخبر سائقُ العربية الشرطه أنه شاهد امرأة في منتصف العمر تتجول عبر الجبال على الطريق السريع ٢٥٢؟

‘لا تنسَ أننا لم نلمح لها أثراً،‘ أجبتك. ‘كما لو أنها تبخّرت. ثم حتى لو أننا وكزناها فقط، لا ريب في أن ما فعلناه أغضبها كثيراً، وسيجعلها هذا، حالما تنتهي إلى منطقة مأهولة، تلجأ فوراً إلى الاتصال بالشرطة لتعلمهم أن فولكسفاغن حمراء على سطحها زلاجات كانت تطرحها أرضاً وتهلكها.’

استمعت لي، قبضت على المفود بحزم أكثر مما فعلت في رحلة الذهاب، ثم هزرت رأسك معارضاً وأدليت بحجة منطقية، ‘منعها سبباً ما من اللجوء إلى الشرطة. أترك تساعلت في النهاية عما كانت تفعله هناك في منتصف الليل؟ إن المرء لا ينطلق في نزهة عادية إلى الجبال لمجرد التنزه في ذلك الوقت من اليوم. وأستبعد أن تكون قد خرجت ومشّت كل تلك المسافة من أقرب بيتٍ لو قرية لتستشقّ الهواء النقي. طبعاً في وسعك عبور الجبال في الليل، فالظلام ليس دليماً في هذا الوقت من السنة، والجو ليس شديد البرودة أيضاً. غير أنك في هذه الحالة أنت فقط تقومين بذلك لأنك مضطرة إليه، لأن لديك مهمة استثنائية، أو لأنك هاربة أو فارة من شيء ما.’

أصغيت إلى ما تقوله. كنّا باسم النقاش نتجادل في تلك اللحظة من خلال فرضياتك.

ومن أي شيء يمكن أن تهرب، مثلاً؟ سألتك. قُدت السيارة لأربع أو خمس دقائق من غير أن تقول شيئاً. كان المطاف قد انتهى بنا إلى تبادل الحوار بأسلوب جديد وغريب جداً. ما عُشنا عاشقين.

توقفنا عن الدُّرْشَة، توقفنا عن الضُّحْكَ. في الوقت نفسه بقينا ودودين ومتسامحين. أراد كلٌّ مِنَّا مساعدة الآخر فعلاً، لولا أننا عَمِدْنَا المَقْدَرَةَ على القيام بما هو أفضل لنا معاً.

‘مِمَّنْ لو مِمَّا كانت تهرب؟’ سألتك مرةً أخرى.

‘من سائقِ القاطرةِ التي رأيناها في موقفِ الطريقِ الجانبي،’ أجبت. ‘حدث شيءٌ ما، فغادرتُ وانطلقتُ نحو الجبال. ولعلَّها تعرفُ المنطقةَ من قبل، علاوةً على أنه ليس من الصعبِ تلمُّسِ الطريقِ فيها: الواديان، الشرقي والغربي، متجاوران، وتقريباً شبيه مُتداعمان من الخلف، ولا شيء يفصل بين أعالي الواديين إلا بحيرة “الذرفانت”’.^٦

نظرتُ إليّ كما لو أنك تلمّس مني موازرتك لِتَوْغِلَ أكثر في نظريتك.

‘وما يدرينا أن تلك المرأة بعينها ليست فارّةً من جريمة، ربما من جريمة وحشية، من نَحَرها رجلاً أساء معاملتها لسنوات على سبيل المثال، وهذا الرجل قابعٌ ميتاً الآن في مقصورة قاطرة أجنبية. إن صَحَّ هذا، فلن تهرع بطبيعة الحال إلى الشرطة.’

أثّرَ فيّ خيالكِ الواسع كثيراً إلى درجة أنني وضعتُ يدي على فمي حتى لا تُراني أضحك.

إلا أنكِ تتبّهتِ إلى ذلك فاستدركتِ قائلاً، ‘انسي هذا! هي بنفسها سائقة القاطرة. لم نلمح أحداً في مقصورة تلك القاطرة عندما مررنا بها، وبعد دقائق قليلة رأينا السائقة المتّرجلة تعبر الجبال. أرغمها الجوُّ البارد على لفَّ الشال حول كتفيها، ولما اقتربنا منها أشاحت بوجهها بعيداً عنّا كأنها لا تريد أن يميّزها أحد. وهذا لأنها على موعدٍ لقاءٍ مع سائقِ عربةٍ بيضاء بمئأى عن الطريق الرئيسي. من المُفْتَرَض أن يتقابلا عند مَسْقَطِ الماء، وهناك سيجري تسليم شيءٍ ثمين؛ بضعة كيلوات من المسحوق الأبيض ربما، أو ربما حفنة من المال، أو لماذا لا يكون مالا لقاء المسحوق الأبيض؟ أو حتى لماذا لا يكون شيئاً - كميات هائلة من شيء ما - سيسقطه أحدهم من طائرة؟ في مثل هذه الحالات لن تهرعِي إلى قَرَعِ أبواب الفلاحين المَحَلِّيِّين

أو الاستجداء بالشرطة. ثم بعد أن صدمتها فولسفاغن حمراء استبدَّ بها هاجس الانتقام. وإذا كانت تروخ وتجيء على الطرقات، فليس من المفاجئ أن تعثرَ بعد أسبوعٍ على خنفسائنا في "هَيْلا". وهذا جعلها تخمّن أننا ذهبنا إلى جبل الجليد ولنا اختبأنا في مكان ليس فيه مواصلات بريّة، من أجل المشاحنات والقاطرات مثلاً، فقررت ملاحقتنا؛ لتقتصّ منّا، ولتمارسَ في المقام الأول خدعة علينا. هناك خُدْعٌ وهناك خُدْعٌ أخرى، تابعت مُشدّداً على كلماتك، 'ثمة وسائل متعدّدة لتدمير حياة الناس. وإذا كنتِ نزّاعة إلى المكيدة فهناك سُبُلٌ مختلفة لتؤدي بشخصٍ إلى حتفه.'

أتيتَ مؤخراً في إحدى رسائلك لي على ذكر شيء مُماثل، في معرض حديثك عن مُشعوذٍ من الشرق الأوسط استخدم السّحر لِيبثَ الفرقة بين زوجين...

بعد كلِّ ما قلته تخلّيتُ عن محاولاتي في إخفاء شعوري بأن أفكارك الإبداعية تكادُ تقترب كثيراً من الكوميديا. وضعتُ يدي على ركبتيك - أظنُّ أنك أحببتَ تلك البادرة، وأظنُّ أيضاً أنها إحدى التصرّفات الأخيرة للقيلة التي أظهرنا فيها أي حنان جسدي بيننا - ثم قلتُ لك، 'ماذا عن الشال يا ستاين؟ إذا لم تتعرّض لإصابة خطيرة فما للداعي لأن تنزعَ شالها الوردي أو تفقده طالما أن الليلة كانت باردة؟'

لا أستطيعُ الجزمُ إلى أي مدى كنتَ أنتَ بنفسك مقتنعاً بنظرياتك في تلك الآونة. وبقرّ ما أذكرُ أردفتَ تلك النظريات بقولك إنك تحاول فقط التفكير بعقلانية. لا خطأ في هذا يا ستاين، إلا أن الشيء الغريب في مرآة العنّية لا يقتصر فقط على تطابقها مع المرأة التي دهسناها، بل كذلك على طريقة ظهورها بين الأشجار فيما نحن نلمسُ أزهار كَفِّ الثعلب - تلك الأزهار المُكتنزة والمُفعمة بالحياة - ثم طريقة اختفائها ثانية. كنتُ في تلك الأثناء قد بدأتُ أطوّرُ تأويلي الروحي للأمر. والآن، أعني ونحنُ في السيارة عائدين إلى البيت، حاولتُ على الأقل أن تعبرني انتباهك طَوّال الطريق نحو "غول"

و"تيسبين"، وقُدِّمًا صوب بحيرة "كروديرين" ثم "سوكنا" و"هونيفوس" و
 "سوليهوغدا" من غير أن يكون لذلك أي شأن بالمُجاملات التي تفرسها
 المُعاشرة. كان كل شيء ما زال حديث العهد بَعْدَ، وكُنْتُ يا ستاين مُشوَّش
 الذهن حقًا. لم أُشير إلى الكتاب الذي اختلستُه من صالة البليارد، وأمضيتُ
 ساعةً أقرأ فيه في الصباح التالي ولنتَ نائم. تُرى، أليس غريبًا أيضًا أن نَقَعَ
 على ذلك الكتاب قبل بضع ساعات من لقائنا غير المتوقع مع مَرَأة العِنْبِيَّة؟

بالتدريج، جاعني الإلهام بأنه في وسعنا النظر إلى لقائنا مع مَرَأة العِنْبِيَّة على
 أنه حدثٌ مَيِّمون. نحن اللذان لطالما تشاركنا في تقديرنا العميق نفسه للحياة،
 وأيضًا أَمَضْنَا معًا أَسَى مساوٍ له لأن هذه الحياة ستنتهي يومًا بلا رَجْعَةٍ، كُنَّا
 سنشاركُ في هِيَةِ عظيمة - لقد أُعْطِيتَ لنا فجأة إشارة تبيِّن لنا أن حياتنا
 هذه مرحلة عابرة فقط، وأن أرواحنا يمكن أن تحظى كذلك بوجودٍ آخر بعد
 هذا الوجود. أُعْطِيتَ لنا لَمَّا وَقَفْتَ تُطالِعُنا بابِئْسَامَةِ "الموناليزا" تلك، ابِئْسَامَةِ
 عابِثَةٍ وفُطْنَةٍ تتادينا؛ تَعَالَا! وحتى اليوم وأنا أكتبُ لك، كم أودُّ أن أشارككَ
 في هذا الظُّفْرِ. فليس ثَمَّة ما يُلْزِم أن يأتي هذا بعد فوات الأوان.

إلا أنه كان هناك شيء آخر يبعثُ السُّلْوى في النَّفْس؛ ما عادت المرأة
 ذات الشَّال في حالة سَيِّئَةٍ. أَلَمْ يَخَفَّفْ ذلك من فداحة شعورنا بالذَّنْب؟ نعم، لقد
 وَضَعْنَا بالتأكيد حدًّا لوجودها الدُّنيوي، لأن جسدها مات، ربما فورًا أو ربما
 خلال الأسبوع الذي تَلَا - وهذه تبقى إلى اليوم فكرة مُروِّعة - لكن مَرَأة
 العِنْبِيَّة كُشِفَتْ لنا أنها عبرت إلى البُعد الآخر. أليس هذا في الأساس سبب
 ظهورها لنا؟ لتسامحنا، ولتَغْرِسَ فينا شجاعة جديدة! لي قالت: 'أَنْتِ مَنْ
 كُنْتِها، وأنا من سَتَكُونِها'. كأنني بها تقول، لا تبتئسي، ستصبحين مثلي، ولن
 تموتي أبدًا... أما أَنْتَ فحَمَلْتِ لك رسالةً مُطْمَئِنِّة: 'كان ينبغي أن تُغْرَمَ
 مُخالفةً لتجاوزِ السُّرْعَةِ يا فتاي'. فمن وَجْهَةٍ نظرَها، أعني من وَجْهَةٍ نظرَها
 الجَدِيدَةِ، أَنْتَ لَسْتَ مُذْنِبًا بما هو أَكْثَرُ من انتهاكِ قَوَانِينِ السَّير؛ شيء قد
 يرتكبه أي شخصٍ مِنَّا ونجن بَعْدَ عَالِقُون في سباقِ الجردان هنا في العَالَمِ

الأرضي. كأنني بها تقول إن ما أخذ مجراه ليس أكثر هوَلاً من الحصول على مخالفة، لأن أجسادنا كَليلة وسريعة الزوال، وهناك وجود آخر بانتظارنا أنقى وأكثر استقراراً.

ولذلك أرى حقاً أن ما قالته لكلِّ مِنَّا يتضمَّن المعنى نفسه.

وهكذا عُدنا إلى البيت من جديد، ولم يكن مُباحاً لنا التطرُّق إلى ما جرى. لكن أذاه النَّفسي بقي فينا، وأثقل عاتقنا حملُ الخزي والشعور بالذُّنب الذي ما فتئ يتجدَّد كلما تلاقت عيوننا، كلما قَلبنا ببيضة معاً، لو كلما صبَّ أحدنا للآخر فنجان قهوة أو فنجان شاي.

إلا أنني ما لبثتُ أن وصلتُ إلى استنتاجٍ مفاده أن ما حال دون أن نستمرَّ في حياتنا معاً ليس الخزي في الحقيقة. فقد كان في وسعنا أن نخلفَ للشعور بالمهانة وراعنا. وأعتقد أننا كنَّا على استعدادٍ للذهاب طَواعية إلى الشرطة لنسلم أنفسنا. نعم بهذه البساطة! وكُنَّا على استعدادٍ لتحمل أي عقاب أو فضيحة نستحق، وكلِّ مِنَّا يَشُدُّ عَضُدَ الآخر.

لُنتُ بالتأكيد لم تنس ما أقمنا عليه قبل أن نُحكِّم وضعَ الغطاء على ذلك كله. ففي النهاية اتصلنا هاتفياً بالشرطة من غير أن نفصح عن هُويَّتنا. واستعلمنا عما إذا كان هناك بلاغٌ عن حادثة سَيَر أو موت شخص عند حدود المقاطعة على الطريق السريع ٥٢ في تلك الليلة المَعْنية. وزعمنا أن سببَ اتصالنا يعودُ إلى أننا ربما شهدنا شيئاً. أخذوا علماً بالزمان والمكان وطلبوا منا معاودة الاتصال لاحقاً لأننا أصررنا على البقاء مجهولين. انتظرنا بضعة أيام قبل أن نتصلَ من جديد، وعندئذ، أكنَّت لنا الشرطة أنه لا بلاغ هناك عن أي حادثة، لا في تلك الليلة ولا في أي ليلة أخرى في ذلك القطاع المُستوي والممهَّد جيداً من الطريق.

فجأة اكتشفنا أن ما حدث لا آثار له. هذا جعل جانبه الدُّنيوي أكثر غموضاً، وما زال إلى اليوم لُغزاً. كان هناك شخصان؛ أنا ولُنت، وكُنَّا نعرف أننا قد دهسنا امرأة. ما عني أن شخصاً آخر غير الشرطة والسلطات

تولّى الاهتمام بجثمان المرأة. وهكذا وبالتدريج أيضًا غدوت أكثر اقتناعًا بأننا تواصلنا مع روح تلك المرأة بعد بضعة أيام من عبورها إلى الطرف الآخر.

هنا كَمَنْتُ الفجوة العميقة بيننا. الاستنتاجات التي استخلصتها مما اختبرناه اختلفت كثيرًا عن استنتاجاتك. وهذا ما جعل بقاينا معًا مُستحيلًا. بدلتُ من فوري أقرأ عن الفلسفة الروحية. وكان لدي الكتاب الذي أخذته من صالة البليارد. وقد خشيتُ أن ترميه في وجهي، عندما رأيته معي ثانية. وإلى جانب ذلك انكببتُ على قراءة الكتاب المقدس. وأنا الآن أعتبر نفسي مُؤمنة.

نعلمُ أن السيد المسيح قد أظهر نفسه لتلاميذه، وأعتقد أن هذا الظهور هو من النوع نفسه الذي كشفت به تلك المرأة نفسها لنا. تحدثنا عن هذا أنا ولنت. وبالنسبة لي، أرى أن الاعتقاد بأن يسوع مات أولاً، ثم عاد جسده الميت إلى الحياة هو اعتقاد فُجَّ جدًا. ما يعني أنني أرفض المعتقد الكنسي عن 'قيامة الجسد'، أو المفاهيم البالية عن فتح القبور يوم السبت. أنا أؤمن ببعث الروح. أؤمن، على غرار 'القديس بولس'، بأننا بعد موتنا الجسدي هنا سنقوم ثانية بـ 'هيئة روحية' في بُعدٍ مختلفٍ كل الاختلاف عن العالم المادي الذي نعيش فيه الآن.

اصطنعتُ لنفسني تَوليفة جمعت بين الدين وبين ما يتضمّن، في رأيي، اعتقادًا رشيدًا بأن لدينا أرواحًا خالدة. على الرغم من أنها في حالتي لم تكن مجرد مسألة إيمان. بل رأيتُ بأنّ عيني ظهورًا لامرأة دهسناها معًا وقتلناها، مثلما رأى تلامذة المسيح السيد المسيح بعد أن 'قام من بين الموتى'، كما يقول المسيحيون الأوائل. أولاً توافقني هنا على أن السيد المسيح أيضًا ظهر لتلاميذه ليُعلّمهم الصّفح، أو بكلمات أخرى الأمل والإيمان؟

أو وفق كلمات القديس بولس: 'ولكن إن كان المسيح يُكرّز به لأنه قام من الأموات كيف يقول قَوْمٌ بينكم إن ليس قيامة أموات. فإن لم تكن قيامة أموات فلا يكون المسيح قد قام. وإن لم يكن المسيح قد قام فباطلة كرازتنا وباطل أيضًا إيمانكم.'

أنا، أنا التي كثيراً ما دُنتُ في الماضي بمرارةٍ بالغةٍ عدم خلودي، وتسببتُ في ركوبنا الخُفْسَاء والانطلاق إلى جليد "يُوسْتَد السُبرين" أُملاً في الحصول على المُواساة، أنا التي لطالما أُسِفْتُ بجنونٍ لأنني لن أُحصل أبداً على كفايتي من الحياة، اكتشفتُ فجأةً عقيدةً توفيقيةً تسترضيني بحياةٍ أبديةٍ بعد هذه.

بعد يومين أو ثلاثة فقط اكتظمتُ شَقَّتَا الصغيرة بالكُتُب، كتب اشتريتها أو استعرتها تبحثُ في الظواهر التي تسميها 'خارقة للطبيعة'. ولا أظنُّكَ لاحظتُ أنني كنتُ أقرأ في الكتاب المقدس أيضاً. ما لم تستطع تقبله في الواقع هو أنكِ عَدِمْتَ إيماناً يُضاهي توجُّهي الجديد. اعتبرتُ ذلك خيانة. كان لنا نحن الاثنين مذهبنا الخاص، ورأيتُ أنه لم يبقَ في الأبرشية التي تخليتُ عنها إلا تابعاً واحداً.

لأن الآية لم تكن معكوسة. لم أكن أنا التي ما عادت تستطيع الاستمرارُ في الحياة معكِ بسبب إلحادكِ. حقيقةً لا. إلا أنني على المدى الطويلِ بَتُّ عاجزةٍ عن تحمُّل استمراركِ في هزُّ رأسكِ مُستكراً إيماني الجديد. لم تتساهل. لم تُظهر أي تسامح، لم تُظهر أي رافة. وصنَّبتُ عليّ تقبُّل ذلك منك، ما اضطررتني في النهاية إلى المُغادرة وركوب قطار ما بعد الظهيرة إلى بيرغن...

ثم أضيفُ فصلٌ جديد إلى قصيتنا بعد أكثر من ثلاثة عقود. خرجتُ إلى الشرفة حاملاً فنجان قهوة وبلا أي مُقدمات وجدتني هناك. عندئذٍ، وللحظة، خِلْتُ لُئني قادرة على رؤية نفسي من منظورك، وولَدَ في هذا شعوراً بالارتباك.

والآن، أودُّ أن تسمح لي بأن آخذكِ في تجربة فكريةٍ أخيرة. وهذا مهمٌ لي في الواقع، لأن هذه التجربة الفكرية هي أيضاً تعبير عن شكٍّ مزعجٍ ما انفكَّ يساورني بالحاحِ مؤخراً. نعم يا ستاين أنا مثلكِ قد تساورني الشكوك. عُدْ بالزمن إلى الوقت الذي كنَّا منطلقين فيه عبر الجبال، وحاول أن

تتخيلَ معي أن هناك آلة تصوير مُثبتة على غطاء السيارة الأمامي. وفي حال أنها كانت تصوّر الطريق أمامنا قبل لحظةٍ فقط من الحادثة، فهل يمكنكُ أن تجزِمَ اليومَ جزماً قاطعاً بأن المرأة ذات الشال ستظهر في الفيلم؟ لا ريبَ في أنك تحسبني الساعة أعيرُ عن نفسي بطريقة غريبة جداً، إلا أنني في الحقيقة أكتبُ عن شيء هو غريبٌ جداً.

من أطلقنا عليها اسمَ مرآة العنبيّة كانت ظهوراً من الجانب الآخر. لكنني، كما أسلفتُ، لستُ واقعةٌ جداً من أنه كان يمكننا التقاط صورةٍ لها، ولا تسجيلَ ما قالتَه. فهي لم تكن إلا روحاً تزور الأحياء. لذا فقولنا إنها 'تجسّدت' يُجانب الصواب. بل نحن حتّى لم نسمع الكلام نفسه. جاءت إلينا حاملةً فكرةً لك وفكرةً أخرى لي. وعلى الرغم من الاختلاف الكليّ بين العبارتين اللتين نطقتَ بهما، فإن معناهما واحد تقريباً.

واليوم، أعتقد أن لدي فكرة جيدة إلى حدٍّ ما عما حدث من خلال قراءتي عن أناسٍ واجهوا تجارب مماثلة لتجربتنا. وأريدُ في البداية أن أشدّد على نقطة واحدة مهمة. نحن نعرف أن الأرواح ليست بطبيعة الحال مُحْتَجزة في نطاقَي الزمان والمكان المعروفين لنا هنا في وجودنا الرُّباعي الأبعاد، ناهيك عن الوجود الميكانيكي. إذ، ماذا يمكن أن يحتجزها؟ ومن هذا المنطلق أقول إنه ليس من المؤكّد ما إذا كانت مرآة العنبيّة قد عبّرت إلى الطرف الآخر بالفعل، أو أنها شيء يكمنُ في المستقبل، أعني ليس مؤكّداً من خلال وجهة نظرنا، من خلال زاويتنا الزمّنية لهذا اللُّغز. ربما كانت تلك المرأة نذيراً بشيء، وهناك في أدنى الأحوال احتمال في أنها ما زالت بيننا.

لكننا دهشناها، سينحوا بك تفكيرك الآن، وأنا أيضاً لطلالما أصررتُ على أنها ماتت هناك وفي تلك اللحظة أو في الأيام التي تلت. هذا ما أحاول استجلاءه يا ستاين، هذا ما بذّر فجأةً بذرة الشكّ الصغيرة في أعماقي، احتمال أن يكون ما اختبرناه هناك عند بحيرة ذلك الجبل نذيراً بشيء لم يتحقّق بعد، بشيء سوف يتحقّق لاحقاً.

والمصباح الأمامي المهشم؟ وكذلك اهتزاز أحزمة الأمان المbaugh. نعم، حدث ارتجاج ماء، بيد أنه ليس بذلك الارتجاج العنيف، ما يعني أننا صدمنا شيئاً، وأنا لا ألقى بظلال الشك على هذا، مع أنه من الجائز جداً أن ما صدمناه لم يكن إلا روحاً.

حتى في ذلك الوقت لم أر أننا تضررنا كثيراً إذا أخذنا ظروف الحادثة بعين الاعتبار. فانت بعد كل ما جرى تابعت السير. فهل كان من الممكن أن تفعل ذلك لو أنك صدمت طبيباً أو إلكة؟

إنما، بعد وقت قصير عدنا ووحدنا الشال على الأقل. نعم هذا صحيح، ولذا أراني أقول مثلك الآن إن ذلك مضى عليه زمن طويل، وما عدت اليوم متأكدة. ثم إن الشرطة قد أعلنت أنه لم يقع أي حادث في تلك البقعة المعنية. للتثبت فقط من تغطية جميع الاحتمالات، أود الإشارة أخيراً إلى أن مرأة العنبيّة ظهرت لنا في ثلاث مناسبات. أولاً في الدرب عند قمة "هيمسيدال"، ثم عند البحيرة، وأخيراً وللمرة الثالثة بين أشجار البتولا وراء الفندق القديم. فما قولك يا ستاين؟

منذ ذلك الحين لم تعود الظهور لنا قط، لا لك ولا لي. هذا أول ما استعلمنا عنه بمجرد أن أصبحنا وحدنا هناك. لا جدال في أنها جاءت إلينا نحن الاثنين بالتحديد. وربما لا أحد غيرنا، لا أحد غيري وغيرك رآها في أي يوم.

أمل ألا يكون هذا الملخص ثقيل الوطأة عليك. في بعض اللحظات يعتريني الخوف من أن تعود إلى قطع حبال التواصل بيننا بسبب تباين وجهات نظرنا. ربما ما زلت تعتقد أنني مختلة عقلياً، بيد أنني أعرف أن فيك بقعة تسعى وراء تفسير أكثر وضوحاً للغز الغامض الذي واجهناه هناك، حتى وإن توصلنا مع مرور الزمن إلى استنتاجات جذ متخالفة حوله. أتذكر كيف انبرنا نتكلم في ذلك اليوم بالذات، وأتذكر رحلة عودتنا إلى "أوسلو". أنت لم تبعد، ولم تتغلق على نفسك إلا بعد أن بدأت أزحم الشقة بكل تلك الكتب.

والآن، بعد ثلاثين سنة، تكتب قائلاً إنك كنت خائفاً مني.

لا تجعل رسالتي هذه آخر ما بيننا من كلام. ينبغي ألا ننسينا شيء أننا كنا من سُكَّان الكهوف. وانطلاقاً من وجهة النظر هذه، كنا أيضاً الإنسان المُتَّصِب، و الإنسان الماهر، و الإنسان الإفريقي الجنوبي. ونحن على كوكب ينبض بالحياة في كَوْن غارق في الغموض. أنا لا أنكرُ أي شيء من هذا. إن اللغز الكبير الذي نولِّف جزءاً منه ليس له بالضرورة جوابٌ مادي أو محسوس فقط. ربما نحن أرواح خالدة أيضاً، ولعل هذا ما يمثل النواة الأعمق لتفردنا. أما ما عدا ذلك - النجوم والديناميكيات - فليست إلا مُخَلَّقات خارجية. بل حتى الشمس لا تفقه أكثر مما يفقه الضفدع، ولا المجرة تستوعب أكثر مما تستوعبه قملة. ما يمكن هذه الأشياء فعله لا يتعدى الاشتعال ضمن نطاق أجلها الموقوف لها.

لطالما كنت سريع الخاطر في تنكيري بأن أجسادنا على صلة بأجسام الزواحف والضفادع. مع ذلك، وعلى الرغم من العلاقة الوراثية بين الفقاريات البدائية و الجنس البشري، يختلف الإنسان اختلافاً جوهرياً عن الضفدع. فنحن قادرين على الوقوف أمام المرأة والنظر في أعيننا مباشرة، والعين كما تعلم مرآة الروح. وبالتالي نحن بأنفسنا الشهود على ما خفي منا. وهذا ما عبّر عنه أحد الكهّان الهنود بقوله: الإلهاد هو ألا تؤمن بمجد روحك.

هنا على الأرض نحن جسمٌ وروح معاً في وقتٍ واحد. لكننا سنصمد ونبقى أحياء بعد فناء الضفدع الذي فينا. كانت مرآة العينية مُعْجَزةً من وراء هذا العالم، وما عادت جسداً من لحم ودم. وإنني لأتمنى أن تتفتح عينك في يوم ما على السرّ السماوي الذي حملت لنا بشارته.

وبعد كل ذلك، وبابتسامة متألمة، تسترجع ذاكرتي طريقة تسليم كلِّ منا نفسه للآخر، مرّةً تلو مرّة، بظماً يصنع إرواه تقريباً. وأحتفظ بصفة خاصة

بلقطات فيلم ذهني من أسبوعنا الأخير في "قيارلاند". إنها ذكريات جميلة، ولا يُشعرنني أي منها بالخجل من طبيعتي الجسدية، بل ما كنتُ يوماً ولا حتى من غير أن أعيَ خجلةً منها، وهذا لا علاقة له بذلك. إلا أنني اليوم أتطلّع إلى كوني ما هو أكبر من ذلك إلى حدٍ بعيد. ما هو أكثر تيمومة. لما الآن فانا بانتظار ردّ منك.

أزهارُ كَفَّ الثَّعلب! أنتِ عبقرية يا سولرن! لربما حُللتِ لُغزًا قديمًا من غير أن تعلمي. إنما عليَّ أن أبدأ رسالتي بشيء آخر قبل هذا.

أنا هناك مُجدِّدًا. وأنا الساعة جالس في غرفة البرج نفسها التي شغلناها في الماضي. وهنا، قبل فترة وجيزة تلقَّيتُ بريدك الإلكتروني الأخير، وقرأتُ الجزء الثاني من ملخصِ حكايتنا على حاسوب نقال جدَّ نحيف وأنا على الأريكة الطويلة المعهودة. كان هذا غريبًا. مؤلمًا. وكان لا بدَّ لي من الخروج إلى الشُرْفة لأتطلَّعَ إلى الجبال والجليد. لأتطلَّعَ إلى شيء مُستقر. إلى شيء خالد. بعد أن انتهيتُ من القراءة تمشَّيتُ إلى مرسى البواخر القلبي. وشعرتُ كما لو أنني قد اصطدمُ بنا في أي لحظة. إذ ما الزمن يا سولرن؟ إن كلَّ شيء أشبه بفيلم مُزدوج العرض. الآن، في هذه اللحظة حذفتُ رسالتك بعد أن قرأتها مرتين. وها قد اتَّخذتُ لنفسِي مجلسًا أمام المنضدة الصغيرة لأجيبك.

تركتُ المعهدَ باكراً في هذا الصباح وانفلتُ لا ألوي على شيء مثلما فعلتُ تمامًا قبل ثلاثين سنة. أخبرتُك أنني كنتُ مضطربًا، وأني اتَّخذتُ قرارًا، وكاتبْتُك من "غول".

اتصلتُ هاتفياً بزوجتي بيريت وأعلمْتُها أنني أخذتُ السيارة وفي طريقي إلى الجبال لأقضي عطلة نهاية الأسبوع فيها حتى أركُزَ على مقالتيْن أو ثلاث ينبغي عليَّ كتابتها. قلتُ إن المقالات تتعلق بالجليد ومتحف الجليد. وليست المقالات إلا مجرد عذر؛ فما جرَّني إلى العودة شيء آخر، وهو، طبعًا، رسائلُك الإلكترونية. كان لا بدَّ لي من أن أعودَ إلى هنا ثانية.

نَحْتُ فِي الْوَصُولِ مَعَ مَوْعِدِ الْعِشَاءِ. وَمَا كَدْتُ أَنْتَهِيَ مِنَ الْأَكْلِ حَتَّى
انْدَفَعْتُ مَسَارِعًا إِلَى غُرْفَتِي، وَهَرَعْتُ إِلَى فَتْحِ رِسَالَتِكَ الْأَخِيرَةِ، بَعْدَ نِصْفِ
سَاعَةٍ فَقَطْ مِنْ إِرسَالِكِ لَهَا. حَمَلْتُ مَعِيَ إِلَى الْغُرْفَةِ دَوْرَقَ التَّبِيدِ، وَهُوَ الْآنَ
يَقِفُ فَارِعًا عَلَى الطَّوَالَةِ أَمَامِي.

جِئْتُ وَحْدِي. لَا أَظُنُّ أَنَّكَ أَتَيْتَ أَيْضًا فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ. عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ
خَطَرٌ لِي، وَأَنَا أَمْرٌ بِالْمُحَاطَةِ الْمُخَصَّصَةِ لِدَفْعِ رُسُومِ الطَّرِيقِ، أَنَّكَ رُبَّمَا قَدْ تُطْلِنُ
فَجَاءَ خِلَالِ الْمَسَاءِ. تَحْيَلُنَا جَالِسِينَ فِي الْبَهْوِ الْمُسْتَدِيرِ الْقَدِيمِ فِي قَاعَةِ
الْمُوسِيقَى وَمَعَنَا قَهْوَةٌ وَمَشْرُوبَاتٌ رُوحِيَّةٌ. إِنَّمَا الْمَرَّةُ الْأُولَى الَّتِي أَتَى فِيهَا إِلَى
هُنَا وَحْدِي. وَلَعَلَّهُ شَيْءٌ يَجْدُرُ بِي بِمَارَسَتِهِ بِاسْتِمْرَارٍ، لِأَنِّي مَأْخُودٌ بِهَذَا
الْمَكَانِ، مَأْخُودٌ بِكُلِّ مِنَ الْبَلَدَةِ وَالْفَنْدَقِ الْخَشِيِّ الْقَدِيمِ.

هِيَ أَيْضًا الْمَرَّةُ الْأُولَى الَّتِي أَقُودُ فِيهَا سَيَارَةً عِبرَ الْجِبَالِ مِنْذُ أَيَّامِنَا مَعَ
الْفُولْكَسْفَاغْنِ الْحُمْرَاءِ. تَمْلِكُنِي شُعُورٌ غَرِيبٌ؛ لِأَنِّي عَلَى نَحْوِ مَا، مَا بَرَحْتُ
أَقُودُ السَّيَارَةَ عِبرَ الْجِبَالِ طَوَالَ عَمْرِي. مَا بَرَحْتُ أَجْلِسُ فِي النَّهَارِ وَفِي اللَّيْلِ
قَابِضًا عَلَى الْمِقْوَدِ عِنْدَ الْبَحِيرَةِ. قَبْلَ أَنْ نَتَوَقَّفَ عِنْدَ مِينَاءِ الْعِبَّارَاتِ الْقَدِيمِ
وَنَظْفَرُ مُحَلِّقِينَ فِي رِحَابِ الْفَضَاءِ. قَبْلَ أَنْ تَسْتَوْقِفَنَا الشَّرْطَةُ فِي "لَايْكَائِغَر".
عِنْدَمَا كُنْتُ مُتَيْقِنًا مِنْ أَنَّ سَائِقَ الْعَرَبَةِ الْبَيْضَاءِ رَأَى الْفُولْكَسْفَاغْنَ وَتَبَّهَ
الشَّرْطَةُ عَلَيْهَا.

أَتَّفَقُ مَعَكَ عَلَى مُعْظَمِ مَا وَرَدَ فِي خِلَاصَتِكَ، وَإِنْ كَانَ فِي إِمكَانِنَا
مِنَاقِشَةُ بَعْضِ النِّقَاطِ الصَّغِيرَةِ الْوَارِدَةِ فِيهَا. إِلَّا أَنَّمَا فِي مُحْمَلِهَا صَحِيحَةٌ بِمَا
يَكْفِي، وَتُبْرَزِينَ فِيهَا الْفَوَارِقُ الدَّقِيقَةُ فِي تَفْسِيرَاتِنَا الْمُسْتَقْلَةِ لِمَا عَانِيَاهُ
وَشَهِدْنَاهُ آنَذَاكَ.

عَلَى امْتِدَادِ الطَّرِيقِ مِنْ "أَوْسَلُو" إِلَى "غُول" وَفِي الْأَعْلَى خِلَالِ "هَيْمَسِيدَال"
قُدْتُ سَيَارَتِي الْمَحِينِ الْجَدِيدَةِ وَأَنَا أَمْعِنُ التَّفَكِيرَ فِيكَ وَفِي نَظَرَتِكَ الرُّوحَانِيَّةِ
إِلَى الْعَالَمِ. أَذْهَلْتَنِي الْكِيفِيَّةُ الْوَاضِحَةُ وَالْمَتَمَاسِكَةُ الَّتِي تَلْتَجِمُ بِهَا فِلْسَفَتَكَ

هذه. إنها في الواقع تخلو من أي أثر له علاقة بالطرح العلمي، وأمل ألا تُسبني فهمي يا سولرن، غير أنه بدا لي أن الإيمان بخلود روح الإنسان قد لا يمكن أبداً أن ينقضه العلم نقضاً كاملاً. أَيْقَتَصِرُ وَعَيْنَا عَلَى كَوْنِهِ نَتَاج كِيمِيَاء الدِّمَاغِ وَالْمُحَفِّزَاتِ وَالْبِيئَةِ الْمُحِيطَةِ بِذَلِكَ الْعَضْوِ، بَمَا فِي ذَلِكَ كُلِّ مَا نَسْمِيهِ الِذَّاكِرَةُ؟ أَمْ هَلْ نَحْنُ إِلَى حَدِّ مَا، مِثْلَمَا تَجَادِلِينَ عَلَى نَحْوِ مَفْهَمِ جَدِّا، أَرْوَاحٍ أَوْ نَفُوسٍ ذَاتِ سِيَادَةٍ لَا تَسْتَخْدِمُ الدِّمَاغَ فِي اللَّحْظَةِ الرَّاهِنَةِ إِلَّا بِاعْتِبَارِهِ حَلْقَةً وَصَلَتْ بَيْنَ الْبُعْدِ الرُّوحِيِّ وَبَيْنَ زُخَارِفِ هَذَا الْعَالَمِ الْمَادِّيَةِ؟ إِنْ هَذِهِ الْإِشْكَالِيَّةُ قَدِيمَةُ الْعَهْدِ، وَلَا أَعْتَقِدُ أَنَّنَا سَنَحْلُهَا فِي يَوْمٍ. وَلَعَلَّ السَّلُوكَ الرُّوحَانِيَّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْوَضْعِ الْإِنْسَانِيِّ وَعِلْمِ الْوُجُودِ هُوَ رُؤْيَا نَرَاهَا أَكْثَرَ إِعْجَازًا مِنْ أَنْ نَتْرَكَهَا بِأَيِّ حَالٍ مُهِمَلَةٍ، وَالْمُنَاقَشَاتُ حَوْلَ هَذَا الْمَوْضُوعِ سَتَبْقَى دَائِمًا.

نحن أرواح يا ستاين!...

ليس هناك موت يا ستاين، وليس هناك أموات...

أنا لا أمتلك القُدرة على التصديق بشيء على هذه الدَّرَجَةِ مِنَ الْإِعْجَازِ. إِنَّمَا، لَوْ أَنَّ الْأُمُورَ لَيْسَتْ عَلَى هَذَا النِّحْوِ، حَسَنًا، أَرَى أَنَّنَا رُبَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ كَذَلِكَ. فَنَحْنُ مَا يَشْكُلُ وَعِي الْعَالَمِ. وَجُلَّ مَا نَعْرِفُهُ هُوَ أَنَّنَا رُبَّمَا الْخَلِيقَةُ الْأَنْفَى وَالْأَكْثَرُ انْبِهَارًا بِكَيْفُونَتِهَا فِي الْكَوْنِ بِأَسْرِهِ. وَلِذَا، قَدْ لَا نَكُونُ فِي حَاجَةٍ إِلَى خَلْقِ الْأَعْدَادِ لِأَنْفُسِنَا، لِأَنَّنَا نَمُضِي فِي حَيَاتِنَا مُسْتَضِيفِينَ فِي أَعْمَاقِنَا بَعْضَ الْأَحْلَامِ التَّفَاؤُلِيَّةِ عَنْ مُصِيرٍ آخَرَ وَرَاءَ ذَاكَ الَّذِي مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ.

ثُمَّ أَلَا حَظُّ بَصْدَرٍ مُتَلَجِّ أَنَّكَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ثُنَائِيَّةِ نَظَرَتِكَ لَا تُنْكَرِينَ حَيَاتِنَا هُنَا عَلَى الْأَرْضِ. تَحْيَلِي لَوْ أَنَّكَ قُلْتَ إِنْ مَا كَانَ بَيْنَنَا مِنْ عِلَاقَةٍ حَمِيمَةٍ فِي الْمَاضِي نَحْمُ عَنْ فَهْمِ خَاطِئِي. التَّارِيخُ طَافِعٌ بِأَمَثَلَةٍ عَنِ التَّعَصُّبِ الدِّينِيِّ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى تُبْكَرَانِ كُلِّ شَيْءٍ جَسَدِيٍّ وَدُنْيَوِيٍّ، بِدُونِ الْحَاجَةِ إِلَى

ذكر الأشياء التي يعتبرها معظمنا الواقع الحقيقي الوحيد.

جرت هذه الأفكار وتقلبَت في رأسي على طول الطريق من "أوسلو". وعند قَمَّة "هيمسيدال" أوقفتُ السيارة في تلك الدرب الحرجية على يسار الطريق السريع، وبعد بضع دقائق من التأمل مضيت في طريقي. وصلتُ إلى الهضبة الجبلية التي ما برحتُ أقود فيها السيارة مراراً وتكراراً في ظل الغلس الواهي لأكثر من ثلاثين سنة. مثل أسطورة الهولندي الطائر، محكوم بلعنة التَّحوال الأبدي على تلك الهضبة، إن لم يكن كل يوم، فكل ليلة إذا.

تذكرين حتماً تلك الراية الغريبة التي مررنا بها قبل أن نصدم المرأة ذات الشال - أشرت بنفسك إلى 'الربة الشبيهة بقلب السكر'. وهذا وصفٌ جيّد في الحقيقة، لأنها تنوءُ جدّاً لافِت للنظر. وقد اكتشفتُ من خريطة "الجي بي إس" أو نظام التَّموّج العالمي في السيارة أن لها اسماً، واسمها، بطبيعة الحال، "إلدري هاوغن" - راية القوم الأقدمين. بعد ذلك الرُّكام الترابي الغريب مباشرةً وجدتُ سبيلاً فرعية صغيرة عند الطُّرف الأيمن من الطريق، حيث يضعون الآن بعض اللوحات الإرشادية للسباح فيها معلوماتٌ محلّية وتاريخية. وإحداها تنصُّ على ما يلي:

"إلدري هاوغن" هي الراية المستديرة البارزة والظاهرة شرقاً لوجة المعلومات هذه. كانت "إلدري هاوغن" موطنَ عُصبة من مخلوقات التلال غير المرئية يُدعون "أوسغاردسراي" أو "يوليسكراي". وكان هؤلاء "الأوسغاردسراي" أو "اليوليسكراي" يندفعون خارج "إلدري هاوغن" كلَّ سنة في منتصف الليل من عشية عيد الميلاد وينطلقون مُنحدرين نحو "هالينغدال". هناك، درجوا على زيارة التزارع في المنطقة واقتناص ما يحلو لهم من طعام عيد الميلاد وشرابه. كان من المُتعارف عليه أن الناس الذين يزودونهم بكميات

وفيرة من الطعام والشراب سُبْقِيض لهم أن يعيشوا حياة سعيدة ورَضِيَّة. وفي حال وُسِمَ الطعام بعلامة الصليب، سيشعرُ "الأوسفاردسرائي" بالإهانة، وقد يؤدي ذلك إلى إلحاق المِحَن بالناس والملكيات والماشية. كان أهالي "هيمسيدال" يعرفون أسماء كثير من أفراد عَصَبَة "الأوسفاردسرائي": مثل "تيدنه راناكام" و "هيلغه هوغفوت"، وترونند هوسينغن" و "ماسني تروست" و "سينينغ هيله". وصل "الأوسفاردسرائي" في غزواتهم إلى القرى المحيطة بـ "دراين". وهناك لطالما أشاعوا القَوَضَى في فترة عيد الميلاد بأكملها. وما كانوا يعودون إلى "إلدره هاوغن" إلا في الليلة الثانية عشرة.

"ماسني تروست" و "تيدنه راناكام"!

هزرتُ رأسي، وعندما استرجعتُ في ذهني ما كُنَّيْتِه عن المخلوقة التي صدمناها بأنها قد لا تكون بالضرورة شخصاً عادياً ولكن ربما مجرد طَيف، وقفتُ هناك مدَّةً طويلة أَمَحُّصُ الفِكرَ في هذا.

لكن، كَفَّ الثَّعلبُ و 'مَرَاة العنبيَّة' حسناً، يتهيأ لي أنكُ ربما، من حيث لا تدري، أَصَبْتُ كَبَدَ الحقيقة.

قلتُ إننا رأينا الشيء نفسه، إلا أننا سمعنا أو تلقينا رسالتين مختلفتين. كُنَّا مُنحذرين إلى أزهار كَفَّ الثَّعلبُ الرِّيَّانة تلك، وافتتألكِ البالغ بها أرغَمَكِ على لمسها. ولذا، من المؤكَّد أننا كُنَّا نَفَكِّرُ في الشيء نفسه آنذاك، حتى على الرغم من أننا لم نأتِ على ذِكره علانية طَوَالَ الوقت، كُنَّا نَفَكِّرُ باستمرار تقريباً في المرأة التي صدمناها هناك في أعلى الجبل. وكان لون أزهار كَفَّ الثَّعلبِ يماثلُ بَدَقَةِ مُتَناهية لون الشال الذي رأيناه حول كفيها، والذي وجدناه بعد ذلك مُلقًى على الخَلنج. لا اللون نفسه فحسب، بل أيضاً درجته الوردية عيناها. ولعل سبب انجذابنا القوي جداً إلى تلك الأزهار يعود إلى هذا.

ثم، وعلى حين غرة جعلنا شيء ما نلتفت فوراً، مثلما قلّت بالضبط. ربما كان ابن عرس أو غراباً أبقع. المهم أننا التفتنا، ثم خيل إلينا معاً أننا رأينا المرأة التي دهسناها - كانت تقف وسط الأيكة والشال نفسه حول كتفها.

مع ذلك، ربما ليس من العجب العجائب أن نقع فريسة الهلوسة نفسها وحالتنا الفكرية على ما هي عليه في ذلك الوقت. وذلك بعد أن، كما يبراء لي، تركنا أنفسنا تستسلم لتضليل أزهار كف الثعلب النضرة ولونها المغوي. هل لك أن تخبريني ما سبب انجذابك إلى تلك الأزهار وحدها؟ مع العلم أنه كان في الجوار تشكيلة أخرى من أزهار الجريس الزرقاء الساحرة. أن نعرف ما إذا كان يوجد مئة أو ألف أو مئة ألف لون مختلف، هو مسألة علمية بحث. أما تلك فقد كانت بالفعل درجة اللون نفسها. تحرك شيء ما بين الأشجار خلفنا، التفتنا وتطلّعنا، ومعاً قمنا لنا أننا رأينا المرأة ذات الشال الوردي تقف هناك. خيلت أنها قالت شيئاً، وأنت خيلت أنها قالت شيئاً آخر. لكن من الواضح جداً أنني كنت أفكر بلا انقطاع في قيادتي المتهورة للسيارة عند الهضبة، وأنت كنت أسيرة تلك الأفكار التي عانيت منها منذ سنّ الحادية عشرة، عن اضطرابنا الجذري الذي لا مفر منه إلى مغادرة هذا العالم يوماً ما.

وكنت أيضاً قد وجدت ذلك الكتاب. وقرأت منه بعض المقاطع، وكذلك فعلت أنا، والحلقة الوحيدة المفقودة هي أزهار كف الثعلب.

كانت أسسنا قد نزعزعت كثيراً إلى درجة أننا أصبحنا عرضة للهلوسة. كنّا هشين وبلا حول ولا قوة، وفي النهاية انقلبنا رأساً على عقب ووقعنا ضحية الارتباك الكامل لبضع ثوانٍ.

سأرحلُ غداً. ولا أريدُ أن أسلكَ طريقَ الجبلِ ذاكَ ثانيةً لأعودَ إلى "أوسلو". بل أفضّلُ الذهابَ عن طريقِ "أورُ لاندسُدال" إلى "هول". وقد

فَكَرْتُ أَيْضًا فِي أَنْ أَعْرِجَ عَلَى "بِيرغن" وَأَرَاكَ.
فَهَلْ لِي أَنْ أَفْعَلَ هَذَا؟

فِي وَسْعِي أَنْ أُرَكِبَ عَبَّارَةً لِأَقْطَعَ الْمَضِيقَ الْبَحْرِي مِنْ "لَافِيك" إِلَى "أُويْدَال". وَإِذَا تَنَاسَبَتْ أَوْقَاتُ الْعَبَّارَاتِ مَعَ رَحْلَتِي، يُمْكِنُ أَنْ أَقُودَ السَّيَّارَةَ عَلَى طُولِ الْخَلِيجِ إِلَى "رُوثْلِدَال"، وَأَعْبُرَ إِلَى "سُولْنْد" أَيْضًا. أُرِيدُ أَنْ أَرَى هَذِهِ الْجُزُرَ مَرَّةً أُخْرَى. لَا أَرْجَحُ طَبْعًا أَنْ يَتَسَتَّى لَكَ أَنْ تَحْذِي حَذَوِي. مَا أَفَكَّرُ فِيهِ هُوَ مَا إِذَا كُنْتَ تَسْتَطِيعِينَ مُوَافَاتِي فِي "رُوثْلِدَال"، أَوْ حَتَّى لَعَلَّهُ مِنْ الْأَسْهَلِ لَكَ أَنْ تَرْكَبِي حَافِلَةً إِلَى "أُويْدَال" إِذَا أَتَيْحَ لَكَ هَذَا، لِأَنَّهُ لَا مَغْزَى مِنْ وَجُودِ سَيَّارَتَيْنِ مَعَنَا. سَتَكُونُ آخِرَ مَآثِرَةٍ لَنَا، هَذِهِ الَّتِي تَسْتَمِرُّ فِي تَسْمِيَتِهَا 'مُحَازَفَاتٍ'. لَدَيْنَا الْكَثِيرُ لِنَتَحَدَّثَ عَنْهُ يَا سُولَرْن. وَإِنِّي أَوْدُ كَثِيرًا أَنْ أَصْطَلِحَ فِي جَوْلَةٍ قَصِيرَةٍ إِلَى الْجُزُرِ هُنَاكَ فِي فَمِ الْمَضِيقِ. أَعْنِي الطَّرِيقَ كُلَّهُ إِلَى "كُولَغُروَف". وَيُمْكِنُ أَنْ نَزُورَ بِقَالَةَ "إِيدِي" عِنْدَ رَصِيفِ الْمِينَاءِ وَنَشْتَرِيَ الْمَلْطَحَاتِ - كَمَا كُنَّا نَفْعَلُ فِي الْمَاضِي. سَأُنْفَهِّمُ بِالتَّأَكِيدِ إِذَا رَأَيْتَ أَنَّهُ مِنَ الصَّعْبِ عَلَيْكَ الْعُثُورُ عَلَى مَخْرَجٍ. عَلَى فِكْرَةٍ، بَلِّغِيهِ أَخْلَصَ تَحِيَّاتِي! حَجَزْتُ مِنْ قَبِيلِ الْإِحْتِيَاطِ غَرَفًا لَنَا فِي فَنْدَقِ "نُورْج" اعْتِبَارًا مِنَ الْعَدُوِّ. أَمَّا هُنَا، فَأَنَا الضَّيْفُ الْوَحِيدُ وَالْأَخِيرُ فِي هَذَا الْمَوْسَمِ قَبْلَ أَنْ يَغْلُقُوا أَبْوَابَهُمْ لِلشِّتَاءِ. وَقَدْ بَدَأُوا مِنْذُ الْآنَ فِي حَزْمِ الْأَغْرَاضِ، وَهُمْ يُغْطُونَ الْأَثَاثَ بِالْمَلَاعَاتِ وَالْبَطَانِيَّاتِ.

قَدْ أَصِلُ إِلَى "بِيرغن" غَدًا بَعْدَ الظُّهْرِ أَوْ مَسَاءً. وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ رَمَا نَسْتَطِيعُ الْإِنْتِلَاقَ يَوْمَ الْأَحَدِ، إِذَا أَعْطَوْكَ الضُّوءَ الْأَخْضَرَ فِي الْبَيْتِ.

سَيَكُونُ مِنَ الرَّائِعِ أَنْ نَرَى تِلْكَ الْخُلُجَانِ وَالصَّخُورَ الْمَعْهُودَةَ مِنْ جَدِيدٍ. وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ الْجَزِيرَةَ بِأَكْمَلِهَا مَفْرُوشَةً الْآنَ بِبِرَاعِمِ الْخُلُجِ الْأَرْجَوَانِيَّةِ. فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ بِالضَّبْطِ ذَهَبْنَا إِلَى هُنَاكَ آنَازْكَ. وَمَا قَلْبِي صَحِيحٌ: كَانَ لَا بَدَّ لَنَا

من الخروج إلى رأس الخليج في كلِّ مساء لتفَرِّجَ على الشمس تفرقُ في
البحر من جهة الغرب.
يغمري شعور قَوي بأننا الآن ننتهي إلى ذلك النوع من الطبيعة.

ربما يا ستاين. مع ذلك، أنا أؤمنُ حقًا بأن أرواحنا في ذات يوم ستُبْعَث من
جديد مرتفعة في أفقٍ جدِّ مختلف وأكثر سُمُوءًا.

ولكن، هل لي أن آتي إلى "بيرغن"؟

تعال، تعال فقط!

هل تعنين هذا حقًا؟

نعم يا ستاين. لا أتمنى إلا لو أنك هنا الآن. تعال!

لا أظنني في حاجةٍ إلى التَّكثُّم على حقيقة أنني بقيتُ طوال تلك السنين
الماضية مُولعًا بك. فكَّرتُ فيك يومًا بلا انقطاع، وكذلك أجريتُ معك
باستمرار ما يشبه الحوار. أي بمعنى من المعاني قضيتُ معك في جميع
الأحوال عُمرِي كُلِّهِ. إن هذا غريب. لقد كان حياةً مُشتركة غريبة. إلا
أنني أشكركُ عليها أيضًا، أشكركُ على تلك السنوات الثلاثين الماضية.

قلتُ لكِ إنني أشعرُ كما لو أنني عشتُ حياةَ امرأةٍ لها أكثرُ من زوجٍ. فأنتِ أيضاً لازمتني طوالَ الوقت. هذا إلى جانب تلك الحساسية المفرطة التي لدي، والتي أوعزت إليّ دائماً بأنك كنتِ تفكرُ في... ولكن يا ستاين...

نعم، تابعي؟ إننا نحذفُ الرسائلَ أولاً بأولٍ. وهذا يعني وبينك فقط.

ألم نكن يا ستاين، أكثرُ من أي شيءٍ آخر، رُوحين تنتمي إحداهما إلى الأخرى؟ رُوحين مُترابطتين، أعني على غرار زوجين من تلك الفوتونات المتلازمة التي لا تتجزأ، تنتمي كل منهما إلى الأخرى وتستجيبُ لها من على مسافةٍ سنين وسنين ضوئية...

وإن هذا يدعوني إلى التساؤل ما إذا كان أسهل علينا الآن في عُمرنا الحالي أن نُميِّزَ الفرقَ بين الروح والجسد أكثر مما قد يفعل المرء وهو بعُدُ يافع جداً.

علينا أن نتطرقَ إلى هذا الموضوع بإسهاب يا سولرن. في أحد الأيام المقبلة سنأخذُ السيارة وننطلقُ إلى "سولند"، أَلنْ نفعل؟ أما الآن، وبعد ذلك النبذ، فسأوي إلى الفراش. قُدتُ السيارة أربعمئة كيلومتر، ولذا ربما سأستغرقُ في النوم فوراً. آه، النوم، هذه الحالة التي لا تستقرُ على مقام! لا يمكنني أن أعطيكِ أي ضمانات بخصوص الأحلام التي قد أُرطِكِ فيها الليلة معي. أعتقد أنني استرَفْتُ ما في جَعْبَتِي من أحلام كَوْنِيَّة، وقد تكون أحلامي الليلة رتيبة جداً. ومن يدري، قد أعمدُ إلى اصطحابكِ في جولةٍ هادئةٍ حول بحيرة "سوغنسفان". عكس عقارب الساعة!

تُصبحين على خير!

صباح الخير يا ستاين!

لقد قلتُ لنيلز بيتر إنك في طريقك إلى "بيرغن". انتهيتنا من هذا على الأقل. وهو شيء يبعثُ على الارتياح. لما الآن فأنا بصنْد الخروج من البيت لبقية اليوم. لديّ الكثير جدًّا مما يتطلَّب التفكير. وسنلتقي قريبًا - غداً على أي حال، إن لم يكن قبله!

لا بأس، سأرسلُ لك رسالةً بالبريد الإلكتروني حالما يتسنى لي تأمين اتصال بالإنترنت في الفندق، في وقتٍ ما من العصر أو المساء، وفي وسعنا عندئذ أن نُعيدَ ترتيبات أكثر تفصيلاً. حسناً يا سولرن، أتمنى لك يوماً رائعاً. وكذلك رحلة موفقة! سأنزلُ قريباً لأتناول الفطور قبل أن أغادرَ الفندق وأنطلق. مساءً الأمس كانت صالةُ الطعام كلها لي وحدي. شعرتُ بشيء من الوحشة طبعاً، وللتعويضِ طلبتُ دُورقاً كبيراً من النبيذ، ربما يتركُ هذا في النفس انطباعاً بأنه شيء مبالغ فيه قليلاً، لولا أنه كان عليّ أن أشرب أقداحك إلى جانب أقداحي. في آخر المطاف تمكّنتُ من تخيّلك تجلسين إلى الطاولة أمامي، وعند ذاك صرتُ بطريقة ما أراك تارةً كما أنتِ اليوم وتارةً كما كنتِ من قبل في ما مضى من السنوات، هذا على الرغم من أنه ليس هناك أي اختلاف يُذكر.

مرحباً مرةً أخرى يا سولرن. ها قد وصلتُ أخيراً إلى "بيرغن" بعد رحلة مُضنية بالسيارة، وأنا الآن في غرفتي في الفندق أسرّح نظري عبر بركة "ليله لونغه غوردسفان" مستشرقاً من بعدها جبل "أولريكن". إننا في المساء، والأضواء في الخارج تُتيح رؤية أوضح. ولأوّل مرةً في هذا الصيف أشعرُ أن الموسم يتغيّر.

شهدتُ في طريقي حادثة سير مُهولة إلى جنوب "سونيفيورد" بالضبط، وقد زلزلتني كثيراً، لذا سأكتفي الآن بإفراغ ثلاثة المشروبات التي في غرفتي، وألقي نظرة سريعة على الصحف قبل أن أوي إلى الفراش. هل تتفق على أن تطليبي أنتِ من مكتب الاستقبال في حوالي التاسعة صباحاً؟ وعندئذ، ربما يمكننا أن نبادرَ إلى الانطلاق بالسيارة إلى "روثلدال" ثم نأخذ العبارة من هناك إلى "سولند"؟

أنتلّع بشوقٍ إلى رؤيتكِ ثانية يا سولرن. وأنتلّع بشوقٍ إلى معانقتكِ.

لقد أهّيتُ تناولَ وجبة الفطور، ومنذ ذلك الوقت وأنا أَسْكُحُ حول مكتب الاستقبال. إنها التاسعة والرُّبع الآن. ومع أنكِ لم تجيبي على أي من رسائلي، أفترضُ أنكِ قرأتها، وأنتِ في طريقكِ إلى هنا. وفي حال لم يصدق ظنّي، هلّا كَلِّمْتِني هاتفياً؟ ساكونُ على أي حال في غرفتي، وسأبقى مُتصلاً بالإنترنت طوال الوقت.

إنه منتصف النهار يا سولرن، وإلى الآن لم يصلني أي خبرٍ منك. حاولتُ الاتصال بكِ على هاتفكِ الجوّال، إلا أنه كان خارج الخدمة طوال

الصَّباح. سأنتظر بضع ساعات أخرى قبل أن أطلبك على هاتف البيت.
ستاين.

ستاين،

لقد أدخلتَ للتو بطاقة ذاكرة إلكترونية في حاسوبك. كانت سولرن تعلقها حول عنقها عندما حدثَ ما حدث. وأودُّ قبلَ كلِّ شيء أن أؤكدَ لكَ أنني لم أقرأ أكثر مما هو ضروري لأعرفَ أنها تحتوي على مراسلاتٍ واسعة النطاق بينكما أنتما الاثنين. هذه البقايا الإلكترونية تخصَّصَكَ وحدك الآن. ولا أظنُّ أن هناك نسخاً عنها في أي مكان آخر، لأنها حدَّثتها كلها من حاسوبها. وأنا الساعة أرسلُ لكَ كلمتي هذه في بطاقة الذاكرة نفسها. وكذلك نقلتُ إليها رسالتك الإلكترونية الأخيرة التي أرسلتها لها في ذلك اليوم الرهيب. وبحلول وقت قراءتك لهذه الرسالة، ستكون قد وجدتَ كلَّ شيء في البطاقة.

لا أدري ما إذا يتوجَّبُ عليَّ القولُ إنني سرَّرتُ بلفاظك ثانيةً، ومن جانب الاحتياط يُستحسنُ ألا أفعل. ولن أقدم أيضاً على وصفِ مراسم جنازة سولرن بأنها كانت تليقُ بمقامها. أردتُكَ في البداية أن تبقى مجهولَ الهوية، وعلى الرغم من أننا تبادلنا بضع كلمات بينما سار المشيعون إلى جانب البحيرة، لم أرغب، انطلاقاً من وجهة النظر هذه، في أن يعرف يونس وإنغريد لو أي أحدٍ آخر من الناس من كنتُ. وقد أملتُ في أن تتمتعَ بِقَدْر كافٍ من الحسنِ المرفف - أو لعلَّه يجدر بي القول باحترام كافٍ للآخرين - لتبقى على الأقل بعيداً عن مراسم استقبال العزاء. إن مراسم الجنازة هي في الأساس شعيرة عامة مفتوحة للجميع، أما مراسم استقبال العزاء فخاصة، وتقتصرُ على من يمكن أن أسميهم المعارف المقربين. لكنك قلتَ إنك تريد مُلازمة سولرن من البداية إلى النهاية، وإلى أن تلقى آخر كلمة تأبين في

فندق "تيرمينوس". كنت عاقدة العزم على ذلك، وفي النهاية لم أجد من خيار أمامي إلا أن أستوعبك وأقدمك إلى الولدين باعتبارك صديق دراسة قديم لسولرن. سمها معايير بورجوازية مزدوجة، سمها ما تشاء، فهذه ليست بالمواقف التي يمكن أن يتمرس فيها المرء. وأنت لا تخضع للتدريب على الترمل فجأة.

وأود أن أضيف، مع ما في هذا من مجازفة في ظهوري بمظهر السخيف، أنه ما كادت مراسيم استقبال العزاء تشرف على نهايتها حتى انبريت تمازح إنغريد. بدأت أساريك تتفرج، كما لو أن غرائك الاجتماعية انطلقت تعمل. لم تقف عند حد طفلك على حفل التآبين، بل أيضاً تلهفت على جذب الانتباه، أردت جمهوراً من حولك، وحصلت على ما أردت. آلمني أن تضحك إنغريد.

أعترف أنه كان هناك شيء بينك وبين سولرن لم نتشارك فيه أنا وهي. وقد سمعت عنك طبعاً، بل بالأحرى يجدر بي القول سمعت عنكما. الثنائي غير المنفصل منذ أوائل السبعينيات. وعندما أقول 'سمعت عنكما' فهذا تصريح ينقص الحقيقة انتقاصاً جسيماً.

أما إقدامي على إرسال بطاقة الذاكرة هذه إليك، وإضافة هذه الأسطر القليلة أيضاً، فينبغي أن يُنظر إليه على أنه تصرف نابغ من الواجب - وأعني بذلك أنه شيء أدين به لذكراها. إنه يكاد يشبه مُنْوَلة إرث ما، بما أن الكلمات التي تبادلتها لا شأن لي بها. وأنا لا أملك أي فكرة عما تحدثتما به، عرفت فقط أنكما تتراسلان. فسولرن لم يكن لديها قط أي شيء يجري في الخفاء.

وإنني لا أكف عن التساؤل عما يُحتمل أن تكون عليه الأوضاع اليوم لو أنكما لم تلتقيا ثانية هناك في بلدة الكتب؟ أكانت ستبقى على قيد الحياة؟ إنه واجبي الكريه الذي يحتم علي طرح هذا السؤال. فهي ما عادت قادرة على طرحه على نفسها. وأحياناً يمكن أن يكون من المؤلم أن يواجه المرء بمفرده مثل هذا السؤال الجلل.

عندما مشينا جنباً إلى جنب مع الأعمام والعَمَّات وأبناء الأخوة وبناتهم من كنيسة الأمل في "مولندال" إلى تجمع استقبال العزاء في فندق "تيرمينوس"، أعطيتك وعداً بأن أتواصل معك يوماً ولأروي لك ما حدث بمزيد من التفصيل. وكنت في الوقت نفسه أفكر في بطاقة الذاكرة. ألم تدرك عندئذٍ مدى ما اعتراني من حرج شديد من أجل الولدين، بل في الواقع من أجل العائلة كلها؟ إذ مَنْ أنتَ ومن تكون بالنسبة إلينا؟

لنا الذي تركَ وحيداً بعد رحيلها، لنا الذي مَنْ يتوجب عليه أن يملأ ما خلفته من فراغ، وإنني لألتمسُ تفهّمك عندما أقول إنني لا أريدُ أي تواصل مُستقبلي معك بعد هذا.

كان صباحُ يوم السبت آخر مرة رأيتها فيها بكامل صحتها. يومها، قبل أن يمضي كلّ منا في سبيله، بدا لي أنها تتوهّج ببريق فريد. كانت قد أخبرتني بأنك في طريقك إلى "بيرغن". فهل هذا ما جعلها سعيدة جداً؟ قررتُ ألا أبذل مَفرطاً في النزوع إلى التملُّك، واقترحْتُ أن ندعوكِ إلى البيت. وقد رفضتُ هذا الاقتراح فوراً. وسارعت إلى القول، إيّاك ومجرد التفكير في الأمر، كما لو أنها تُجنبني الحرج. حسناً، هذا ما أعتقدُه، أو على الأقل ما اعتقدته في ساعتها. لكن هناك شيئاً آخر أيضاً.

في أحد أيام كانون الأول قبل عشر سنوات أو ربما قبل خمس عشرة سنة، أهديتُ سولرن شالاً جميلاً. اشتريته احتفاءً بمناسبةِ قُرب حلول عيد الميلاد وفق ما أنكر، لأنني إلى جانب الشال اشتريتُ لها باقة "بيغونيا" وردية اللون. أتذكرُ الباقة جيداً لأن لون كلٍّ من الشال وأزهار "البيغونيا" كان متماثلاً. كنت قد اشتريتُ باقة "البيغونيا" أولاً، ثم أخذتُ بشالٍ في واجهة منجر "سندت" لونه يطابق لون تلك الأزهار.

غير أنها لم تضع الشال قط. وأبنت عدم ارتياحها منذ اللحظة التي فتحت فيها العلبة. لما سألتها ما خطبها، أظنّها قالت شيئاً عن الإحساس بالتقَمُّم في السنّ إذا وضعته. ثم ما لبثت أن أردفت قائلة إنه ذكرها بحايثة غامضة

واجهتها وإياك مرة. لا أتطرقُ إلى هذا الموضوع إلا لأنه شيء نبشته من جديد وأنت على ذكره بعد أن غادرنا بلدة الكتب في تموز الماضي. حدث هذا ونحن منطلقون بالسيارة على طول بحيرة "يولسترفانتيت". ندُّ عني تعليق مُقتضب عن الجوّ - كان ضبابياً طوال اليوم، وبدأ في تلك الآونة يصفو - وإذا بها فجأة تهزُّر مُلمحةً إلى أزهار "البيفونيا" تلك والшал، ثم عن شيء جرى قبل أكثر من ثلاثين سنة. تحاشت الإقصاح عما كان ذاك الشيء 'الغامض'، فاكثفت بالاستماع فصنبت من غير أن أعلّق. فهي لطالما أنتت على ذكر أشياء من قبل. ولطالما أنتت على ذكر 'ستاين' من قبل. نعم فعلت، هذه حقيقة لا أنكرها. اقترحتُ أن نعرّج على بيت الصيفية في "سولند" في زيارة خاطفة، لنحاول تبديد بعض الذكريات القديمة والتخلص أيضاً من أشباح الماضي. وإزاء هذا الاقتراح أمسكت يدي ووافقتي على أنها فكرة سديدة ستعود علينا بالفائدة.

ها قد أفضيتُ إليك بهذا، أو لعله يجدرُ بي القول أعدتُ توجيهةً إليك. إنني أبذلُ قصارى جهدي لأربط الأطراف الفالّنة لهذه الدراما من أجلها فقط. افهمني رجاء، لا أريدُ منك جواباً. إنني لا أفعل أكثر مما يقتضيه واجبُ الزوج. إنني فقط أعيد الترتيب والتنظيم من بعدها.

في صباح يوم فقّنا لها، كانت قد أخرجت الشال القديم ذاك لسبب ما لا أعرفه. لم أره إلا بعد أن رجعنا إلى البيت من المستشفى، وأنذاك وجدته على مكتبها، وما زال ملفوفاً بعناية في علبة الهدية نفسها التي جلبَ بها منذ كل تلك السنوات الماضية. ولكن لماذا؟ ما دفعها إلى إخراجه من جديد؟

وضعت بطاقة الذاكرة التي تستخدمها الآن في علبة الهدية نفسها، لأنني أعتقد أن الشال وبطاقة الذاكرة ينتميان إليك أكثر مما ينتميان إلينا في هذا البيت. هدفي الصريح من هذا التصرف ألا يبقى بعد الآن أي شيء يتعلّق بك هنا في "سوندره بليكيفيين". آخر ما أريده أن يدسّ يونس أنفه في ما كتبه كل منكما للآخر، ولا رغبة لدي في أن ترث إنغريد هذا الشال. ثم،

عليّ بعد ذلك، من أجل مصلحتي الشخصية، أن أحاول المُضي قُدُمًا في حياتي. ثمة الكثير ممّا ينبغي الاهتمام به بعد موت فرد في العائلة - إغلاق حسابات، وإلغاء اشتراكات، وتصفية أمور عامة عالقّة. وقد كنت من ضمن هذه القائمة.

كنت قد خططت للذهاب إلى مكتبي في ذلك الصباح، وكانت قد قالت لي إنها تنوي زيارة صديقة لها. أوضحت لي بصراحة لمرّة واحدة أنها لن تحضر إلى البيت على العشاء. وأشارت إلى أنها قد تبقى في الخارج لوقت متأخر. 'لوقت متأخر جدًا،' قالت.

لم تذكر من هي تلك الصديقة أو أين تعيش، وهكذا يبقى سبب سفرها إلى شمال "سوني" في ذلك الصباح مكتنفًا بالغموض بالنسبة لي. فهي لم تلمح من قبل قط إلى صديقة هناك، ومع ذلك حدثت لي بوضوح أنها ستغيب النهار بطوله.

أتراها نوت أن تقطع كل المسافة إلى "سولند"، حيث قضينا عددًا لا بأس به من العطلات في السنوات القليلة الماضية؟ ولو أن هذا ما نوتّه، فلماذا لم تصيح؟ ولماذا لم تأخذ السيارة، وماذا دفعها إلى المشي على طول ذلك الطريق السريع المزدهم؟

لأنها تعرّضت للحادثة وأطيح بها أرضًا على الطريق "إي ٣٩" للواقع جنوب "أوبيدال"، أو على وجه الدقّة حيث يتفرّع الطريق إلى "بريك" و "روندال". أكّد سائق الحافلة أنها ركبت معه من "بيرغن"، وتذكر إضافة إلى هذا أنها ترجّلت من الحافلة في "إستيفورد" التي تُعتبر بالنسبة إلى وسائل النقل نهاية مسدودة، وقال أيضًا إنها كانت واقفة هناك تنتظر عندما انعطفت الحافلة نفسها في رحلة عودتها من "أوبيدال".

لا يمكن أحيانًا التنبؤ بما يخطر على بال سولرن. وهذا ما عاد يهمّ الآن على أي حال. ما أودّ افتراضه جدلاً أنك لست أنت من كان قادمًا من الشمال في

طريقه من "أوسلو" إلى "بيرغن". ألم تأتِ إلى هنا بالقطار؟

دهستها قاطرة ضخمة على بعد بضعة كيلومترات إلى الجنوب من "سونيفورد". إن الحد الأقصى للسرعة هناك ثمانون كيلومتراً في الساعة، إلا أن سرعة تلك القاطرة بلغت ضعف المعدل المسموح به وهي تقطع المنحدر الحاد نحو "إنستيفورد". كان مجال الرؤية في تلك الأثناء غير واضح، وذلك السائق؛ شاباً أراد للحاق بعبارة من "أوبيدال" قبل إحارها، يواجه الآن دعوى قضائية، ومن المرتجى أن يلقي حكماً بالسجن طويل الأمد.

حتى هو جاء ليحضر مراسم الدفن. غير أنه كما اتضح، امتهلك وعياً كافياً ليبقى بعيداً عن مراسم استقبال العزاء. ولو لم يفعل لعاجلت إلى الإلقاء به خارجاً. ولعاجلت إلى الاتصال بالشرطة.

كنت مُنكباً على بعض الأعمال الإضافية في مكتبي في ذلك السبت عندما اتصلوا بي من المستشفى. أعلموني بما حدث، قالوا إن طائرة إسعاف قامت بانئصالها، وقالوا إن حالتها حرجية. اندفعتُ خارج مكتبي واتصلتُ هاتفياً بكل من إنغريد ويوناس من سيارة أجرة. أتيح لي الحصول على بضعة دقائق معها قبل وصول وكذئنا. كانت في وضع سيئ، ومع ذلك فتحت عينيها، وبظنرة شفافة كالبُور قالت، 'ماذا لو كنتُ مخطئة'. ربما كان ستاين هو الذي على حق؟

نحن لا نسمع الحقيقة من الأطفال والسكاري فقط. الذين على شفير الموت أيضاً قد نذُّ عنهم كلمات تتضح حكمة.

ربما كنتُ على حق يا ستاين. أليس لهذا وقع جيد في أذنك؟

إنني لمرّر لك تحية سولرن الختامية من مُنطلق شعوري بالواجب تجاهها. أو هل ينبغي لي أن أقول تعليقاً الأخير؟ ولعلّ لديك فكرة عما كانت تشير

إليه، أما أنا فلا. ولا بد لي، وإن على مضض، من الاعتراف بشكّي في شيء ما.

لنا ما برحت طوال الوقت غير قادرٍ على منع نفسي من التفكير في أن التناّم شملكما هناك في ذلك الفندق كان مصيرياً جداً. فمنذ ذلك الحين لم تعد هي نفسها قط.

وأنا أعلم، وأرجح أنك أنت أيضاً تعلم، أنها كانت إنسانة مُتَدَيِّنة جداً. وإيمانها بحياة أخرى بعد هذه الحياة لم يتزعزع لا في السراء ولا في الضراء. فهل يحق لي أن ألقي الكلام جزافاً بقولي إنك شخص أقرب إلى العقلاني؟ إن لم يكن بسبب أي شيء آخر، فبسبب أنك عالمٌ متخصصٌ في حقلِ علم المناخ وتغيراته. وبالتالي أتجراً على القول إنك كنتَ وسولرن على طريقي نقيض عندما انتهيتما إلى مناقشة فلسفات الحياة.

وعلى الرغم من كل ذلك، إنني لا أنفك أتساءل ما إذا كنا سنحسب صنّاعاً لو أننا تجنبنا للمسّاس بمعتقدات سولرن. كانت منارة، كانت شعلة، وكانت لديها ملكة هي أقرب إلى الاستبصار.

ربما كان ستاين هو الذي على حق؟

حملتُ إليّ والذعرُ يغشى عينيها. وهناك رأيتُ حزنًا لا عزاء له، رأيتُ هيجاناً عنيفاً، وياساً فوق الاحتمال. ثم عانت وغبّت من جديد، إلى أن أتيتُ لها أن تستجمع قواها لمرّة أخيرة. عندئذٍ اكتفت بالنظر إليّ، فارغة من أي مضمون وعاجزة، إذ لم يبقَ هناك شيء آخر يُقال. وربما كانت ما زالت في تلك اللحظة تمتلكُ قدرةً كافية لتودّعني، إلا أنها لم تفعل.

لقد فقدتُ إيمانها يا ستاين. كانت خاوية خواء تاماً. كانت جدّ مقفرة وناضية.

ماذا عنتَ عندما قالت إنك أنتَ الذي كنتَ على حق؟ وهل هذا مهمٌ حقاً؟ أن تكون على حق؟ أو حتى أن تكون لديك القدرة أو الإرادة لتبذّر بنور الشكّ المقلقة في صلبِ إيمانِ شخصٍ آخر؟ لا، كما سبق أن قلتُ، لا أريد جواباً منك. انتهى كل شيء.

ترأى لي من غير أن أعرفَ السببَ بالتحديد، أنك دخلتَ حياة سولرن وحياتي مثل إحدى شخصيات "إيسن" النكدة المتمزّمة. رجل آتٍ من البحر على سبيل المثال، أو ربما أحد أولئك المدمنين على الحقيقة مثل شخصية "غريغر ويرل"؟ في هذه الحالة لن أتوانى عن الاضطلاع بتأدية دور شخصية أخرى لفتيمها من مسرحية "البطة البرية" - دور "رلينغ" على الأرجح. ذاك الطبيب الذي يُجلّ خداع الذات. وعندئذٍ، سأقبعُ في غرفتها العلوية الذهبية وأقرّسُ في أفاق المدينة.

في أحد الأيام في الآونة الأخيرة ذكرتُ سولرن شيئاً عن احتمال ذهابها إلى "سولند" لتودّع البحر قبل قدوم الشتاء. لم يكن من عاداتها أن تخطّطَ لمثل هذه السفريات بمفردها. فهل نراكما كُنتما تتويان توديعَ البحر معاً؟ الثُلثي الذي انطلقَ بسرعة فائقة جداً إلى الجبل في ذلك اليوم من تموز. لا أدري حقاً لماذا أسأل، لأنني كما ذكرتُ لا أريدُ أي ردّ. وهذا ما عاد له على الإطلاق أي أهمية يمكن تصوّرها.

نعم، جئتُ إلى "بيرغن" فعلاً كما قلتُ! لولا أنك جئتَ متأخراً جداً. وبعد ذلك اتصلتُ بنا هنا بعد الظهر من يوم الأحد عندما كان كل شيء منتهياً. كنّا قد عُدنا للتوّ من المستشفى. إنغريد هي التي رثت على الهاتف أولاً، واكتفتُ بالقول إنها لا تعرفك، وإنه لا يمكنها أن تتكلّم معك. كنتُ آنذاك جالساً منحنيّاً على طاولة الطعام، وأخبرتُ إنغريد بأنني أعرف من أنت، إلا

أنني مثلها لم أجدني قادرًا على التحدث معك. يونس هو من أخذ سماعة الهاتف في النهاية وأطلعك على ما جرى. ولم أمنعه.

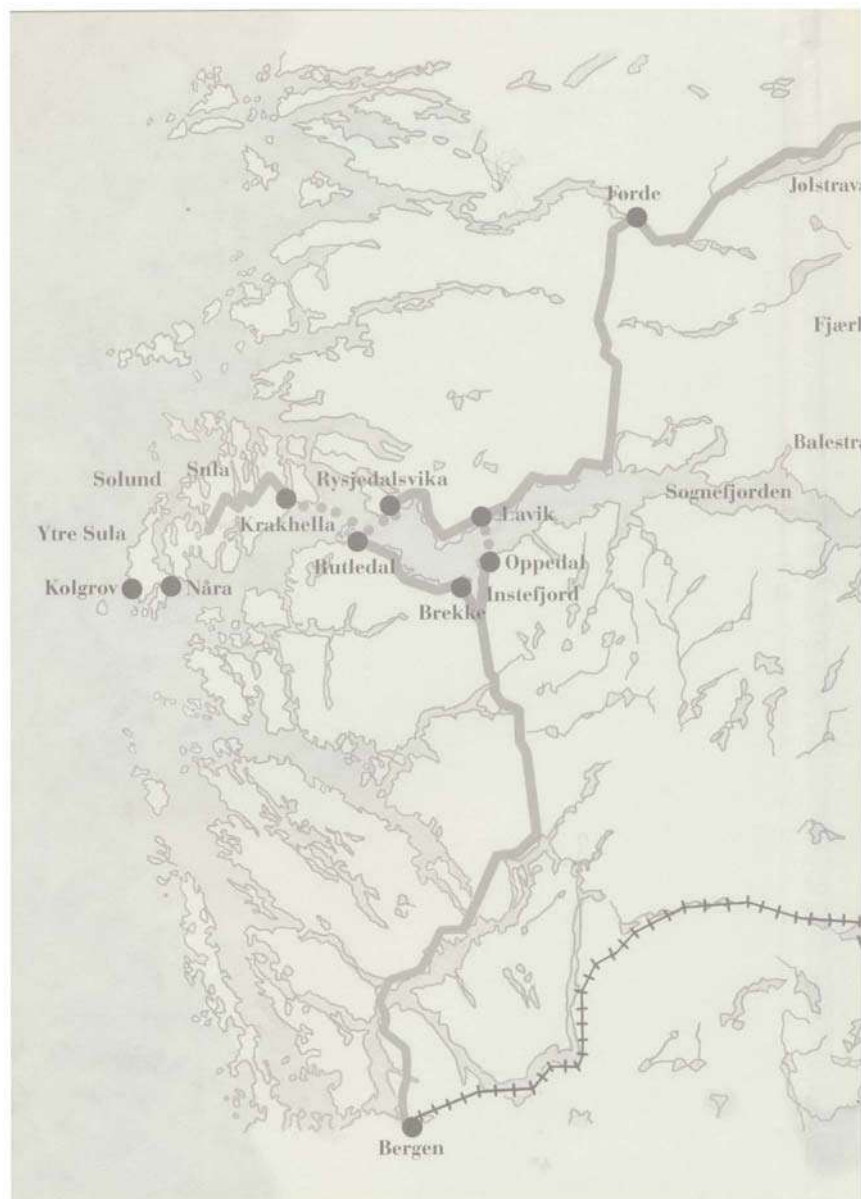
وماذا فعلت بعد ذلك؟ بقيت في "بيرغن" إلى أن أُرِفَ موعد الجنازة؟ أم خرجت ورُخِّتَ تحقّق في البحر؟
هذه الأسئلة ليست إلا بلاغية.

من الآن فصاعدًا أودُّ أن تتقطّع جميع الاتصالات بيننا، وأمل أن تحترم رغبتى هذه. سيكون عليّ أنا والولدين لمدة طويلة قادمة بذل ما يفوق طاقتنا من جهد ليعتني كلّ منا بالآخر.

لقد خلّفت فراغًا وراءها هنا في "سكانسن". وفي ناحيتنا من هذا الجبل، لطالما كان هناك أناس آخرون يهتمهم أيضًا أمر سولرن.
وحتى لو أفضى بي الأمر إلى أن ألتخِذَ من شخصية "رلينغ" دورًا لي، لن يجعلني ذلك أبدًا أعتبر سولرن إنسانة عادية.

هذا كل شيء.

نيلز بيتر



جوستاين غاردر مؤلف "عالم صوفي" في رواية جديدة

بعد فراق دام ثلاثين سنة يلتقي ستاين وسولرن في المكان الذي شهد
أروع أيامهما معاً وأشدّها إيلاًماً. فهل جاء هذا اللقاء، في ذلك المكان وذلك الزمان
بالتحديد محض صدفة أم كانت هناك قوى خفية تقف وراءه؟ وهل رسم لهما هذا
اللقاء خطوط بداية جديدة أم نهاية غير متوقعة؟

يحملنا جوستاين غاردر، مرة أخرى بعد "عالم صوفي"، على أجنحة
رواية إبداعية تجمع بين الحب والفلسفة والعلم في رحلة فكرية تأخذ مجراها عبر
أفاق رسائل إلكترونية يتبادلها الأبطال.

ومثل قلعة البيرينييه في لوحة الفنان "ماغرت" التي تتوّج صخرة عائمة
في الفراغ فوق البحر، يتركنا غاردر نسيح وحدنا في الهواء على صهوة جملة من
علامات الاستفهام التي تتمحور حول طبيعة وجودنا ومكانة وعينا في هذا الكون،
على أمل أن يعثر كل منا على الأجوبة التي يملئها عليه حدسه.

